الإيضاح

في علوم البلاغة

للخطيب القزويني المتوفى عام ٧٣٩ هـ

شرح وتعليق وتنقيح
د. محمد عبد المنعم خفاجي
الأستاذ والعميد بجامعة الأزهر

الجزء الأول

دار الجيل
بيروت

الطبعة الثالثة
١٤١٤هـ - ١٩٩٣م

بسم الله الرحمن الرحيم

الكلمة الأولى

أحمده وأسأله التوفيق والسداد ، وبعد :

فهذا شرح جديد مفصل ، لكتاب الايضاح ، تأليف العالم الامام الخطيب القزوينى ، امام البلاغة وشيخ البيان ، المتوفى عام ٧٣٩ هـ .

توخيت فيه عمق البحث ، ودقة التحليل ، والعناية ببسط المسائل ، وحل المشكلات ، وأومأت فيه الى شتى المراجع والمصادر . ليكون جامعا لمسائل البلاغة ومصدرا للدراسات العالية فيها ، ومرجعا للطلاب والدارسين والباحثين . والله يعلم مقدار ما أخذ منى من جهد وبحث ومراجعة ، ومع ذلك فقد ثابرت على كتابته واخراجه ، لبسد النقص الذى نلمسه فى دراسات البلاغة .

وقد ظهرت الطبعة الأولى لهذا الكتاب عام ١٩٤٩ . وها هى دى الطبعة الثانية منقحة مهذبة . والله أسأله أن يجعله خالصا لوجهه ، وأن ينفع به العلم والثقافة ولغة الكتاب العزيز . فهو وليى ، نعم المولى ونعم النصير .

وما توفيقى الا بالله عليه توكلت واليه أنيب .

محمد عبد المنعم خفاجى

مقـــــدمات

نشأة البلاغة العربية ومراحل التاليف فيها :

١ — كان القرن الثانى الهجرى أول عصر شهد نشأة آراء كثيرة أصيلة ومترجمة حول البلاغة (١) وعناصرها ، بعد فساد الملكات ، وقد أخذ العلماء فى بحث أصول بلاغات العرب ، وفى تدوين آرائهم فى معنى كلمة البلاغة والفصاحة • وأهم مايؤثر من ذلك : وصية بشر بن المعتمر — من زعماء المعتزلة وتوفى نحو عام ٢١٠ هـ — فى البلاغة (٢) ، وتفسير ابن المقفع للبلاغة (٣) ، وتعريف العتابى لها (٤) ، ووصية (٥) أبى تمام للبحترى تدخل فى هذا الباب ، ويقول البحترى : خير الكلام ما قل ودل ولم يمل (٦) •• وفى البيان للجاحظ تحديد للبلاغة كما يراها حكيم الهند (٧) ، ويقسمها الكندى فيلسوف العرب المتوفى عام ٢٦٠ هـ الى ثلاثة أنواع : فنوع لا تعرفه العامة ولا تتكلم به ، ونوع بالعكس ،

---

(١) لاتجد فى العصر الجاهلى كلمات عن البلاغة الا ما روى عن عامر ابن الظرب حين سئل من أبلغ الناس ؟ فقال : من حلى المعنى المزين باللفظ الوجيز وطبق المفصـــل قبل التحزيز (٢٠٦ جـ ١ العمـــدة ، ٢٨٠ جـ ٢ الامالى) •• وفى العصر الاموى نجد لمعاوية كلمات فى البلاغة ولسواه ، روى أن معاوية سأل صحارا عنها فاجابه (راجع ٨١ جـ ١ البيان ، ١٨ جـ ٢ الكامل) .

(٢) ١٠٤ وما بعدها جـ ١ البيان .

(٣) ٩١ جـ ١ البيان ، ٢١٤ جـ ١ العمدة ، ٧٥ جـ ١ البيان ، ٤٤ — ٤٦ الرسالة العذراء ، ٢ و ٣ و ٢٢ و ٢٣ جـ ٣ العقد ، ١٤٠ — ١٥٠ جـ ١ زهر الآداب .

(٤) ٩٠ و ١٥٧ جـ ١ البيان .

(٥) ١٥١ جـ ١ زهر الآداب .

(٦) ٣٦ جـ ١ المستطرف وتروى عن الثعالبى برواية اخرى : « ما قل ودل » (٢١٨ جـ ١ العمدة) .

(٧) ٧٨ و ٧٩ جـ ١ البيان ، ٢٠ — ٣٨ الصـــناعتين ، ١٤٤ جـ ١ زهر ، ٤٤ الرسالة العذراء .

ونوع تعرفه ولا تتكلم به وهو أحمدها (١) ، وذكر بزر جمهر حكيم الفرس فضائل الكلام ورذائله فيكلمة مترجمة رواها صاحب الموازنة (٢). الى آخر هذه الكلمات والآراء .

٢ — ثم ألفت بعد ذلك كتب تجمع كثيرا من الآراء والدراسات الموجزة حول البلاغة وبحوثها . ومن هذه الكتب : مجاز القرآن لأبى عبيدة م ٢٠٧ هـ والفصاحة للدينورى م ٢٨٠ هـ (٣) والتشبيه والتمثيل للفضل بن نوبخت (٤) وصناعة الكلام للجاحظ (٥) ، ونظم القرآن (٦) والتمثيل (٧) له أيضا ، والبلاغة وقواعد الشعر للمبرد (٨) .. وفى الكامل اشارات لمسائل كثيرة فى البلاغة ، وكذلك الرسالة العذراء لابن المدبر ، والبلاغة للحرانى (٩) ، وقواعد الشعر لثعلب ، وقد نشرته عام ١٩٤٨ بشروح كثيرة ، والبلاغة والخطابة للمروزى (١٠) والمطابق والمجانس لابن الحرون(١١) وتهذيب الفصاحة لأبى سعيد الأصفهانى(١٢) واعجاز القرآن فى نظمه وتأليفه للواسطى المعتزلى م ٣٠٦ هـ ، وصنعة البلاغة للباحث ، وللسيرافى م٣٦٨هـ . ونظم القرآن لابن الأخشيد(١٣)، وكذلك لابن أبى داود م ٣١٦ هـ (١٤) وكتاب الرد على من نفى المجاز فى القرآن للحسن بن جعفر (١٥) ... ومن هذه الكتب أيضا المفصل فى البيان ، والفصاحة للمرزبانى م ٣٧٨ هـ .

على أن أهم الكتب التى تناولت بعض مسائل البلاغة بالبحث ،

---

(١) ٢١٩ جـ ١ العمدة .
(٢) ١٨٣ الموازنة .
(٣) ١١٦ الفهرست لابن النديم .
(٤) ٣٨٣ المرجع .
(٥) ٣٨ الجاحظ لمردم .
(٦) ٤٠ المرجع .
(٧) ٧٦ جـ ٦ معجم الادباء .
(٨) ٨٨ فهرست ، ١٤٤ جـ ٧ معجم الادباء .
(٩) ١٧٨ فهرست .
(١٠) ٢١٥ فهرست .
(١١) ٢١٢ فهرست .
(١٢) ١٩٧ فهرست .
(١٣) ٥٧ و ٥٨ فهرست .
(١٤) ٣٢٤ فهرست .
(١٥) ٥٢٠ فهرست .

أو التى ألفت فيها خاصة هى : كتاب جمهرة أشـــعار العرب لأبى زيد القرشى ، ففى مقدمته بحوث موجزة طريفة تتصل بالبلاغة • وكتاب البيان والتبيين للجاحظ ، وهو أهم ما ألف فى هذا الطور من كتب تتصل ببلاغات العرب نثرا وشعرا ، وتتعرض لتحديد البلاغة وما حولها من آراء كانت ذائعة فى عصر الجاحظ ، وفيه كثير من بحوث البلاغة ، فهو يعرف الاستعارة (١) ويتكلم على السجع (٢) ويشـــير الى التفصـــيل والتقسيم (٣) والاســـتطراد والكناية (٤) والأمثال (٥) والاحتراس (٦) والقلب (٧) والأسلوب الحكيم (٨) ، والجاحظ أول من تكلم على المذهب الكلامى (٩) ويرى البلاغة فى النظم لا فى المعانى (١٠) وهو ما ذهب اليه ابن خلدون (١١) • والجاحظ يشيد بالايجاز (١٢) ، كما يدعو فى البيان كثيرا الى ترك الوحشى والسوقى ، ويحث على الافهام والوضوح ، وعلى ترك التعمق والتهذيب فى صناعة الكلام ، الى غير ذلك من شتى ما دونه فى البيان •• ولا يضير الجاحظ أن كانت دراساته موجزة مفرقة كما يقول أبو هـــلال (١٣) ، فهى على كل حال ذات أثر كبير فى نشـــأة البيان ، وهى التى أوحت الى كثير أن يعدوا الجاحظ الواضع الأول لعلم البيان • ومن الخطأ التهوين بأثر الجاحظ فى البيان كما ذهب اليه بعض الباحثين المحدثين •

---

(١) ١١٦ جـ ١ البيان •
(٢) ١٩٤ جـ ١ البيان •
(٣) ١٧٠ جـ ١ و ٩١ جـ ٢ البيان •
(٤) ١٨٠ جـ ١ و ٨ و ٢٩ و ٣١ و ٨٠ جـ ٣ البيان •
(٥) ٨٦ و ٨٨ و ١٩٤ و ١٨٣ جـ ١ و ٢٢٤ جـ ٢ البيان •
(٦) ١٦١ جـ ١ البيان •
(٧) ١٨٠ جـ ١ البيان •
(٨) ٢٠١ و ٢٠٢ جـ ٢ البيان •
(٩) ١٠١ البديع لابن المعتز نشر محمد خفاجى ، ٧٦ حـ ٢ العمدة •
(١٠) ٤٠ جـ ٣ الحيوان •
(١١) ٥٧٧ مقدمة ابن خلدون • ويقول شيلر : فى الفن الشكل هو كل شىء والمعنى ليس شيئا مذكورا •
(١٢) ٨٣ و ٨٦ جـ ١ ومواضيع اخرى •
(١٣) ص ٦ و ٧ الصناعتين •

٣ — وقد بدأ التدوين فى البــلاغة على يد ابن المعتز الذى ألف كتابه القيم « البديع » (١) وثعلب الذى ألف كتابه « قواعد الشعر » ، وبعد قليل ظهر نقد النثر كما ظهر نقد الشعر لقدامة بن جعفر المتوفى عام ٣٣٧ هـ . ثم كتاب الصناعتين لأبى هلال المتوفى عام ٣٩٥ هـ ، ثم كتاب الموازنة للآمدى ، والوســاطة للجرجانى ، واعجــاز القــرآن للباقلانى ، وسر الفصاحة لابن سنان الخفاجى ، والعمدة لابن رشيق وهما أكثر الكتب اتصالا بالبلاغة .

٤ — ثم جاء بعد ذلك أبو بكر عبد القاهر الجرجانى شيخ البلاغة العربية والمتوفى عام ٤٧١ هـ . فألف فى البلاغة كتابين جليلين هما :

١ — أسرار البلاغة ، وفيه دراسات واســعة تتناول بحوث علم البيان من تشبيه ومجاز واستعارة وفيه شرح للسرقات وبعض ألوان البديع .

٢ — دلائل الاعجاز ، وفيه بحوث كثيرة هى أصول علم المعانى . كما أنه تحدث فيه عن الكناية وعن التمثيل والمجاز والاستعارة والسرقات أيضــا .

٥ — وبعــد عصر الجرجانى بحث الزمخشرى فى تفســيره ، والرازى فى كتابه « نهاية الاعجاز » ، وابن الأثير صــاحب المثل (٢) الســائر ، وبدر الدين بن مالك صاحب المصــباح ، والتنوخى صاحب « الأقصى القريب » ، وكثير من العلماء ، فى البلاغة والفصاحة .

ومن أهم هؤلاء العلماء فى هذا الطور أبو يعقوب السكاكى المتوفى عام ٦٢٦ هـ تلميذ الحاتمى (٣) ، الذى ألف كتابه « المفتاح » ، وجعله

---

(١) على نهجه الف ابن منقذ المتوفى عام ٨٤ هـ كتابه « البديع » .
(٢) شرحه عز الدين بن أبى الحديد م ٦٦٥ هـ فى كتابه « الفلك الدائر على المثل السائر » .
(٣) ٧٣ المفتاح .

أقساما ، وخص البلاغة بالقسم الثالث منه ، وقسمها الى ثلاثة أقسام : المعانى — البيان — البديع . وبذلك تميزت علوم البلاغة ومباحث كل علم منها بالتفصيل .

والفلسفة والمنطق تغلب على السكاكى الى حد كبير ، من حيث كان يغلب الذوق والطبع على عبد القاهر .

وبذلك تنتهى مراحل التاليف والابتكار فى بحوث البلاغة وتدوينها تدوينا كاملا .

٦ — وجاء الخطيب القزوينى المتوفى عام ٧٣٩ فألف فى البلاغة كتابيه : تلخيص (١) المفتاح والايضاح . وقد ألف الايضاح ليكون كالشرح لتلخيص المفتاح وجمع فيه كثيرا من آراء عبد القاهر والسكاكى فى شىء من التنظيم والشرح .

وعلى متن التلخيص كثرت الشروح والحواشى والتقارير وفى مقدمتها الأطول للعصام ، والمطول (٢) للسعد وشروح التلخيص وسواها ... وهذه أهم كتب البلاغة وشروحها فى هذا العهد : قوانين البلاغة لعبد اللطيف البغدادى م ٦٢٩ هـ ، والتبيان لابن الزملكانى م ٦٥١ هـ ، والمعيار للزنجانى م ٦٥٤ هـ ، وبديع القرآن لابن أبى الاصبع م ٦٥٤ هـ ، والفوائد الغياثية للعضد م ٧٥٦ هـ وشرحها الكرمانى م ٧٨٦ هـ ، والتبيان لشرف الدين الطيبى م ٧٤٣ هـ ، والطراز ليحيى ابن حمزة العلوى م ٧٤٩ هـ ، وعروس الأفراح للسبكى م ٧٧٣ هـ ، والسمرقندية للسمرقندى وهى رسالة فى الاستعارات ، وتوفى السمرقندى عام ٨٨٠ هـ .

---

(١) لزكريا الانصارى م ٩٢٦ هـ « مختصر تلخيص المفتاح » : وللعباسى م ٩٦٣ شرح لشواهد التلخيص سماه معاهد التنصيص .

(٢) عليه كتاب فى شرح شواهده اسمه عقود الدرر فى حل ابيات المطول والمختصر ، وهو مطبوع طبعة حجر عام ١٣٠٧ هـ فى ١٦٦ صفحة .

٧ — شروح المفتاح للسكاكى .

(ا) شرحه بتمامه المولى حسام .

(ب) وشرح القسم الثالث منه : الشيرازى م ٧١٠ هـ فى « مفتاح المفتاح » . والترمذى وهو معاصر للشيرازى ، والخلخالى م ٧٤٥ هـ ، والسعد (٧١٢ — ٧٩١ هـ) ، والسيد م ٨١٦ هـ فى « المصباح » الذى ألفه عام ٨٠٣ (١) هـ ، وعماد الدين الكاشى . وله رسالة فى حل المتشابهات التى أوردها الخطيب على المفتاح ، والابهرى سلطان شاه ، وطاشكبرى زاده م ٩٦٢ هـ ، وشيخ زاده م ٩٥١ هـ ، والشربينى م ٧٦٩ هـ ، والخوارزمى ، وقد فرغ منه عام ٦٤٢ هـ ، والفنارى م ٨٣٤ ، وله على شرحى السعد والسيد تعليقات ، وابن كمال باشا م ٩٤٠ ، وسواهم .

(جـ) واختصر القسم الثالث منه :

المعانيجى م ٩٩٠ هـ ، والقـزوينى ٦٦٦ — ٧٣٩ هـ ، والايجى م ٧٥٦ هـ فى الفوائد الغياثية ، وبدر الدين ابن مالك م ٦٨٦ هـ فى « المصباح فى اختصار المفتاح » ونظم « المصباح » المراكشى ثم شرحه وسماه « ضوء المصباح على ترجيز المصباح » ، واختصر هذا المختصر ابن النحوية م ٧١٨ هـ ، وسماه « ضوء الصباح » ، ثم شرحه فى مجلدين فى كتاب اسفار الصباح عن ضوء المصباح ، ولمحمد بن خضر « مصباح الزمان فى شرح المصباح » .

هـذا وقد ألف السـعد « المطول على تلخيص المفتاح للخطيب القزوينى » وانتهى من تأليفه عام ٧٤٨ هـ ، كما انتهى من تأليف مختصر المطول عام ٧٥٦ هـ .. وفرغ ابن يعقوب من تأليف شرحه على مختصر

---

(١) على شرح السيد حواش : للبسطامى م ٨٧١ هـ ، وللمولى اللطفى م ٩٠٠ هـ ، ولحميد الدين م ٩٠٨ هـ ، ولاسعد الناجى م ٩٢٢ ، ولمحيى الدين الفنرى م ٩٥٤ ، وللشهاب الخفاجى م ١٠٦٩ هـ .

السعد فى مكناسة فى المحرم ١١٠٨ هـ ٠٠ وانتهى ابن السبكى من تأليف شرحه « عروس الأفراح » على مختصر السعد فى جمادى الأولى عام ٧٥٨ هـ ٠٠ وانتهى الدسوقى من كتابة شرحه على مختصر السعد فى شوال عام ١٢١٠ هـ ٠

٨ — يمتاز الايضاح للخطيب القزوينى بعدة ميزات ظاهرة : فهو أوفى كتاب فى بحوث البلاغة ، وهو أوضح الكتب المؤلفة فيها نظاما وأسلوبا ، وهو كثير البحث والتعمق والاستنباط لأسرار البلاغة العربية ، فوق أنه كتاب تطبيقى جميل فى البلاغة ، وينقد القزوينى فيه كثيرا من آراء السكاكى ، وان كان يعتمد الخطيب فيه على عبد القاهر والسكاكى كثيرا ٠ ومع ذلك فالخطيب يجمع فى كتابه خلاصات لبحوث علماء البلاغة فى شتى العصور حتى عصره ، والكتاب بعد ذلك غزير المادة ، كبير الفائدة فى الأدب والنقد والبلاغة والبيان (١) ٠

وهناك مؤلفات جديدة ظهرت فى البلاغة فى عصر الحواشى ، ومن بينها عقود الجمان للسيوطى ٠ كما ظهرت فى العصر الحديث عدة مؤلفات فى البلاغة فيها لون من التهذيب والتنسيق وحسن الأخذ والاختيار ٠

وبذلك تنتهى مراحل التأليف فى البلاغة منذ نشأتها حتى الآن ٠

---

(١) شرحه الاقصرائى م ٨٠٠ هـ وحيدرة م ٨٢٠ هـ ، والأستاذ الصعيدى والأستاذ التنوخى ٠

الخطيب وأثره فى البلاغة العربية :

والخطيب القزوينى (١) هو « جمال الدين أبو المعالى محمد بن عبد الرحمن ، ابن خطيب دمشق » كما يقول جورجى زيدان ، وبتفصيل أوسع هو « الشيخ الامام العالم العلامة خطيب الخطباء ، مفتى المسلمين ، جلال الدين ، أبو عبد الله ، محمد ، ابن قاضى القضاة سعد الدين أبى محمد عبد الرحمن ، ابن امام الدين أبى حفص عمر ، القزوينى الشافعى » كما يقول تلاميذه أو هو نفسه فى مقدمة كتابه الايضاح .

فهو من أسرة علمية ودينية كبيرة ، كان لها ولا شك أثرها فى حياته وتفكيره وروحه .

ولد عام ٦٦٦ هـ ، وتعلم الفقه ، وتولى القضاء ، وانتقل الى دمشق ، وتولى الخطابة فى مسجدها ، ثم تولى القضاء بمصر ، وتمكن نفوذه فيها أيام الملك الناصر ، اكتسب مالا طائلا ، ثم جاء الى دمشق وتوفى فيها . وأشهر مؤلفاته تلخيص المفتاح ، والايضاح فى المعانى والبيان (٢) ، وكانت وفاته عام ٧٣٩ هـ ، كما يقول صاحب الدرر الكامنة .

وتدل مؤلفات الخطيب فى البلاغة على ثقافة بلاغية وأدبية واسعة وقراءة مستفيضة لأهم المؤلفات فى البلاغة وفى مقدمتها : « أسرار البلاغة » و « دلائل الاعجاز » لعبد القاهر ، والمفتاح للسكاكى .

ألف الخطيب مختصرا صغيرا للمفتاح فى البلاغة ، أو للقسم

---

(١) شذرات الذهب ، الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة ، وسواها .

(٢) وقد حرف جورجى زيدان اسمه فذكره « الافصاح » بدل الايضاح (٤٤ جـ ٣ تاريخ آدب اللغة العربية) .

الثالث بعبارة أوضح ، وسماه « تلخيص المفتاح » (١) . لخص فيه ذلك السفر القيم وقدم فيه وأخر ، وحذف واختصر ، وفيه بعض آراء له لم يرتضها جهابذة هذه الفنون ، « ومن العجيب أن يسمى كتابه بهذا الاسم ، وهو فى رأى أحد الباحثين ليس بالتلخيص له وحده ، بل أشبه بأن يكون تلخيصا لكتابى أسرار البلاغة ودلائل الاعجاز لعبد القاهر ولسر الفصاحة لابن سنان الخفاجى .. وروح التلخيص من الكتاب الأخير واضح كل الوضوح فى مقدمته » (٢) . وقد يكون فى هذا الرأى لون من المبالغة ، فمتن التلخيص ليس تلخيصا للأسرار والدلائل وسر الفصاحة فى قليل ولا كثير ، انما هو تلخيص للقسم الثالث من المفتاح وحده ، وما فيه من روح التأثر بعبد القاهر فمرجعه الى المفتاح نفسه ، الذى اعتمد فيه السكاكى على عبد القاهر الى حد بعيد . وقد يستساغ ذلك فى الايضاح لا فى « تلخيص المفتاح » .

ثم ألف الخطيب كتابه الايضاح فى البلاغة على ترتيب التلخيص ، وبسط القول فيه ليكون كالشرح له ، فأوضح مواضعه المشكلة ، وفصل معانيه المجملة ، واعتمد على المفتاح والأسرار والدلائل وغير هذه المؤلفات فى بحوثه ودراساته فيه ، كما يشير اليه الخطيب نفسه فى مقدمة الايضاح . والكتاب « فيه أمهات مسائل هذه الفنون بعبارة واضحة فيها روح من أسلوب عبد القاهر الجامع بين التحقيق العلمى والرصانة الأدبية (٣) .

---

(١) شرحه الخلخالى م ٧٤٥ ، وناظر الجيش م ٧٧٨ هـ والبابرتى م ٧٨٦ ، وشمس الدين القونوى م ٧٨٨ هـ ، والتبريزى م ٧٩٣ هـ ، والسيد عبد الله م ٨٠٠ هـ ، وعصام الدين م ٩٥١ هـ ، والسعد م ٧٩١ هـ ... وعلى شرح السعد شروح : ليسن الحمصى م ٩٦١ ، ولابن يعقوب م ١١٠٨ هـ وللدسوقى هـ ١٢٣٠ هـ .

(٢) ٦٢ ، ١٣٧ بحوث وآراء فى علوم البلاغة للأستاذ المرحوم احمد المراغى .

(٣) ٦٣ المرجع .. وفى المكتبة الازهرية حاشية مخطوطة على ابيات

وعلى « تلخيص المفتاح للخطيب » كثير من الشروح والحواشى والتقارير مما يدل على مدى شهرته العلمية عند الباحثين . ولا يزال منهج الخطيب فى البلاغة وفى تلخيصه بالذات هو المنهج العلمى فى علوم البلاغة الى عصرنا الراهن .

وكتاب الايضاح عمل جليل فى البلاغة سـواء فى ترتيبه وتقسيمه وتنظيم بحوثه ، أم فى اسـتيعابه واستقصائه وتحليله ، أم فى جمعه واستمداده من شتى المصادر والمراجع ، أم فى أسلوبه الأدبى وروحه وكثرة تطبيقاته الأدبية ، وهو أهم كتاب دراسى فى البلاغة فى العصر الحاضر .

* * *

وهذا شرح جديد للايضاح ، يتناول بالبحث والتحليل والدراسة والتعليق والشرح جميع مسـائله وشواهده ، ويشير الى مصـادره ومراجعه التى ألف منها الخطيب هـذا الكتاب . وهو عمل سيكون له أثره فى البلاغة العربية ، وفى خدمة الايضاح وتذليل صعوبات البحث فيه بتوفيق الله .

ويمتاز هذا الشرح بدقة البحث . وطول المراجعة ، وكثرة الشرح والتفصيل ، والالمـام بكل رأى ، وتحليل كل مذهب ما عليه وما له ، وبعرض آراء جديدة فى شتى بحوث البـلاغة وعلومها .. كما يمتاز بمقدمته التى هى تأريخ للبلاغة ونشأتها وأطوار التاليف فيها ، وغير ذلك مما يحتوى عليه من مميزات ، وقد وضعنا للكتاب بعض العناوين المساعدة على فهمه وايضاحه .

الايضاح ، وهى نسخة فى مجلد بقلم فارسى فى ١٢٦ ورقة بنمرة (٤٣) ١٠٩٥ . وفيها نسخة اخرى فى مجلد بقلم معتاد بخط محمد حسن سـنة ١٣٦٥ فى ١٥٠ ورقة بنمرة (٢١١٠) ٥٢٨٦ .. شرح مخطوط على الايضاح، بدار الكتب المصرية .

ترجمة الخطيب

عن الدرر الكامنة لابن حجر (١) ، والعقد المذهب
لابن الملقن ، وشذرات الذهب (٢)

هو قاضي القضاة أبو المعالى جلال الدين محمد بن القاضى سعد الدين أبى القاسم عبد الرحمن بن امام الدين عمر القزوينى الشافعى .

ولد بالموصل سنة ٦٦٦ وسكن بلاد الروم ، مع والده وأخيه واشتغل بالعلم وتفقه على والده وولى قضاء نيكسار من بلاد الروم ثم قدم دمشق وسمع من العز الفاروثى وطائفة وحدث وتفقه واشتغل فى الفنون وأتقن الأصول والعربية والمعانى والبيان ، وكان فهما ذكيا مفوها ذا ذوق سليم حسن الايراد والمحاضرة حلو العبارة فصيحا جميل الهيئة كبير الذقن جوادا أديبا حسن الخط ، وناب عن أخيه الأكبر امام الدين قاضى قضاة الشام الى أن مات اخوه سنة ٦٩٩ ثم ولى خطابة جامع دمشق فأقام بها مدة طويلة ثم طلبه الملك الناصر الى القاهرة فى سنة ٧٢٤ وكان قدومه على البريد يوم الجمعة فاتفق أنه اجتمع بالناصر ساعة وصوله فأمر به أن يخطب بجامع القلعة فخطب مرتجلا مع ما هو عليه من التعب وأثر السفر فأعجب به السلطان وشكره وسأله عن حاله وكم عليه مَن الدين فذكر أن عليه ثلاثين ألفا فأمر بوفائها عنه فشافهه بقضاء دمشق فباشرها والخطابة جميعا الى أن ولاه قضاء الديار المصرية فى سنة ٧٢٧ فعظم أمره جدا وصرف مال الأوقاف على الفقراء والمحتاجين وحج مع السلطان فأعانه بمال وأحسن الى المصريين والشاميين وكان لهم ذخرا وملجأ ولم يزل على

---

(١) ص ٦ ج ٤ طبع الهند عام ١٣٥٠ هـ — لابن حجر م ٨٥٢ .
(٢) ٦/١٢٣ شذرات الذهب .

حاله الى أن أعيد الى قضاء الشام بسبب أحوال أولاده وفرح به أهل الشام فأقام قليلا وتعلل وأصابه فالج فمات منه فى سنة ٧٣٩ عن ٧٣ سنة فأسفوا عليه كثيرا وشيعه عالم عظيم ، وللشعراء فيه مدائح كثيرة ومراث عديدة وكان يرغب الناس فى الاشتغال بأصول الفقه وفى المعانى والبيان • وتصنيفه المسمى تلخيص المفتاح مشهور ونظمه السيوطى وسماه عقود الجمان •• وله ايضاح التلخيص أيضا •• وكان يعظم الارجانى الشاعر ويقول انه لم يكن للعجم نظيره واختصر ديوانه فسماه (السور المرجانى من شعر الارجانى) • وقال الذهبى : عظم شأنه لما ولى قضاء الديار المصرية وبلغ من العز مالا يوصف بحيث لا ترد له شفاعة وربما رمى على يد السلطان نفسه وكان فصيحا حلو العبارة ، مليح الصورة ، سمحا حليما كثيرة التحمل وسيرته تحتمل كراريس ، وذكر اليوسفى فى سيرة الملك الناصر محمد أن القاضى كان محسنا الى الناس كثير التصدق والمكارم والبر لأرباب البيوت ، قال : انه لم يوجد لأحد من القضاة منزلة عند سلطان تركى نظير منزلة جلال الدين ، وكان الناصر يحتمل ما ينقل اليه من سيرة ولده حتى كان يقول لوالى البلد : اكبس فلانا ثم يرسل اليه يقول : لا تفعل ، نبقى فى حياء من والده ••• فرحمة الله تعالى عليهم وغفرانه •

وترجم له السيوطى فى بغية الوعاة (ص ٦٦) ، فنسبه الى أبى دلف العجلى ، وذكر ما لا يخرج عما سبق ، ثم قال : ولا أعلمه نظم شيئا مع قوة باعه فى الأدب ، ومات فى منتصف جمادى الأولى عام ٧٣٩ هـ •

ويقول صاحب الدرر الكامنة : ان له ابنا اسمه محمد بن محمد بن عبد الرحمن بن عمر القزوينى ، وهو ابن القاضى جلال الدين خطيب جامع دمشق •• وقد ترجم له (١) •

(١) ١٨٥ جـ ٤ •• ويقول فيه : انه ولد عام ٧٠١ هـ وتفقه ومهر فى الخطابة ومات فى جمادى الآخر عام ٧٤٢ هـ •

أول كتاب الايضاح للخطيب القزوينى

تمهيـــــد :

قال الشيخ الامام ، العالم العلامة ، خطيب الخطبـــاء ، مفتى المسلمين ، جلال الدين : أبو عبد اللـــه محمد ، ابن قاضى القضـــاة سعد الدين أبى محمد عبد الرحمن ، ابن امام الدين أبى حفص عمر ، القزوينى الشافعى • متع الله المسلمين بمحياه ، وأحسن عقباه :

الحمد لله رب العالمين ، وصلاته على محمد وعلى آل محمد أجمعين •

أما بعد : فهذا كتاب فى علم البلاغة وتوابعها (١) ، ترجمتـــه (٢) بـــ « الايضاح » وجعلته على ترتيب مختصرى الذى سميته تلخيص المفتاح • وبسطت فيه القول ليكون كالشرح له ، فأوضحت مواضعه المشكلة ، وفصـــلت معانيه المجملة وعمدت الى ما خلا عنه المختصر ، مما تضمنه « مفتاح العلوم (٣) » ، والى ما خلا عنه المفتاح من كلام الشيخ الامام عبد القاهر الجرجانى (٤) رحمه الله — فى كتابيه : دلائل الاعجاز ، وأسرار البلاغة ، والى ما تيسر النظر فيه من كلام غيرهما(٥) ، فاستخرجت زبدة (٦) ذلك كله ، وهذبتها ورتبتها ، حتى استقر كل شىء منها فى محله ، وأضفت الى ذلك ما أدى اليه فكرى ، ولم أجده لغيرى •

فجاء بحمد الله جامعا لأشـــتات هذا العلم • واليه أرغب فى أن يجعله نافعا لمن نظر فيه من أولى الفهم •

وهو حسبى ونعم الوكيل •

---

(١) علم البلاغة يشتمل على المعانى والبيان وتوابعها هو علم البديع والكلام فى السرقات الشعرية •

(٢) المراد : سميته •

(٣) تاليف السكاكى م ٦٢٦ هـ •

(٤) هو شيخ البلاغة العربية وفيلســـوفها • توفى عام ٤٧١ هـ • واســـمه ابو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجانى : وله ترجمة فى فوات الوفيات وفى بغية الوعاة للسيوطى وعرض له ولكتابيه : الأسرار والدلائل صاحب كتاب بحوث وآراء فى علوم البلاغة (ص ٥٨ ، ١٢٩ — ١٣٢) .. وقد ألفت فيه كتابا عنوانه « عبد القاهر والبلاغة العربية » •

(٥) اى غير السكاكى والجرجانى •

(٦) زبدة الشىء : جوهره وخلاصته •

مقـــدمة (١)

فى الكشف عن معنى الفصاحة والبلاغة

وانحصار علم البلاغة فى علمى (٢) المعانى والبيان

للناس فى تفســير الفصاحة والبلاغة أقوال مختلفة ، لم أجــد فيما بلغنى منها • ما يصلح لتعريفها به ، ولا ما يشير الى الفرق بين كون الموصوف بهما الكلام وكون الموصــوف بهما المتكلم (٣) ، فالأولى أن نقتصر على تلخيص القول فيهما بالاعتبارين ، فنقول :

---

(١) الايضاح مقسم الى : مقدمة وثلاثة فنون وخاتمـــة ، فالمقـــدمة ليست من قبيل مقاصـــد علم البلاغة وتوابعهـــا ، بل هى تمهيد لذلك ، والفنون الثلاثة هى من مقاصد البلاغة الا ان موضوع كل فن منها يختلف عن موضوع الآخر ، فموضوع الفن الاول — وهو علم المعانى — الاحتراز عن الخطأ فى تادية المعنى المراد ، وموضوع الفن الثانى — علم البيـــان — الاحتراز عن التعقيد المعنوى ، وموضوع الفن الثالث — البديع — ليس الاحتراز عن شىء اصلا ، بل مجرد تحســين اللفظ وتزيينه . والخاتمة تشمل السرقات والكلام على حسن الابتداء والتخلص وحسن الخاتمة ، فهى من الفن الثالث او متصلة به بصلة كبيرة .

والمقدمة هنا لبيان معنى شيئين : الاول معنى الفصاحة والبلاغة ، والثانى انحصار علم البلاغة فى علمى المعانى والبيان . وكل ذلك مما يرتبط بالمقصود من الكتاب .. فالمقدمة هنا هى مقدمة كتاب .

وذكر معنى الفصاحة والبلاغة قبل الشروع فى مسائل المعانى والبيان والبـــديع ضرورى ، لتوقف معرفة معانيهـــا على معرفة معنى البـــلاغة والفصاحة .

(٢) فى الأصل « فى علم » .

(٣) فى هذا الكلام شىء من المجازفة : فقد سبق ابو هلال ببيان الفرق بين الفصاحة والبلاغة فى الصناعتين ، فذكر ان البلاغة هى كل ما تبلغ به المعنى قلب السامع فتمكنه فى نفسه لتمكنه فى نفسك مع صورة مقبولة =

* * * * * * * * * * * * * *

= ومعرض حسن ، ثم قال : واما الفصاحة فقد اختلفوا فيها ، فقال قوم : انها مأخوذة من قولهم : افصح فلان عما فى نفسه اذا اظهره وعلى هذا ترجع الفصاحة والبلاغة الى معنى واحد وان اختلف اصلهما فى اللغة ، وقال بعضهم : الفصاحة تمام آلة البيان ، وعلى هذا تكون الفصاحة والبلاغة مختلفين ، وذلك ان الفصاحة تمام آلة البيان فهى مقصورة على اللفظ والبلاغة انما هى انهاء المعنى الى القلب فكأنها مقصورة على المعنى الخ (٣٩ وما بعدها صناعتين) .

وذكر ابن سنان الخفاجى فى سر الفصاحة ان الفصاحة مقصورة على وصف الالفاظ والبلاغة لا تكون الا وصفا للألفاظ مع المعانى ، فلا يقال فى كلمة واحدة انها بليغة وان قيل انها فصيحة اذا فضلت عن مثلها ، وكل كلام بليغ فصيح وليس كل فصيح بليغا كالذى يقع فيه الاسهاب فى غير موضعه ، ثم قال : والفصاحة على ذلك شطر البلاغة واحد جزءيها ، ولها شروط اذا تكاملت فى الالفاظ فلا مزيد على فصاحتها ، وتلك الشروط : منها ما يتعلق باللفظة الواحدة ، ومنها ما يوجد فى الالفاظ المنظومة بعضها مع بعض .. وهذا كله هو خلاصة رأى القزوينى اقتبسه من ابن سنان (راجع ص ٥٥ وما بعدها من سر الفصاحة طبعة الرحمانية) وذكر ابن رشيق فى العمدة : ان البلاغة والفصاحة راجعان الى اللفظ والمعنى جميعا الخ (ص ٨٠ طبعة هندية) .

وذكر عبد القاهر : ان البلاغة والفصاحة وما يجرى مجراها مما يفرد فيه اللفظ بالنعت والصفة وينسب فيه الفضل والمزية اليه دون المعنى معناها حسن الدلالة وتمامها فيما له كانت دلالة ثم تبرجها فى صورة هى ابهى ، ولا جهة لذلك غير ان يؤتى المعنى من الجهة التى هى اصح لتأديته ويختار له اللفظ الذى هو اخص به واكشف عنه واحرى بأن يظهر مزية (ص ٣٥ من دلائل الاعجاز) ، وقال فى اسرار البلاغة : اما رجوع الاستحسان (اى الوصف بالبلاغة والفصاحة) الى اللفظ من غير شرك من المعنى فيه فلا يعدو نمطا واحدا ، هو ان تكون اللفظة مما يتعارفه الناس فى استعمالهم ويتداولونه فى زمانهم ، ولا يكون وحشيا غريبا او عاميا سخيفا (ص ٣ اسرار البلاغة) ، فالبلاغة والفصاحة عنده مترادفان ، وان اختلف فهم كلامه فيهما وفى هل يرجعان عنده الى اللفظ او الى المعنى . ويرى عبد القاهر ان الفصاحة تقال لكون اللفظ جاريا على القوانين المستنبطة من استقراء كلامهم كثير الاستعمال على السنة =

كل واحدة منهما(١) تقع صفة لمعنيين : أحدهما الكلام كما فى قولك قصيدة فصيحة أو بليغة ، ورسالة فصيحة أو بليغة ، والثانى المتكلم كما فى قولك شاعر فصيح أو بليغ ، وكاتب فصيح أو بليغ . والفصاحة خاصة تقع صفة للمفرد فيقال : كلمة فصيحة ، ولا يقال كلمة (٢)

= العرب الموثوق بعربيتهم (ص ٣٥٣ دلائل الاعجاز) وهو كلام السكاكى ايضا (ص ١٧٦ من المفتاح) .

ويرى السكاكى ان البلاغة بلوغ المتكلم فى تادية المعانى حدا له اختصاص بتوفية خواص التراكيب حقها وايراد انواع التشبيه والمجاز والكناية على وجهها ، واما الفصاحة فهى عنده قسمان : قسم يرجع الى المعنى وهو خلوص الكلام من التعقيد المعنوى ، وقسم يرجع الى اللفظ وهو ان تكون الكلمة عربية اصلية جارية على السنة الفصحاء من العرب الموثوق بعربيتهم ، لا مما احدثه المولدون ، ولا مما اخطات فيه العامة (وان تكون) سليمة من التنافر (راجع ص ١٧٦ من المفتاح) .

ويرى ابن الاثير انه يحتاج فى تاليف الكلمات الى ثلاثة اشياء : اختيار الالفاظ المفردة ، ونظم كل كلمة مع اختها بحيث لا يكون هناك قلق ولا منافرة ، والغرض المقصود من ذلك الكلام على اختلاف انواعه ... والاول والثانى عنده هما المراد بالفصاحة ، والثلاثة بجملتها هى المراد بالبلاغة . وتكلم فى كتابه المثل السائر على الصناعة اللفظية (وهى عنده قسمان : قسم اللفظة المفردة ، وقسم الالفاظ المركبة) ، وعلى الصناعة المعنوية .

(١) اى من البلاغة والفصاحة .

(٢) هذا هو الفرق بين الفصاحة والبلاغة عند الخطيب ، فالفصاحة عنده صفة للمفرد والكلام والمتكلم ، والبلاغة صفة للكلام والمتكلم فقط . ولا شك ان من يرى ان البلاغة والفصاحة مترادفان يجيز ان يقال كلمة بليغة كما يقال كلمة فصيحة ، وان كان عبد القاهر — الذى يرى أن الفصاحة والبلاغة مترادفان — يجعلهما وصفا للكلام لا للفظ المفرد فلا تقول عنده كلمة فصيحة ولا كلمة بليغة .

هذا والمراد بالكلام ما يقابل الكلمة فيشمل المركب الاسنادى والمركب الناقص جميعا ، فانه قد يكون بيت من القصيدة غير مشتمل على اسناد يصح السكوت عليه مع انه متصف بالفصاحة مثل : =

بليغة (١) .

=

اذا ما الغانيات برزن يوما وزججن الحواجب والعيونا

فيكون المراد بالكلام تاما او ناقصا . وورد على هذا الراى اعتراضات منها : ان المركب الناقص انما يصح ادخاله فى مدلول الكلام لو كانوا يطلقون على مثل هذا المركب انه كلام فصيح ولم ينقل عنهم ذلك بل المنقول وصفهم له بانه فصيح دون كونه كلاما ، على انه يجوز ان يكون وصفه بالفصاحة باعتبار فصاحة مفرداته .

وقيل ان المركب الناقص خارج عن المفرد وعن المركب التام فلا يتصف بالفصاحة والبلاغة بالنظر لذاته بل قد يوصف بها بالنظر لمفرداته .

والصحيح ان المراد بالكلام ما يقابل المفرد ، حقيقة (وهو اللفظة الواحدة المفردة) او حكما (وهو المركب الناقص) ، فالمركب الناقص على هذا داخل فى المفرد ، لان المفرد يطلق على ما يقابل المركب ، وعلى ما يقابل المثنى والمجموع وعلى ما يقابل الكلام ، ومقابلة المفرد هنا بالكلام قرينة دالة على انه اريد به ما ليس بكلام تام الافادة ، فيكون المركب الناقص داخلا فيه — اى فى المفرد —

(١) اذ لم يسمع ذلك عن العرب ، وهذا هو التعليل الصحيح . وبعضهم يعلل لهذا بأن البلاغة انما هى باعتبار المطابقة لمقتضى الحال وهى لا تتحقق فى المفرد ، وورد على هذا التعليل بان عدم تحقق المطابقة لمقتضى الحال فى المفرد انما هو فى بلاغة الكلام والمتكلم ، فلم لا يجوز ان تكون هناك بلاغة اخرى غير المطابقة يصح وجودها فى الكلمة ؟

الفصاحة (١)

أما فصاحة المفرد (٢) فهى خلوصه (٣) من تنافر الحروف والغرابة ومخالفة القياس اللغوى :

---

(١) هى فى اللغة تنبىء التزاما عن الظهور والابانة (راجع ص ٣٥٣ من الدلائل) يقال : فصح الأعجمى وافصح : اذا انطلق لسانه وخلصت لغته من اللكنة وجادت فلم يلحن ، وافصح به اى صرح ، وفصح اللبن اذا اخذت رغوته وذهب لباؤه ، قال ابو محجن الثقفى او نضلة السلمى :

رأوه ، فازدروه ، وهو خرق وينفع اهله الرجل القبيح

فلم يخشوا مصالته عليهم وتحت الرغوة اللبن الفصيح

(٢) بدأ بذكر أقسام الفصاحة وتعريف كل قسم منها على حدة دون أن يعرفها فى نفسها على الاطلاق لتعذر جمع المعانى المختلفة غير المشتركة فى امر يعمها فى تعريف واحد .. وقدم الكلام على الفصاحة قبل البلاغة ، لأن معرفة البلاغة سواء كانت بلاغة كلام ام متكلم موقوفة على معرفة الفصاحة فى الجملة (اذ لا دخل لفصاحة المتكلم فى بلاغة الكلام أو المتكلم) ، لكون الفصاحة مأخوذة فى تعريف البلاغة ، ولهذا ايضا قدم فصاحة المفرد على فصاحة الكلام والمتكلم ، اما توقف فصاحة الكلام على فصاحة المفرد فظاهر ، واما توقف فصاحة المتكلم عليه فبواسطة أخذ فصاحة الكلام المتوقف عليها فى فصاحة المفرد .. هذا وعيب المفرد اما فى مادته اى حروفه وهو التنافر او فى صورته وهو المخالفة للقياس اللغوى المستنبط من استقراء اللغة (فالقياس اللغوى هو الضابط المتقرر من استعمالات العرب وهو القياس الصرفى) ، واما من دلالته على معناه وهو الغرابة .

(٣) تفسير الفصاحة بالخلوص من هذه العيوب لا يخلو من تسامح ، لأن الفصاحة تحصل عند الخلوص ، لانها هى كون الكلمة جارية على القوانين الصرفية متناسبة الحروف كثيرة الاستعمال ، ويلزم من ذلك الخلوص ، وبتفصيل ادق اقول : الفصاحة هى كون اللفظ جاريا على القوانين المستنبطة من استقراء كلام العرب كثير الاستعمال على السنة العرب الموثوق بعربيتهم .

فالتنـــافر (١) :

منه ما تكون الكلمة بسببه متناهية فى الثقل على اللســـان وعسر النطق بها ، كما روى أن أعرابيا ســـئل عن ناقته فقال : تركتها ترعى الهمخع (٢) .

---

(١) هو وصـــف فى الكلمة يوجب ثقلها على اللســـان وعسر النطق بها ، والحكم فى التنافر هو الذوق ، وهو قوة يدرك بهـــا لطائف الكلام ووجوه تحسينه ، فكل ما يعده الذوق الصحيح ثقيلا متعسر النطق به فهو متنافر سواء كان من قرب المخارج او بعدها او غير ذلك ، وقد صرح بذلك ابن الاثير فى « المثل الســـائر » . وقال الزوزنى : ان قرب المخارج سبب للثقل المخل بالفصـــاحة ، وان فى قوله تعالى « الم اعهـــد اليكم يا بنى آدم » ثقلا قريبا من التناهى فيخل بفصاحة الكلمة ، ولكن الكلام الطويل المشتمل على كلمة غير فصيحة لا يخرج عن الفصاحة ، كما لا يخرج الكلام الطويل المشـــتمل على كلمة غير عربية عن أن يكون عربيا . ورد راى الزوزنى بما ياتى :

١ — ان فصاحة الكلمات ماخوذة فى تعريف فصاحة الكلام من غير تفرقة بين طويل وقصير .

٢ — وان الزوزنى يرى ان الكلام ما ليس بكلمة ، وحينئذ فالقولُ بوجود كلمة غير فصيحة فى كلام فصيح اكثر فسادا من ذلك القول على تفسير غيره ، فالفساد لازم لكلام الزوزنى فى المركب التام وفى المركب الناقص اذا اشتمل كل منهما على كلمة غير فصيحة ، اما على قول غير الزوزنى وهو الشارح (السعد) فالفساد فى المركب التام فقط لانه يجعل المركب الناقص داخلا فى الكلمة .

٣ — على ان القياس على الكلام العربى ظاهر الفســـاد ، لان القرآن عربى باعتبار كله او جله ، وايضا فلم يشـــترط فى عربية الكلام عربية الكلمات .

٤ — ولو سلم عدم خروج السورة عن الفصـــاحة مع اشتمالها على كلمة غير فصيحة ، فان مجرد اشتمال القرآن على كلام غير فصيح بل على كلمة فصيحة مما يقود الى نسبة الجهل او العجز لله .

(٢) هى اسم شجرة من شجر الصـــحراء ، وتنطق الكلمة بصـــور كثيرة ، وقيل انها كلمة معاياة لا اصل لها فى اللغة .

ومنه ما هو دون ذلك كلفظ مستشزر فى قول امرىء القيس :

غدائره مستشزرات الى العــلا   تضل العقاص فى مثنى ومرسل(١)

والغــرابة :

أن تكون الكلمة وحشــية لا يظهر معناها ، فيحتاج فى معرفته

---

(١) من معلقة امرىء القيس امام الشعراء الجاهليين التى مطلعها :

قفا نبــك من ذكرى حبيب ومنزل   بســقط اللوى بين الدخول فحومل

وقبل هذا البيت :

وفرع يزين المتـن اســود فاحـم   اثيث كقنــو النخــلة المتعثــكل

الفرع : الشعر التام . المتن : ظهر المراة . اثيث : كثير . قنو النخلة : عنقودها . المتعثكل : المتراكم . الغدائر : الذوائب ، جمع غديرة . والضمير فيها عائد الى الفرع فى البيت الاول . مستشزرات اى مرتفعات ان كان بكسر الزاى على لفظ اســم الفاعل ، او مرفوعات ان روى بالفتح على لفظ اسم المفعول ، استشزره اى رفعه متعديا ، واستشزر اى ارتفع لازما . تضل : تغيب وتختفى . العقاص : جمع عقيصة وهى الخصــلة المجموعة من الشعر . المثنى : المفتول . المرسل : خلاف المثنى .

والمعنى : ان ذوائبه مشدودة على الراس وان شــعره مقسم الى عقاص ومثنى ومرسل والاول يغيب فى الاخيرين . والمراد وصف الشعر بالكثافة والكثرة والطول .. والشــاهد هنا قوله مستشزرات فهو لفظ متنافر ثقيل على اللســان ، ولكنه اقل ثقــلا من « الهعخع » .. وقال الخلخالى : ان سبب الثقل فى مستشزرات راجع الى توسط الشين التى هى من الحروف المهموسة (وهى عشرة يجمعها قولهم : سكت فحثــه شخص . وما عداها فحروف مجهورة) الرخوة (وهى ما عدا الحروف الشديدة التى يجمعها قولهم : اجد قط بكت ، وماعدا الحروف المتوسطة التى يجمعها قولهم : لن عمر) ، بين التاء التى هى من المهموسة الشديدة وبين الزاى التى من المجهورة الرخوة ، ولو قال : مستشرف لزال الثقل . ورد راى الخلخالى بأن الراء المهملة ايضا هى من الحروف المجهورة ... ومن الالفاظ المتنافرة : اطلخم بمعنى اشتد ، ومشعنجر : للسائل من المــاء أو الدمع .

الى أن ينقر (١) عنها فى كتب اللغة المبسوطة ، كما روى عن عيسى ابن عمر (٢) النحوى أنه سقط عن حماره ، فاجتمع عليه الناس ، فقال : ما لكم تكاكاتم على تكاكؤكم على ذى جنة افرنقعوا عنى ، أى اجتمعتم تنحوا .

أو يخرج لها وجه بعيد (٣) كما فى قول العجاج (٤) :

ومقلة وحاجبا مزججا　　وفاحما ومرسنا مسرجا

---

(١) ينقر : اى ينقش . والكلمة الوحشية هى التى لا تكون مأنوسة الاستعمال عند العرب الخلص من سكان البادية ، لا بالنسبة للمولدين .

(٢) عالم جليل من ثقيف ومن ائمة النحو واللغة ومن المتقعرين فى كلامهم توفى عام ١٥٠ هـ ، وتروى هذه القصة عن ابى علقمة النحوى حين هاجت به مرة ببعض طرق البصرة فوثب عليه قوم يعضون ابهامه ويؤذنون فى اذنه ، وكان ابو علقمة نحويا مغربا فى الفاظه .

وقوله : ذى جنة ، اى صاحب جنون .

(٣) سبب هذا التخريج هو عدم ظهور معنى الكلمة ، وسببه التفتيش والتنقير عن الكلمة فى المعاجم هو وحشيتها .

وما يحتاج الى تخريج يعده بعض البلاغين من التعقيد ، والبعض يجعله خطأ ، وكلا الوجهين غير صحيح ، لأن الوارد من هذا الباب انما ورد من عربى موثوق بعربيته فلا يعد خطأ ، كما ان هنا فرقا بين هذا الباب وبين التعقيد ، لأن التعقيد فيه خطأ ناشىء عن عدم ظهور الدلالة على المراد ، وهنا لا خطأ ولا خفاء فى الدلالة فلا تعقيد .

(٤) شاعر راجز مشهور أدرك الدولة الأموية . والبيت من ارجوزة العجاج « ما هاج أحزانا وشجوا قد شجا » . وفى اسرار البلاغة ص ٤٨ ذكره عبد القاهر مع الاستعارات القبيحة (فى قوله : ومرسنا) ... المقلة : العين . مزججا : مدققا مطولا . فاحما : أى شعرا أسود كالفحم . المرسن : الأنف ... والشاهد فى البيت فى قوله مسرجا فانه غير ظاهر المعنى ، اذ ان العلماء قد اختلفوا فى معناه . والحاصل أن مسرجا اسم مفعول مشتق فلا بد له من اصل يرجع اليه فقيل هو : =

فانه لم يعرف ما أراد بقوله « مسرجا » ، حتى اختلف فى تخريجه: فقيل هو من قولهم للسيوف : سريجية ، أى منسوبة الى قين (١) يقال له « سريج » ، يريد أنه فى الاستواء والدقة كالسيف السريجى ، وقيل : من السراج ، يريد أنه فى البريق كالسراج (٢) . وهذا يقرب من قولهم : سرج وجهه أى حسن ، وسرج الله وجهه أى بهجه وحسنه (٣).

= ١ — فعل (بالتشديد) للنسبة مثل كرمته اى نسبته للكرم . ولما لم يوجد التسريج الذى حق النسبة ان تكون اليه جعلنا مسرجا منسوبا للسراج او للسريجى نسبة تشبيهية اى هو منسوب لهما من حيث انه شبيه بهما . ووجه بعد هذا التخريج ان مجرد النسبة لا يدل على التشبيه .

٢ — وقيل انه من فعل بتشديد العين بمعنى صيرورة فاعله كاصله مثل قوس الرجل اى صار كالقوس ، فمسرج اى صائر كالسراج أو كالسريجى ... وهذا مردود بأن سرج على هذا لازم فلا يصاغ منه اسم مفعول .

٣ — وقيل انه من فعل بمعنى صيرورة فاعله اصله او صيرورته ذا اصله مثل عجزت المراة اى صارت عجوزا وورق الشجر صار ذا ورق ، فمسرج اى صار سراجا او سريجا اى مثل احدهما او صار ذاسراج وهذا مردود بما يرد به الوجه السابق .

٤ — وقيل هو اسم مفعول من سرج الله وجهه اى نوره وبهجه ، فمعنى مسرج : منور ، فليس فيه نسبة تشبيهية ، وهذا وان لم يكن غريبا من حيث عدم احتياجه لتخريج بعيد ، لكنه بعيد من حيث انه يحتاج الى تفتيش عليه فى كتب اللغة المبسوطة .

(١) القين : الحداد .

(٢) هذان التخريجان هما حاصل الوجه الاول الذى سبق ذكره والذى سبق بيان ما عليه من رد .

(٣) اى ان الوجه المذكور قريب من هذا الوجه الثانى فى ان كلا منهما غريب والكلمة عليهما غير ظاهرة المعنى ، وهذا التخريج الثانى هو الوجه الرابع الذى سبق ذكره ، ورد بانه يحتاج الى تفتيش على معناه فهو غريب . وقال الامام المرزوقى : ان مسرجا لفظ مستحدث من السراج اى =

ومخالفة القياس (١) :

كما في قول الشـــاعر (٢) :

الحمد لله العـــــلى الأجلل (أنت مليك الناس ربا فاقبل)

فان القياس الأجل بالادغام .

وقيل هي : (٣) خلوصه مما ذكر (٤) ، ومن الكراهة في السمع (٥)

= انه لفظ احدثه المولدون واخـذوه من السراج واستعملوه بمعنى حسن ولم يكن ذلك اللفظ واقعا في لغة العرب اصلا ، ويرد عليه ان العجاج قبل عصر التوليد والاستحداث .

ووجه القرب بين الوجهين المذكورين أن مسرجا عليهما مشتق من سرج ، لكن على الوجه الاول مشتق منه للنسبة التشبيهية ، وعلى الوجه الثانى مشتق منه اشتقاقا لغويا لا على افادة النسبة التشبيهية .

(١) هو ان تكون الكلمة على خلاف قانون مفردات الالفاظ الموضوعة ، اعني على خلاف ما ثبت عن الواضع ، فالموافقة للقياس أن تكون الكلمة على وفق ما ثبت عن الواضع سواء وافقت القانون التصريفى ام خالفته ولكن ثبتت عن الواضـــع كذلك ، والمخالفة ان تكون الكلمة على خلاف ما ثبت عن الواضع سواء خالفت القانون الصرفى ايضا ام لا ، فنحو آل وماء وابى يابى وعور يعور فصيح . لانه ثبت عن الواضع كذلك .

(٢) هو ابو النجم الراجز المشـــهور . وهـــذا الشاهد في الكتاب لسيبويه صحيفة ٣٠٢ من الجزء الثانى وروايته فيه هكذا : الحمد لله الوهوب المجزل .

ومثل البيت قول الشاعر :

مهـــلا اعاذل قـــد جربت من خلقى اني اجـــود لاقوام وان ضـــننوا

(٣) اي فصاحة المفرد .

(٤) اى من التنافر والغرابة ومخالفة القياس .

(٥) وهذا القول لابن الأثير في « المثل السائر » . قال : الالفاظ داخلة فيحيز الاصوات، فما استلذه السمع منها فهوالحسن، وما استكرهه=

بأن تمج الكلمة ويتبرأ من سماعها كمايتبرأ من سماع الأصوات المنكرة، فان اللفظ من قبيل الأصوات ، والأصوات منها ما تستلذ النفس سماعه ومنها ما تكره سماعه ، كلفظ الجرشى فى قول ابى الطيب :

(مبارك الاســـم أغر اللقب) كريم الجرشى شريف النسب (١)

أى كريم النفس ، وفيه (٢) نظر .

ثم علامة كون الكلمة فصيحة ، أن يكون استعمال العرب الموثوق بعربيتهم لهـا كثيرا ، أو أكثر من استعمالهم ما بمعناها (٣) .

= فهو القبيح (راجع ص ٥٨ المثل الســائر) ، وهو راى اشــار اليــه ابن سنان الخفاجى فى سر الفصاحة ص ٦١ .

(١) من قصيدة يمدح بها المتنبى سيف الدولة .. الاغر من الخيل : الأبيض الجبهة ، ثم استعير لكل واضح . الجرشى : النفس . والمعنى أن اسم ســيف الدولة على وهو اسم جميل ميمون ولقبه لقب واضـــح مشهور ، وهو كريم النفس عظيم الحسب ، شريف النسب ... والشاهد الجرشى فانها لفظ غير فصيح ، لكراهته فى السمع كما يقول هذا القائل ، او لغرابته على راى من عــداه من البلاغيين والبيت فى ص ٦٢ من سر الفصــاحة .

(٢) اى فى هذا القول وهو ان تكون كراهة الكلمة فى السمع سببا لعدم فصاحتها ... ووجه النظر كما قالوا هو ما يأتى :

١ — ان الكراهة فى الســمع انما هى من جهــة الغرابة المفسرة بالوحشية مثل تكاكاتم ، وافرنقعوا ، ونحو ذلك .

٢ — وأن الكراهة فى السمع وعدمها يرجعان الى عدم طيب النغم او الى طيبه لا الى نفس اللفظ . ويمكن رد هــذا الوجه الثانى بالقطع باستكراه الجرشى دون « النفس » مع قطع النظر عن النغم .

(٣) هذا منقول عن السكاكى (ص ١٧٦ من المفتاح) . وخلاصته : ان فصاحة الكلمة تعرف باحد امرين :

١ — ان تكون هذه الكلمة كثيرة الاستعمال عند العرب الموثوق بعربيتهم : اذا لم يكن لها مرادف . =

واما فصاحة الكلام :

فهى خلوصه من ضعف التأليف وتنافر الكلمات والتعقيد ، مع فصاحتها .

فالضعف (١) :

كما فى قولنـــا ضرب غلامه زيدا ، فان رجوع الضمير الى المفعول المتأخر لفظا ممتنع عند الجمهور ، لئلا يلزم رجوعه الى ما هو متأخر لفظا ورتبة .

= ٢ — او ان تكون هـــذه الكلمة اكثر اســـتعمالا عندهم من الكلمات الاخرى المرادفة لها المشتركة معها فى المعنى وهذا فيما اذا كان للكلمة مرادف .

فعلامة فصاحة الكلمة التى ليس لها مرادف كثرة استعمالها ، والتى لها مرادف ان تكون اكثر استعمالا من مرادفها .

(١) هو ان يكون تاليف الكلام على خلاف القانون النحوى المشهور بين الجمهور كالاضمار قبل الذكر لفظا ومعنى وحكما ، نحو ضرب غلامه زيدا ، فلو تقدم المرجع على الضمير لفظا (بأن يتقدم عليه لفظا ورتبة مثل ضرب زيد غلامه او لفظا فقط مثل ضرب زيدا غلامه) ، او تقـــدم معنى بأن يتقدم المرجع على الضمير لفظا لكن هناك ما يدل على تقدمه معنى ، كالفعل المتقدم الدال على المرجع تضمنا نحو اعدلوا هو اقرب للتقوى ، وكسياق الكلام المســـتلزم له اســـتلزاما قريبا نحو ولابويه اى المورث او بعيدا نحو توارت بالحجاب اى الشمس ، وكون المرجع فاعلا المقتضى لتقدمه على المفعول نحو خاف ربه عمر ، او مبتدا المقتضى لتقدمه على الخبر مثل فى داره زيد ، او مفعولا اول فى باب اعطى مثل اعط درهمه زيدا ، او تقدم حكما بان يتاخر المرجع عن الضمير لفظا وليس هناك ما يقتضى ذكره قبله الا حكم الواضع بان المرجع يجب تقدمه ، لكن خولف حكم الواضع لاغراض تاتى فى بحث وضع المضمر موضع المظهر . فالمرجع المتاخر لغرض متقدم حكما مثل : ربه رجلا ، ونعم رجلا زيد ، وقل هو الله احد . وفى باب التنازع مثل ضربنى وضربته محمد وباب البدل والمبتدا المفسر بالخبر . نعم لو تقدم المرجع فى كل ذلك جاز ولا يكون هناك ضعف ولا يضر ذلك بفصاحة الكلام .. وقد اشار السكاكى الى ضعف التاليف فى المفتاح ص ٩٤

وقيل يجوز (١) ، كقول الشاعر (٢) :

جزى ربه عنــه عــدى بن حاتم
جزاء الكلاب العاويات ، وقد فعل (٣)

وأجيب عنه بأن الضمير لمصدر جزى ، أى (جزى) رب الجزاء (٤) كما فى قوله تعالى : اعدلوا هو أقرب للتقوى ، أى العدل .

---

(١) أى يجوز رجوع الضمير الى المفعول المتاخر لفظا .

(٢) هو النابغة الذبيانى الشـــاعر الجـــاهلى المشـــهور ، كما فى الخصائص لابن جنى .

(٣) يدعو الشاعر على عدى بأن يجزيه شرا كجزاء الكلاب العاويات التى تضرب وترمى بالحجارة ، ثم يقول الشاعر . بل قد حصل هذا الجزاء فعلا واصبح حقيقة لا دعاء . والشاهد فى البيت قوله : « جزى ربه عنى عدى بن حاتم » ، فقد رجع الضمير الى المفعول المتاخر فى اللفظ كما هو متاخر فى الرتبة .

ومثل هذا البيت قول سليط بن سعد :

جزى بنــوه ابا الغيــلان عن كبر وحســـن فعل كما يجزى ســـنمار

ومثله :

الا ليت شـــعرى هل يلومن قومه زهيرا على ما جرى من كل جانبه

وفى معنى البيت قول النابغة :

جزى الله عبسا عبس آل بغيض جزاء الكلاب العاويات وقد فعــل

ومن ضعف التاليف :

فلو أن مجدا اخلد الدهر واحـــدا من الناس ابقى مجده الدهر مطعما

(٤) فى هذا تكلف وحمل للاسلوب على مالا يفيده وان كان اخف من حمل البيت على ضعف التاليف .

والتنـــافر [١] :

منه ما تكون الكلمات بسببه متناهية فى الثقل على لسان وعسر النطق بها متتابعة ، كما فى البيت الذى أنشده الجاحظ [٢] :

وقبر حرب بمكان قفـــر ‏ ‏ ‏ ‏ وليس قرب قبر حرب قبر [٣]

ومنه ما هو دون ذلك كما فى قول أبى تمام :

كريم متى أمدحه أمدحه والورى معى
(واذا ما لمته لمتـــه وحـــدى [٤])

---

(١) هو ان تكون الكلمات ثقيلة على اللسان وان كان كل منها فصيحة .

(٢) البيت فى دلائل الاعجاز ص ٤٦ مع تعليق لعبد القاهر عليه .. وهو لا يعرف قائله .

(٣) حرب : اسم رجل . القفر : الخالى من المـــاء والكلا .. ويقول القزوينى الرحالة فى « عجائب المخلوقات : ان هاتفا من الجن صاح بحرب ابن امية فمات فرثاه ذلك الجنى بهذا البيت .. قوله « قفر » بالرفع نعت مقطوع . والبيت خبر مراد منه التأسف والتحزن .

(٤) الواو فى « والورى » للحال ، وهو مبتدا ، وخبره « معى » .. يقول ابو تمام فى ممدوحه : هو كريم فى خلقه ومعروفه ، اذا ما مدحته كان الورى كلهم معى يمدحون ويشيدون أو يسمعون ويؤيدون ، واذا ما اردت لومه على تأخير معروف او على شبه ذلك وقفت وحدى لا يشاركنى فى ذلك احد ولا يؤيدنى فيه انسان .. والبيت فى ص ٤٦ من دلائل الاعجاز ، وذكر الصاحب اسماعيل بن عباد الكاتب انه انشد القصيدة التى منها هذا البيت بحضرة الاستاذ ابن العميد الوزير ، فلما بلغ هذا البيت قال له الاستاذ : هل تعرف فيه شيئا من الهجنة ؟ قال : نعم مقابلة المدح باللوم وانما يقابل بالذم او الهجاء ، فقال الأستاذ : غير هذا اريد ، فقال : لا ادرى غير ذلك ، فقال الاستاذ : هذا التكرير فى امدحه امدحه مع الجمع بين الحاء والهاء وهما من حروف الحلق خارج عن حد الاعتدال نافر كل النفار ، فأشاد الصـــاحب بذوقه ونقده .

فان فى قوله « أمدحه (أمدحه) » ثقلا لمـا بين الحاء والهاء من التنـافر (١) .

والتعقيـد (٢) :

أن لا يكون الكلام ظاهر الدلالة على المراد به وله (٣) سـببان : أحدهما مايرجع الىاللفظ وهوأن يختل نظم(٤) الكلام . ولايدرى

---

(١) وهناك فرق آخر بين البيت والبيت الذى قبله ، وهو أن منشأ الثقل فى الأول نفس اجتماع الكلمات وفى البيت الثانى اجتماع حروف منها . ومجموع الحروف التى فى الكلمتين والتى حصل الثقل باجتماعها أربعة وهى: الحاءان والهاءان ، فما ذكر من مجموع الحروف التى حصل الثقل باجتماعها حاصل مع تكرير أمدحه ، ولو قال وفى الثانى تكرير حروف منها لكان أوضح واخصر . اما ثقل مجرد الجمع بين الحاء والهاء فلا يخل بالفصاحة لوقوعه فى التنزيل كما فى قوله « فسبحه » .

(٢) اى كون الكلام معقدا فهو مصـدر المبنى للمفعول لا للفاعل ، والمراد بانه مصدر المبنى للمفعول الحاصل بالمصدر اى الهيئة المترتبة عليه. وتجد الكلام فى التعقيد فى (اسرار البلاغة ص ١١٨ ، وفى دلائل الاعجاز ص ٦٥ ، وفى المفتاح ص ١٧٦) .

(٣) اى عدم ظهور المعنى المراد منه للمتكلم ، اما الغرابة فهى كون اللفظ غير ظاهر الدلالة على المعنى الموضوع له ، واما اللغز والمعمى : فقيل هما غير فصيحين مطلقا ولا يعدان من البديع لعدم ظهور الدلالة ، وقيـل ان الدلالة فيهما ان كانت ظاهرة للفطن فهما فصيحان ويعدان من البـديع والا فلا . واللغز والمعمى بمعنى وهو قول يدل ظاهره على خلاف المراد .

(٤) النظم هو تاليف الكلمات مترتبة المعانى متناسـقة الدلالات على حسب ما يقتضيه العقل لا تواليها فى النطاق وضم بعضها الى بعض كيفما اتفق ، بخلاف نظم الحروف فانه تواليهـا فى النطق من غير اعتبـار معنى يقتضيه (راجع دلائل الاعجاز ص ٤٠ و ٤٥) .

السامع كيف يتوصل منه الى معناه (١) ، كقول الفرزدق (٢) :

وما مثله فى الناس الا مملكا   أبو أمه حى أبوه يقـــاربه

الا مملك أبو أمه أبوه ، فانه مدح ابراهيم بن هشام بن اسماعيل المخزومى(٣) خال هشام بن عبد الملك بن مروان ، فقال وما مثله — يعنى ابراهيم الممدوح — فى الناس ، حى يقاربه — أى أحد يشبهه فى الفضائل — الا مملكا يعنى هشاما ، أبو أمه — أى أبو أم هشـــام — أبوه — أى أبو الممدوح — فالضمير فى أمه للمملك ، وفى أبوه للممدوح ، ففصـــل بين أبو أمه — وهو مبتـــدأ — وأبوه — وهو خبره — بحى — وهـــو أجنبى — ، وكذا فصـــل بين حى ويقاربه وهو نعت حى — بأبوه — وهو أجنبى ، وقدم المستثنى على المستثنى منه (٤) . فهو كما تراه فى غاية التعقيد .

---

(١) بأن لا يكون ترتيب الألفاظ على وفق ترتيب المعانى ، بسبب تقديم او تأخير او حذف او اضمار او غير ذلك ، مما يوجب صعوبة فهم المراد ، وان كان ذلك فى الكلام جاريا على قواعد النحو .. فان سبب التعقيد يجوز ان يكون اجتماع امور كل منها شائع الاستعمال فى كلام العرب ، ويجوز أن يكون التعقيد حاصلا ببعض منها لكنه مع اعتبار الجميع يكون اشد واقوى ، فذكر ضعف التأليف لا يغنى عن ذكر التعقيد اللفظى كما توهمه البعض .

(٢) هو الشاعر الاموى المشهور قرين جرير والأخطل توفى عام ١١٠ هـ. والبيت فى ١٥ و ٥٦ اسرار البلاغة ، ٧٦ مفتـــاح ، ٦٥ دلائل الاعجاز ، ١٥٤ و ١٩٧ الصناعتين ، قال ابن عبد ربه فى العقد : معناه ما مثل هـــذا الممدوح فى الناس الا الخليفة الذى هو خاله ، فقال ابو امه حى ابوه يقاربه ، فبعد المعنى القريب ووعر الطريق السهل ، وليس المعنى بتوعر اللفظ وقبح البنية حتى ما يكاد يتفهم (٤/١٣ العقد) .

(٣) من الأمراء الأشراف السادة الفرسان توفى عام ١٢٥ هـ وهشام أحد الخلفاء الأمويين المشهورين .

(٤) ما نافية ، « مثله » اسمها ، « فى الناس » خبرها . مملكا : مستثنى مقدم منصوب على الاستثناء . ابو امه : مبتدا ومضاف اليه ، وحى بدل من مثله ، ففيه ايضا فصل بين البدل والمبدل منه ، ابوه خبر المبتدا ، يقاربه صفة =

فالكلام الخالى من التعقيد اللفظى ما سلم نظمه من الخلل ، فلم يكن فيه ما يخالف الأصل من تقديم أو تأخير أو اضمار أو غير ذلك ، الا وقد قامت عليه قرينة ظاهرة ، لفظية أو معنوية ، كما سيأتى تفصيل ذلك كله وأمثلته اللائقة به (١) .

والثانى ما يرجع الى المعنى ، وهو ألا يكون انتقال الذهن من المعنى الأول الى المعنى الثانى — الذى هو لازمه والمراد به — ظاهرا(٢) كقول العباس بن الأحنف :

= لحى . ويصح أن يكون « مملكا » مستثنى من الضمير المستتر فى الجار والمجرور الواقع خبر ما ، وابو امه مبتدا خبره حى ، وابوه خبر بعد خبر ، والجملة صفة لمملكا ، وكذلك جملة يقاربه وعلى هذا الوجه فلا تعقيد فى البيت ، ولكن فى حمله عليه تكلف شديد .

(١) قال الخلخالى : ذكر ضعف التاليف يغنى عن ذكر التعقيد اللفظى . واجيب بانه يجوز ان يحصل التعقيد باجتماع عدة امور موجبة لصعوبة فهم المراد وان كان كل واحد منها جاريا على القانون النحوى مثل الا عمرا الناس ضارب زيد . وينفرد ضعف التاليف فى مثل جاءنى احمد ، ويجتمع الضعف والتعقيد فى بيت الفرزدق ، فبينهما عموم وخصوص من وجه ... هذا ومن التعقيد اللفظى قول ابى تمام :

ثانيه فى كبد السماء ، ولم يكن كاثنين ثان اذ هما فى الغار

وقول المتنبى :

انى يكون ابا البرايا آدم وابوك والثقلان انت محمد

وتركيب البيت الصحيح : انى يكون آدم ابا البرايا وابوك محمد وانت الثقلان ، وكذلك قول الفرزدق :

الى ملك ما امه من (محارب) ابوه ولا كانت (كليب) تصاهره

اى الى ملك ابوه ما امه من محارب ولا كانت تصاهره كليب .

(٢) اى ان لا يكون الكلام ظاهر الدلالة على المراد لخلل واقع فى انتقال الذهن — اى بسبب بطء نفس السامع فى انتقالها — من المعنى الأول الذى هو المعنى الأصلى الحقيقى للكلام الى المعنى الثانى الملابس له وهو المعنى الكنائى او المجازى . والحاصل ان من شروط فصاحة الكلام ان يسلم من التعقيد المعنوى بان لا يكون ما فيه من كناية او مجاز بعيدا عن =

سأطلب بعد الدار عنكم لتقربوا
وتسكب عيناى الدموع لتجمدا (١)

كنى بسكب الدموع عما يوجبه الفراق من الحزن ، وأصاب، لأن من شأن البكاء أن يكون كناية عنه ، كقولهم : أبكانى وأضحكنى أى ساءنى وسرنى ، وكما قال الحماسى (٢) :

= الفهم والوضوح : فان من شروط فصاحة الكناية والمجاز قرب فهم المعنى الثانى من اصله الحقيقى ، والا كانا غير فصيحين بحيث يفتقر فى فهمه الى وسائط مع خفاء القرينة ، فالمدار فى صعوبة الفهم على خفاء القرينة كثرت الوسائط او لا ، وخفاء القرائن أو عدم خفائها بحسب جريان الكلام على اسلوب البلغاء او عدم جريانه ، وسبب الخفاء ايراد اللوازم البعيدة المفتقرة الى الوسائط الكثيرة مع خُفاء القرائن الدالة على المقصود بسبب عدم جريان الكلام على اسلوب البلغاء ، فلو كانت القرينة ظاهرة فلا خلل تعددت الوسائط ام لا . هذا وتجد الكلام على التعقيد المعنوى فى دلائل الاعجاز صحيفة ٢٠٧ .

(١) العباس شاعر عباسى ، غزلٌ مجيد . والبيت فى ٢٠٨ دلائل الاعجاز ، وتعليق الخطيب على البيت مأخوذ من عبد القاهر فى دلائل الاعجاز . وتسكب فى البيت بالرفع وهو الصحيح ، ونصبه على العطف على « بعد » او على « لتقربوا » وهم . ومعنى البيت : انى اليوم اطيب نفسا بالفراق والبعد ، واوطنها على مقاساة الاحزان والأشواق ، واتجرع غصصها واتحمل لاجلها حزنا يفيض الدموع من عينى ، لاتسبب بذلك الى وصل يدوم فان الصبر مفتاح الفرج ولكل بداية نهاية ومع كل عسر يسرا ، كما يشير اليه عبد القاهر فى دلائل الاعجاز ... وعلى هذا فالسين فى « ساطلب » لمجرد التأكيد على ما ذكره صاحب الكشاف فى قوله تعالى « سنكتب ما قالوا » .

(٢) هو حطان بن المعلى ، شاعر اسلامى مشهور . والبيت من السريع ، وهو فى الحماسة ، وتجده ايضا فى دلائل الاعجاز (ص ٢٠٨) ومثل البيت قول مسلم :

ابكانى الدهر ممـا كان اضحكنى والدهر يخلط احلاء بامرار

وقول الخنساء :

الا يا صخر ان ابكيت عينى لقد اضحكتنى زمنا طويلا

أبكانى الدهــر ويا ربمــا   أضحكنى الدهر بما يرضى

ثم طرد ذلك فى نقيضه ، فأراد أن يكنى عما يوجبه دوام التلاقى من السرور بالجمود ، لظنه أن الجمود خلو العين من البكاء مطلقا من غير اعتبار شيء آخر ، وأخطأ (١) :

لأن الجمود خــلو العين من البكاء فى حال ارادة البكاء منها ، فلا يكون كنــاية عن المسرة ، وانما يكون كنــاية عن البخل كما قال الشاعر (٢) :

ألا ان عينا لم تجد يوم (واسط)   عليك بجارى دمعها لجمود

ولو كان الجمود يصلح أن يراد به عدم البكاء فى حال المسرة لجاز أن يدعى به للرجل ، فيقال : لا زالت عينك جامدة ، كما يقال : لا أبكى الله عينك . وذلك مما لا يشك فى بطلانه .

وعلى ذلك قول أهل اللغة : سنة « جماد » لا مطر فيها ، وناقة جماد : لا لبن لها ، فكما لا تجعل السنة والناقة جمادا الا على معنى أن السنة بخيلة بالقطر ، والناقة لا تسخو بالدر ، لا تجعل العين جمودا

---

(١) لعدم فهم ذلك اللازم بسرعة من جمود العين فنبه مخالفة لموارد استعمال البلغاء لأن تعارف البلغاء على خلافه ، فهو مخطىء فى نظر البلغاء وان صح أن يكون لكلامه وجه من التأويل بحمل كلامه على ما يصححه بأن نقول : استعمل جمود العين الذى هو يبسها فى حال خلوها من الدموع مطلقا مجازا مرسلا من باب استعمال المقيد فى المطلق ، ثم كنى به عن دوام السرور لكونه لازما لذلك عادة ، وهذا وان كان معنى صحيحا الا أن فيه بعدا وتعقيدا .

(٢) هو أبو عطاء يرثى ابن هبيرة وقد قتل فى معركة يوم « واسط »

والبيت فى ص ٢٠٨ من دلائل الاعجاز وهو من أبيات عزاها المرتضى لمعن ابن زائدة .

الا وهناك ما يقتضى ارادة البكاء منها ، وما يجعلها اذا بكت محسنة موصوفة بأنها قد جادت ، واذا لم تبك مسيئة موصوفة بأنها قد ضنت .

فالكلام الخالى عن التعقيد المعنوى ما كان الانتقال من معناه الأول الى معناه الثانى — الذى هو المراد به — ظاهرا ، حتى يخيل الى السامع أنه فهمه من حاق اللفظ ، كما سيأتى من الأمثلة المختارة للاستعارة والكناية .

وقيل فصاحة الكلام هى خلوصه مما ذكر (١) ومن كثرة التكرار (٢) وتتابع الاضافات . كما فى قول أبى الطيب (المتنبى) :

(وتسعدنى فى غمرة بعد غمرة)
سبوح لها منها عليها شواهد (٣)

وكما فى قول ابن بابك (٤) :

---

(١) اى من الضعف والتنافر والتعقيد .

(٢) اى للفظ الواحد اسما كان او فعلا او حرفا .

(٣) سبوح : اى فرس حسن الجرى لا تتعب راكبها كانها تجرى فى الماء « لها » صفة لسبوح ، و « منها » حال من شواهد ، و « عليها » متعلق بشواهد ، و « شواهد » فاعل الظرف — اعنى « لها » — ، يعنى ان لها من نفسها علامات دالة على نجابتها واصالتها . والغمرة : هى الشدة . قيل التكرار ذكر الشىء مرة بعد اخرى ولا يخفى انه لا تحصل كثرته بذكره ثالثا بل لا تحصل الكثرة الا بذكره ست مرات فالتكرار ذكر الشىء مرتين وتعدده بالتربيع وكثرته بالتسديس ، واجيب بان المراد بالكثرة ما يقابل الوحدة ولا يخفى حصولها بذكره ثالثا . والشاهد فى البيت كثرة التكرار فيه .

(٤) من شعراء العصر العباسى . وله ترجمة فى اليتيمة . مدح عضد الدولة والصاحب ، وتوفى عام ٤١٠ هـ .

حمامة جرعا حومة الجنـدل اسجعى
(فانت بمرأى من سعاد ومسمع) (١)

وفيـه نظر (٢) ، لأن ذلك (٣) أن أفضى باللفظ الى التقـل على اللسان فقد حصل الاحتراز عنه بما تقدم (٤) ، والا فلا يخل بالفصاحة ، وقد قال النبى صلى الله عليه وسلم : « الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم . يوسف بن يعقوب بن اسحاق بن ابراهيم » (٥) .

---

(١) الشاهد فى البيت كثرة الاضافات المتتابعة ، ففيه اضافة حمامة الى جرعى وجرعى الى حومة ، وحومة الى الجندل .

والجرعى : تانيث الاجرع قصرها للضرورة ، وهى ارض ذات رمل لا تنبت شيئا . والحومة : معظم الشيء . الجندل : ارض ذات حجارة . السجع : هدير الحمام ونحوه . والمعنى ايتها الحمامة التى تعيش او تحلق فى هذا المكان غنى واصدحى فانت بحيث تراك سـعاد المحبوبة وتسمع صوتك ، يقال : فلان بمراى منى ومسمع ، اى بحيث اراه واسمع قوله كما فى الصـحاح ، ومن الخطا ان يقال فانت بموضع ترين منه سـعاد وتسمعين كلامها .

ومثل البيت فى تتابع الاضافات قول ابى العتاهية :

سـبحان ذى الملكوت اية ليـلة مخضت بوجه صـباح يوم الموقف

وقول مسلم :

ثاروا الى صفق الشمول فاشعلوا نـيران حرب كؤوسـها اشـعالا

(٢) اى فى القول السابق الذى يجعـل خلو الكلام من كثرة التكرار وتتابع الاضافات شرطا لفصاحته .

(٣) اى كثرة التكرار وتتابع الاضافات .

(٤) اى بما سبق ذكره من التنافر .

(٥) يسمى هذا اللون فى البديع « الاطراد » . ووردت ايضـا مثل للتكرير وتتابع الاضافات غير معيبة ، قال تعالى : ونفس وما سـواها فالهمها فجورها وتقواها . وقال : مثل داب قوم نوح . وقال : ذكر رحمة ربك عبده زكريا .

قال الشيخ عبد القاهر [١] : قال الصاحب [٢] : اياك والاضافات المتداخلة ، فانها لا تحسن ، وذكر أنها تستعمل فى الهجاء ، كقول القائل:

يا على بن حمزةبن عماره   أنت والله ثلجة فى خيـــاره

ثم قال الشيخ [٣] : ولا شك فى ثقل ذلك فى الأكثر ، لكنه اذا سلم من الاستكراه ملح ولطف . ومما حسن فيه قول ابن المعتز [٤] أيضا :

وظلت تدير الراح أيدى جآذر
عتاق دنـــــانير الوجوه ، ملاح [٥]

ومما جاء فيه حسنا جميلا قول الخالدى [٦] يصف غلاما له :

ويعرف الشـــعر مثل معرفتى   وهـــو على أن يزيد مجتهـــد
وصـــيرف القريض وزان دينـــار المعـــانى الدقاق ، منتقـــد [٧]

---

(١) راجع هذا القول فى ص ٨٢ من دلائل الاعجاز .

(٢) هو الصاحب بن عباد الوزير م ٣٨٥ هـ ، والبيت الآتى يتهكم فيه بعلى بن حمزة البصرى اللغوى المتوفى عام ٣٩٠ هـ

(٣) اى عبد القاهر ايضا .

(٤) هو الخليفة العباسى الشاعر الاديب العالم الناقد ، توفى عام ٢٩٦ هـ .

(٥) الراح : الخمر . جآذر : جمع جؤذر وهو ولد البقرة الوحشية . عتاق جمع عتيق أى كريم .

(٦) سعيد بن هشام ، من شعراء اليتيمة ، رقيق الشـــعر مطبوع توفى عام ٣٧٠ هـ .

(٧) الصيرف : المحتال فى الامور . المنتقد : الخبير بالدراهم الجيدة والزيوف ثم اطلق فصار بمعنى الخبير بالشىء مطلقا . والمعنى هو مثلى فى معرفة الشعر والبصر به ونظمه بل هو لديه القدرة على ان يكون ابرع مما هو فيه ، وهو دقيق البصر بالشعر ناقد له يزن المعانى الدقيقة بموازين النقد التى لا تسرف فى الحكم والتقدير .
=

* * * * * * * * * * * * * *

— والشاهد فى البيت كثرة الاضافات مع حسنها ، وهو الشاهد فى البيت السابق —

شواهد للاخلال بالفصاحة :

قال تابط شرا :

يظل بموماة ويمسى بغيرها   جحيشا ويعرورى ظهور المسالك

وقال حسان يرثى :

ولو ان مجدا اخلد الدهر واحدا   من الناس ابقى مجده الدهر مطعما

وقال المتنبى :

كيف ترثى التى ترى كلّ جفن   راءها غير جفنها غير راق

وقال الفرزدق :

واذا الرجال راوا يزيد رايتهم   خضع الرقاب نواكس الأبصار

وقال ابو تمام :

قد قلت لما اطلخم الأمر وانبعث   عشواء تالية غبسا دهاريسا

لى حرمة بك اضحى حق نازلها   وقفا عليك ، فدتك النفس،محبوسا

وللمتنبى :

جفخت وهم لا يجفخون بها بهم   شيم على الحسب الاغر دلائل

وقال :

اقل ، انل، اقطع، احمل سل، اعد   زد،هش،بش، تفضل،سر،ادن،صل

وقال الشاعر :

فاصبحت بعد خط بهجتها   كان قفرا رسومها قلما

وللمتنبى :

ومن جاهل بى وهو يجهل جهله   ويجهل علمى انه بى جاهل

فقلقلت بالهم الذى قلقل الحشا   قلاقل عيس كلهن قلاقل —

وأما فصاحة المتكلم :

فهى ملكة (١) يقتدر بها على التعبير عن المقصود بلفظ فصيح . فالملكة قسم من مقولة الكيف التى هى هيئة قارة لا تقتضى قسمة ولا نسبة ، وهو مختص بذوات الأنفس راسخ فى موضوعه .

وقيل : ملكة . ولم يقل صفة ، ليشعر بأن الفصاحة من الهيئات الراسخة ، حتى لا يكون المعبر عن مقصوده بلفظ فصيح فصيحا الا اذا كانت الصفة التى اقتدر بها على التعبير عن المقصود بلفظ فصيح راسخة فيه .

وقيل يقتدر بها ، ولم يقل يعبر بها ، ليشمل حالتى النطق وعدمه: وقيل : بلفظ فصيح ، ليعم المفرد والمركب (٢) .

= وقال الحريرى :

فازور من كان له زائـر   وعاف عاف العـرف عرفانه

ولبشر بن عوانة او للبديع فى وصف الاسد :

فخر مضرجـا بـدم كانى   هدمت به بنـاء مشمخرا

المتنبى :

فلا يبرم الأمر الذى هـو حالل   ولا يحـلل الأمر الذى هـو مبرم

المتنبى :

انى يكون أبا البـرايا آدم   وابوك والثقـلان أنت محمـد

امرؤ القيس فى وصف الفرس :

وأركب فى الروع خيفـانة   كسـا وجهها سـعف منتشر

ابو تمـام :

جذبت نداه غدوة السـبت جذبة   فخر صريعا بين ايدى القصـائد

(١) الملكة : كيفية راسخة فى النفس .

(٢) اما المركب فظاهر ، واما المفرد فكما تقول عند التعداد : دار ، غلام ، جارية ، ثوب ، الى غير ذلك .

البـــــلاغة

وأما بلاغة الكلام :

فهى مطابقته لمقتضى الحال (١) مع فصاحته .

---

(١) أى لجميع ما يقتضيه الحال على قدر الطاقة ، فالمراد المطـــابقة الكاملة وقوله لمقتضى الحال اى لمناسب الحال لا موجبه ، والمراد بمناسب الحال الخصوصيات التى يبحث عنها فى علم المعانى دون كيفيات دلالة اللفظ التى يتكفل بها علم البيان اذ قد تتحقق البلاغة فى الكلام بدون رعايتها بان يؤدى الكلام المطابق بدلالات وضعية . نعم اذا ادى المعنى بدلالات عقلية مختلفة فى الوضوح والخفاء فلا بد فى بلاغة الكلام من رعاية كيفية الدلالة أيضـــا .

والحال هو الداعى للمتكلم الى ايراد الكلام على وجه مخصوص ، أى الى ان يعتبر مع الكلام الذى يؤدى به اصل المعنى خصوصية ما ، وهى مقتضى الحال . مثـــلا انكار المخاطب للحكم حال يقتضى تاكيـــده ، والتاكيد مقتضى الحال . ومعنى مطابقته له ان الحال ان اقتضى التاكيد كان الكلام مؤكدا وان اقتضى الاطلاق كان الكلام عاريا عن التاكيد ، وهكذا ان اقتضى حذف المسند اليه حذفه وان اقتضى ذكره ذكره ، الى غير ذلك من التفاصيل المشتمل عليها علم المعانى . فالانكار حال ، والتـــاكيد مقتضى ، وقولك « ان زيدا فى الدار » مؤكدا بان كلام مطابق لمقتضى الحال ، يعنى أنه مشتمل عليه ، اذ هذا المثال مشتمل على التاكيد . وليس المراد بكونه مطابقا له أنه جزئى من جزئياته اذ لا يصـــدق عليه اى لا يحمل عليـــه ، ضرورة أن مقتضى الحال هو التاكيد وهو لا يحمل على قولك ان زيدا فى الدار اذ لا يقـــال « ان زيدا فى الدار » تاكيد ، فالمراد بالمطابقة هنا الاشـــتمال لا مصطلح المناطقة الذى هو الصدق .

والتحقيق أن مقتضى الحال هو الكلام الكلى المشتمل على الخصوصية، ومطابقة الكلام لذلك المقتضى كون الكلام الجزئى الصادر من المتكلم الملقى للمخاطب المشتمل على الخصوصية من افراد ذلك الكلام الكلى الذى يقتضيه الحال ، فان ذلك المقتضى صـــادق عليه ، فقولنـــا « ان زيدا فى الدار » مؤكدا جزئى من جزئيات ذلك الكلام الكلى الذى يقتضيه الحال ، الذى هو =

ومقتضى الحال مختلف . فان مقامات الكلام متفاوتة (١) فمقام التنكير يباين مقام التعريف (٢) ومقام الاطلاق يباين مقام التقييد (٣) ومقام التقديم يباين مقام التأخير (٤) ، ومقام الذكر يباين مقام الحذف، ومقام القصر يباين مقام خلافه ، ومقام الفصل يباين مقام الوصل ،

= الانكار المقتضى لكلام مؤكد بمطلق تأكيد لا بتأكيد مخصوص ، فقولنا « ان زيدا فى الدار » مطابق له بمعنى انه صادق عليه — اى بمعنى ان الكلام الكلى المؤكد الذى هو مقتضى الحال صادق ومحمول على هذا الجزئى لكونه جزئيا من جزئياته . فالبلاغة على هذا التحقيق مطابقة هذا الجزئى لذلك الكلى بمعنى كونه جزئيا من جزئياته بحيث يصح حمل مقتضى الحال عليه ، فالكلام الجزئى مطابق (بكسر الباء) والكلام الكلى مطابق (بفتحها) . هذا هو تحقيق السعد فى مختصره ، وان كان قد حقق فى كبيره ان التحقيق هو مذهب الجمهور الاول : من ان المقتضى هى الخصوصية والمطابقة هى الاشتمال . هذا والحال على المذهبين واحد ، وهو الامر الداعى للمتكلم الى ان يعتبر مع الكلام الذى يؤدى به اصل المراد خصوصية ما ، سواء كان ذلك الامر داعيا له فى نفس الامر او غير داع فى نفس الامر بل بتنزيل ، فالحال هو الامر الداعى مطلقا . اما ظاهر الحال فهو الامر الداعى فى نفس الامر لاعتبار المتكلم خصوصية ما ، فهو اخص من الحال .

(١) لان الاعتبار اللائق بهذا المقام يغاير الاعتبار اللائق بذلك ، وهذا عين تفاوت مقتضيات الاحوال ، لان التغاير بين الحال والمقام انما هو بحسب الاعتبار ، وهو انه يتوهم فى الحال كونه زمانا لورود الكلام فيه ، وفى المقام كونه محلا له .

(٢) فالمقام الذى يناسبه تنكير المسند اليه او المسند يباين المقام الذى يناسبه التعريف .

(٣) اى مقام اطلاق الحكم او التطبيق او المسند اليه او المسند او متعلقه يباين مقام تقييده بمؤكد او اداة او تابع او شرط او مفعول او ما يشبه ذلك .

(٤) اى مقام تقديم المسند اليه او متعلقاته يباين مقام تأخيره .

ومقام الايجاز يباين مقام الاطناب والمساواة ، وكذا خطاب الذكى يباين خطاب الغبى (١) .

وكذا لكل كلمة مع صاحبتها مقام (٢) .. الى غير ذلك كما سيأتى تفصيل الجميع :

وارتفاع (٣) شــأن الكلام فى الحسن والقبول بمطابقته للاعتبار المناسب (٤) ، وانحطاطه بعدم مطابقته له .

فمقتضى الحال هو الاعتبار المناسب (٥) .

---

(١) فان مقــام الاول يباين مقام الثانى ، لان الذكى يناســبه من الاعتبارات اللطيفة والمعانى الدقيقة الخفية ما لا يناسب الغبى .

(٢) راجع ص ١٣ من المفتــاح . وقوله ولكل كلمة اى كالفعــل ، مع صاحبتها اى كاداة الشرط مثل ان الشرطية، اذ لهــا معها مقام ليس لذلك الكلمة معها يشارك تلك الصاحبة فى اصل المعنى كاذا الشرطية ، فالفعل الذى قصد اقترانه باداة الشرط له مع ان مقام ليس له مع اذا وكذلك من ادوات الشرط مع المــاضى مقام ليس له مع المضارع ، على ان المراد بالكلمة اداة الشرط وبصاحبتها المــاضى وبمشارك الصاحبة الفعل المضارع . وهكذا ما يشبه ذلك فللفعل مع هل الاستفهامية مقام ليس له مع الهمزة ، والمسند اليه مع المسند الفعلى له مقام معه ليس له مع المسند الاسمى الخ .

(٣) راجع ص ٧٣ من المفتاح تجد ما هنا ماخوذا منه بالنص والمقصود من هذا بيان تعــدد مراتب البلاغة ، والحسن المراد منه الحسن الذاتى الداخــل فى البلاغة لا العرضى الخارج لحصــوله بالمحسنات البديعية ، والمراد بالقبول عند الســامع . والمراد بالكلام الكلام الفصيح .

(٤) اى باشتماله على الامر المعتبر المناسب لحال المخاطب ، فكلما كان الاشتمال اتم كان الكلام ارفع واعلى . فالمراد بالاعتبار المناسب الامر الذى اعتبره المتكلم مناسبا بحسب السليقة للعرب الخاص او بحسب تتبع خواص تراكيب البلغاء لغيرهم .

(٥) يعنى اذا علم ان ليس ارتفاع شأن الكلام الفصيح فى الحسن الذاتى الا بمطابقته للاعتبار المناسب على ما يفيده اضافة المصدر ـــلانه=

وهـذا — أعنى تطبيق الكلام على مقتضى الحال — هو الذى يسميه الشيخ عبد القاهر بالنظم ، حيث يقول : النظم تآخى معانى النحو فيما بين الكلم ، على حسب الأغراض التى يصاغ لها الكلام •

فالبلاغة صفة راجعة الى اللفظ باعتبار افادته المعنى (١) عنـد التركيب (٢) •

وكثيرا ما يسمى ذلك (٣) فصاحة أيضا (٤) • وهو مراد الشيخ

=مفرد مضاف لمعرفة فيعم والعموم فى هذا المقام يستلزم الحصر .. فالمعنى كل ارتفاع فهو بالمطابقة ، فالباء فى قولنا : بمطابقته للســببية القريبة حتى يفيد العموم — ومعلوم انه انما يرتفع بالبلاغة التى هى عبارة عن مطابقة الكلام الفصيح لمقتضى الحال ، فقـد علم ان المراد بالاعتبار المناسـب ومقتضى الحال واحد ، فهما متحدان او متساويان ، فمقتض الحال هـو مناسب الحال لا موجبه .

(١) صرح عبد القاهر بأن وصف اللفظ بالفصاحة انما هو من حيث انه دال على المعنى (.ه دلائل الاعجاز) . والحاصل انه اذا كانت البلاغة هى المطابقة والمطابقة صفة المطابق فتكون المطابقة راجعة للكلام من رجوع الصفة للموصوف ، لكن رجوعها له باعتبار افادته المعنى الحاصل بسبب التركيب ، وهو المعنى الثانى الذى يعتبره البلغاء ، وهو الخصوصيات التى يقتضيها الحال الزائد على اصل المراد . فالبلاغة اذا وصـف بها المعنى كان المراد المعنى الثانى باعتبار ان المقصود من اللفظ افادته . واذا وصف بها اللفظ فهو باعتبار افادته ذلك المعنى المقصود ونفيه عن اللفظ مراد به اللفظ المجرد عن المعنى والخصوصيات ، ونفيها عن المعنى مراد به المعنى الاول للفظ الذى هو مجرد ثبوت المحكوم للمحكوم عليه .

(٢) لان البلاغة عبارة عن مطابقة الكلام الفصيح لمقتضى الحال ، فظاهر ان اعتبار المطابقة وعدمها انما تكون باعتبار المعانى والاغراض التى يصاغ لها الكلام لا باعتبار الالفاظ المفردة والكلم المجردة .

(٣) اى الوصف المذكور .

(٤) كما يسمى بلاغة ، فهما مترادفان ، عند عبد القاهر حقيقة ، وعلى شىء من التجوز عند الخطيب .

عبد القاهر بما يكرره في دلائل الاعجاز من أن الفصاحة صـفة راجعة الى المعنى دون اللفظ ، كقوله في أثناء فصل منه :

علمت أن الفصاحة والبلاغة وسائر ما يجرى في طريقهما أوصاف راجعة الى المعانى ، والى ما يدل علَيه بالألفاظ ، دون الألفاظ أنفسها .

وانما قلنا مراده ذلك ، لأنه صرح في مواضع من دلائل الاعجاز بأن فضيلة الكلام للفظه لا لمعناه ، منها أنه حكى قول من ذهب الى عكس ذلك فقال : « فأنت تراه لا يقدم شـعرا حتى يكون قد أودع حكمة أو أدبا أو اشـتمل على تشـبيه غريب ومعنى نادر » . ثم قال : « والأمرُ بالضد اذا جئنا الى الحقائق وما عليه المحصلون ، لأنا لا نرى متقدما في علم البلاغة مبرزا في شأوها الا وهو ينكر هـذا الرأى » ، ثم نقل عن الجاحظ في ذلك كلاما منه قـوله : « والمعانى مطروحة في الطريق يعرفها العجمى والعربى والقروى والبدوى (١) وانما الشأن في اقامة الوزن وتخير اللفظ وسهولة المخرج وصحة الطبع وكثرة المـاء وجودة السبك » .. ثم قال : « ومعلوم ان سبيل الكلام سبيل التصوير والصياغة ، وأن سبيل المعنى الذى يعبر عنه سبيل الشىء الذى يقع التصوير فيه كالفضة والذهب يصاغ منهما خاتم أو سوار . فكما أنه محال اذا أردت النظر في صوغ الخاتم وجودة العمل ورداءته أن تنظر الى الفضة الحاملة لتلك الصورة أو الذهب الذى وقع فيه ذلك العمل ، كذلك محال اذا أردت أن تعرف مكان الفضل والمزية في الكلام أن تنظر في مجرد معناه ، وكما لو فضـلنا خاتما بأن تكون فضـة هذا أجود أو فصه أنفس لم يكن ذلك تفضيلا له من حيث هو خاتم ، كذلك ينبغى اذا فضلنا بيتا على بيت من أجل معناه أن لا يكون ذلك تفضيلا له من حيث هو شعر وكلام » .

---

(١) ٤٠ ج ٣ الحيوان .. وذلك في الصناعتين ص ٥٥ .

هذا لفظه ، وهو صريح في أن الكلام من حيث هو كلام لا يوصف بالفضيلة باعتبار شرف معناه ، ولا شك أن الفصاحة من صفاته الفاضلة ، فلا تكون راجعة الى المعنى ، وقد صرح فيما سبق بأنها راجعة الى المعنى دون اللفظ .

فالجمع بينهما بما قدمنا بحمل كلامه حيث نفى أنها من صفات اللفظ على نفى أنها من صفات المفردات (١) من غير اعتبار التركيب ، وحيث أثبت أنها من صفاته على أنها من صفاته باعتبار افادته المعنى عند التركيب .

وللبلاغة طرفان :

أعلى : اليه تنتهى ، وهو حد الاعجاز (٢) ، وما يقرب منه (٣) .

---

(١) اى المفردة عن اعتبار افادة المعانى — وهى الخصوصيات — وليس المراد التى هى غير مركبة .

(٢) الاعجاز أن يرتقى الكلام فى بلاغته الى ان يخرج عن طوق البشر ويعجزهم عن معارضته .

(٣) عطف على قوله (وهو) ، والضمير فى منه عائد الى أعلى ، يعنى ان الأعلى مع ما يقرب منه كلاهما حد الاعجاز ، وهذا هو الموافق لما فى المفتاح فالبلاغة امر كلى لهـا ثلاث مراتب : مرتبة عليا ولها فردان ، وسفلى وهى فرد واحد ، ووسطى ولها افراد . ويترتب على هذا ان بعض القرآن ابلغ من بعض وان كان الجميع معجزا .

ويجوز أن يكون « وما يقرب منه » معطوفا على « حد الاعجاز » والضمير فى منه عائد اليه ، يعنى ان الطرف الأعلى هو حد الاعجاز . وما يقرب من حد الاعجاز . فهذا عكس الأول ، اذ الاول يفيد أن حد الاعجاز نوع له فردان : الاعلى وما يقرب منه ، وهذا يفيد ان الطرف الاعلى نوع تحته فردان : حد الاعجاز وما يقرب منه . والمراد بحد الاعجاز البلاغة فى اقصر سورة ، وما يقرب منه البلاغة فى مقدار آية او آيتين . وفى التقدير الثانى نظر لأن القريب من حد الاعجاز لا يكون من الطرف الاعلى الذى هو حد الاعجاز .

وأسفل ، منه تبتدىء وهو ما (١) اذا غير الكلام عنه الى ما هو دونه التحق عند البلغاء بأصوات الحيوانات (٢) وان كان صحيح الاعراب ••• وبين الطرفين مراتب كثيرة متفاوتة (٣) :

واذ قد عرفت معنى البلاغة فى الكلام وأقسامها ومراتبها ، فاعلم

---

(١) اى هو طرف للبلاغة اذا غير الكلام عنه الى مرتبة هى ادنى منه وانزل .

(٢) التى تصدر عن محالها بحسب ما يتفق من غير اعتبار اللطائف والخواص الزائدة على اصل المراد .

(٣) اى بعضها اعلى من بعض بحسب تفاوت المقامات ورعاية الاعتبارات والبعد من اسباب الاخلال بالفصاحة بناء على ان البلاغة هى المطابقة لمقتضى الحال فى الجملة ، لكن الحق كما فى عبد الحكيم انها مطابقة الكلام لجميع ما يقتضيه الحال لكن بقدر الطاقة .

هذا وبلاغة الكلام تتفاوت باختلاف الخصوصيات كما او كيفا والمقام واحد ، وباختلاف الخصوصيات تبعا لاختلاف المقامات ، وبترك خصوصية مراعاة لحال المخاطب .

وللبلاغة طرف اسفل وطرف اعلى وما بينهما : اما الأسفل فهو الكلام الفصيح الذى طابق ادنى مطابقة وليس تحته الا ما يلتحق بأصوات الحيوانات . واما الاعلى فهو حد الاعجاز الكلام الالهى وما يقرب منه (وهو ابلغ كلام البشر) .. وبينهما مراتب لا تحصى .

ولنا ان نتساءل . هل فى طاقة البلغاء — بالطبع او بالاكتساب — الوصول الى حد الاعجاز ، ولو بان ياتوا بمثال اقصر سورة من القرآن ؟ وللجواب على ذلك .

اقول : لا شك ان علوم البلاغة ترسم اصول البيان العربى والسليقة العربية ومناهج الاداء والاسلوب ، وبالوقوف على ذلك يمكن مع سلامة الذوق محاكاة اهل هذه السليقة فى بلاغتهم ، فلنتكلم عن علوم البلاغة — لانها قواعد السليقة العربية ، وهل توصل الى حد الاعجاز ، وهل هى صالحة كأداة للوصول الى مرتبة الاعجاز ؟ ولا شك ان علوم البلاغة لا تؤدى الى الوصول لحد البلاغة لانها لا تعرفنا المقامات بل الخصوصيات =

أنه يتبعها وجوه كثيرة [١] غير راجعة الى مطابقة مقتضى الحال ولا الى الفصاحة ، تورث الكلام حسنا وقبولا .

=وحدها ، ولو فرضنا جدلا أنها تعرفنا مع الخصوصيات المقامات ايضا ، فلا تسلم الاحاطة بها لو فرضنا الاحاطة بها فانها لا تعطيك قدرة على انشاء كلام بليغ بدليل ان كثيرا من علماء البلاغة لم يستطيعوا الاتيان بكلام بليغ ، ولو فرضنا انها تعطى الملكة فلا شك فى ان الملكة البشرية لا تقدر على مراعاة الخصائص كلها فى الكلام البليغ .

هذا ويرى علماء البلاغة ان القرآن يتفاوت فى بلاغته لانه :

ا — قد يقتضى المقام عشر خصوصيات فيأتى الله عز وجل بخمس منها حسب قدرة البشر مراعاة للمقام .

ب — وقد تختلف المقامات فيكون مقام مقتضيا لعشر خصوصيات وآخر مقتضيا لخمس ولا شك ان الكلام الذى روعيت فيه العشرة ابلغ من الآخر .

وارى ان القرآن لا تتفاوت بلاغته وان اسلوبه وسوره وآياته فى درجة واحدة من البلاغة . ويمكن الرد على راى علماء البلاغة بما يأتى :

ا — ان مراعاة مقام المخاطب والاتيان بكلام يوافق حاله هو البلاغة الكاملة التى ليس فيها تفاوت .

ب — لا نسلم ان الكلام الاول ابلغ من الثانى بل هما فى درجة واحدة من البلاغة ، لان العبرة ليست بالكم بل بالكيف ، ولو سلمنا لهم رايهم لكانت سورة البقرة ابلغ من« قل هو الله احد » او لكانت ابلغ من نصفها ، أو لكان القرآن أبلغ من سورة منه .

(١) وهى المحسنات البديعية ، وتحسينها عرضى خارج عن حد البلاغة ، وانما تعد محسنة بعد رعاية المطابقة والفصاحة . وجعلها تابعة لبلاغة الكلام دون المتكلم لانها ليست مما تجعل المتكلم متصفا بصفة .

والمحسنات البديعية ان اتى بها فى الاسلوب من حيث انها محسنة بحث عنها فى علم البديع وكان تحسينها عرضيا ، اما اذا اعتبرت من حيث المطابقة فتحسينها ذاتى يبحث عنه فى علم المعانى .

هذا والبلاغة هى المطابقة والفصاحة واعتبار الخصوصيات ،=

وأما بلاغة المتكلم :

فهى ملكة يقتــدر بها على تأليف كلام بليغ .

وقد علم بما ذكرنا (١) أمران :

أحدهما أن كل بليغ — كلاما كان أو متكلما فصيح (٢) ، وليس كل فصيح بليغا (٣) .

الثانى أن البلاغة فى الكلام : مرجعها الى الاحتراز عن الخطــأ فى تأدية المعنى المراد (٤) ، والى تمييز الكلام الفصيح من غيره (٥) .

= فالمطابقة والفصاحة اعم من البلاغة من حيث التحقق ، لانهما يوجدان بدون البلاغة فيما اذا لم تراع الخصوصية ، وحينئذ فلا يعلم من كون تلك الوجوه تابعة للبلاغة كونها غيرهما لانهما تابعان لها ايضا باعتبار انهما من جملتها ، فاحتاج الى افادة انها غيرهما ، فقــال الخطيب فى التلخيص : ويتبعها وجوه اخر ، فقوله « اخر » يفيــد ان تلك الوجوه ليست لازمة للبلاغة لكونها سوى الامرين اللذين تحصل بهما البلاغة وتلك الوجوه فى الكلام انما تكون بعد البلاغة . ويقول السكاكى : البلاغة بمرجعها : علم المعانى وعلم البيان ، والفصاحة بنوعيها : اللفظية والمعنوية ، مما يكســو الكلام حلة التزيين ، وههنــا وجوه مخصوصة كثيرا ما يصار اليها لقصد تحسين الكلام وهى قسمان : قسم يرجع الى المعنى وقسم يرجع الى اللفظ ص ١٧٦ مفتاح .

(١) اى من تعريف البلاغة والفصاحة .

(٢) لان الفصاحة ماخوذة فى تعريف البلاغة مطلقا ، اى بلاغة كلام او متكلم ، لكن اخذها فى بلاغة الكلام صراحة وفى بلاغة المتكلم بواسطة .

(٣) لجواز ان يكون كلام فصــيح غير مطابق لمقتضى الحال . وكذا يجوز ان يكون لاحد ملكة يقتدر بها على التعبير عن المقصود بلفظ فصيح من غير مطابقة لمقتضى الحال .

(٤) والا ربما ادى المعنى المراد بلفظ فصيح غير مطابق لمقتضى الحال فلا يكون بليغا .

(٥) الاولى ان يقال : والى الاحتراز عن اسباب الاخلال بالفصاحة . وذلك لئــلا يؤدى الكلام المطابق لمقتضى الحال بلفظ غير فصيح ، فلا يكون ايضا بليغا لوجوب وجود الفصــاحة فى البلاغة . ويدخل فى تمييز الكلام الفصيح من غيره تمييز الكلمات الفصيحة من غيرها لتوقفه عليها .

والثانى — أعنى التمييز (١) — منه ما يتبين فى علم متن (٢) اللغة ، أو التصريف (٣) ، أو النحو (٤) ، أو يدرك بالحس (٥) ، وهو (٦) ما عدا التعقيد المعنوى (٧) .

وما يحترز به عن الأول — أعنى الخطأ (٨) — هو علم المعانى . وما يحترز به عن الثانى — أعنى التعقيد المعنوى — هو علم البيان(٩).

وما يعرف به وجوه تحسين الكلام بعد رعاية تطبيقه على مقتضى الحال وفصاحته ، هو علم البديع .

---

(١) اى تمييز الفصيح من غيره .

(٢) وذلك كالغرابة ، يعنى يعرف بعلم متن اللغة تمييز السالم من الغرابة عن غيره بمعنى ان من تتبع الكتب المتداولة واحاط بمعانى المفردات المأنوسة علم ان ما عداها مما يفتقر الى تنقير او تخريج فهو غير سالم من الغرابة .

(٣) وذلك كمخالفة القياس .

(٤) كضعف التاليف والتعقيد اللفظى .

(٥) اى بالذوق وذلك كالتنافر فى مستشزر مثلا او فى « وقبر حرب : البيت » .

(٦) وهو اى ما يبين فى العلوم المذكورة او ما يدرك بالحس .

(٧) اذ لا يعرف بتلك العلوم تمييز السالم من التعقيد المعنوى من غيره .

(٨) اى فى تادية المعنى المراد .

(٩) يسمون هذين العلمين علم البلاغة لمكان مزيد اختصاص لهما بالبلاغة وان كانت البلاغة تتوقف على غيرهما من العلوم كاللغة والنحو والصرف .

وكثير من الناس يسمى الجميع علم البيان (١) •

وبعضهم يسمى الأول علم المعانى ، والثانى والثالث علم البيان ، والثلاثة علم البديع •

---

(١) والبيان فى غير الاصطلاح هو المنطق الفصيح المعبر عما فى الضمير.

ملاحظة :

المعنى الأول هو اصل المراد ، وهو ثبوت المحكوم به للمحكوم عليه ، والمعنى الثانى هو الخصوصيات . كما يرى ابن قاسم وابن يعقوب والشيخ يسن وسواهم ، وقيل المعنى الاول هو ما يفهم من اللفظ بحسب التراكيب وهو اصل المعنى مع الخصوصيات من تعريف وتنكير الخ ، والمعنى الثانى هو الاغراض التى يقصدها المتكلم ويصوغ الكلام لاجل افادتها وهى احوال المخاطب التى يورد المتكلم الخصوصيات من اجلها من اشارة لمعهود وتعظيم وتحقير وانكار وشك الخ ، وهذا بالنسبة لعلم المعانى ، واما بالنسبة لعلم البيان ، فالمعانى الاول هى المدلولات المطابقية مع رعاية مقتضى الحال ، والمعانى الثوانى هى المعانى المجازية او الكنائية . وهذا هو المأخوذ من الدلائل كما فى المطول ، وكلام السعد فى المختصر يصح حمله على الوجهين . فاصل المراد اذا — الذى هو المعنى الاول — افادة ثبوت المسند للمسند اليه باى طريق كان ، والخصوصية هى المزايا البلاغية التى يقصدها البليغ كما يرى السعد وهى المعنى الثانى .. لكن عبد الحكيم يرى ان اصل المراد هو اصل المعنى مع الخصوصيات ، والمعنى الثانى هو الأغراض ، راجع التجريد عند شرح قوله « ويؤتى باسم الاشارة لافادة القرب او البعد أو التوسط » مثلا . ومما فى التجريد نستنبط : ان مباحث علم البلاغة عند السعد تشمل المعانى الوضعية للألفاظ والتراكيب ، وهى عند السيد خاصة بمستتبعات التراكيب ، وعند عبد الحكيم أن مباحثها شاملة للمعانى الوضعية ولمستتبعات التراكيب .

هذا والنكتة البلاغية لا يشترط فيها الاختصاص بتلك الطرق بل يكفى كونها مناسبة للمقتضى موجبة كانت أو مرجحة أو لم تكن كذلك ، والترجيح من قصد المتكلم ، وهذه هى طريقة المفتاح ، ومذهب الشارح ان النكتة لابد أن تكون موجبة أو مرجحة .

الفن الأول

علم المعـانى(١)

تعريف الخطيب :

وهو علم (٢) يعـرف به أحوال اللفظ التى بهـا يطابق مقتضى الحال (٣) •

---

(١) قدم المعـانى على البيان لكونه منه بمنزلة المفـرد من المركب ، فاتصـال المعانى بالبيان كاتصـال المفرد بالمركب ، ونسبته اليه من جهة التوقف ، وان كان توقف المركب على المفرد من جهة كونه جزءا له ، بخلاف توقف البيان على المعانى فعلم المعانى كالمفرد والبيان بمنزلة المركب ، وذلك لأن رعاية المطابقة لمقتضى الحال التى هى ثمرة علم المعانى معتبرة فى علم البيان (من حيث انها شرط فى الاعتداد بثمرته التى هى الايراد ، فليس المراد اعتبارها فى البيان على سـبيل الجزئية له ، لأنه ليس مركبا من اعتبـار المطابقة وايراد المعنى الواحد بطرق مختلفة ، فان الرعاية امر خارج عن البيان ليست جزءا منه ولا فائدة له ، وانما هى شرط للاعتداد بفـائدته ، فاعتبرت فيه من تلك الحيثية ، واما الايراد فهو فائدة علم البيان ومقصود منه ، فاعتبر فيه من تلك الحيثية) مع زيادة شىء آخر هـو ايراد المعنى الواحد بطرق مختلفة .. فثمرة علم المعانى تشبه الجزء من علم البيـان لتوقفه عليها من حيث اعتبار ثمرته ، فالرعاية والايراد يشبهان اجزاء علم البيان لتوقفه عليهما ، فكان علم المعانى بمنزلة الجزء ، لكون ثمرته المقصودة منه كالجزء . وانما قلنـا من حيث اعتبار ثمرته ، لأن تحققه لا يتوقف على رعاية المطـابقة ، ومنه يمكن تحقق ملكة يقتدر بها على ايراد المعنى بطرق مختلفة وضوحا وخفاء من غير رعاية للمطابقة ، ولا شك أن هـذه الملكة تسمى علم البيان .

(٢) اى ملكة يقتـدر بها على ادراكات جزئية ، ويجوز ان يراد به الأصول والقواعد المعلومة .

(٣) اى يطابق بها اللفظ مقتضى الحال ، وذلك احتراز من الاحوال التى ليست بهذه الصفة ، مثل الاعلال والادغام والرفع والنصب وما اشبه ذلك مما لا بد منه فى تأدية أصل المعنى ، وكذا المحسنات البديعية من التجنيس =

قيل : « يعرف » دون « يعلم » ، رعاية لما اعتبره بعض الفضلاء من تخصيص العلم بالكليات والمعرفة بالجزئيات ، كما قال صاحب « القانون » (١) فى تعريف الطب : الطب علم يعرف به أحوال بدن الانسان ، وكما قال الشيخ أبو عمرو رحمه الله (٢) : التصريف علم بأصول يعرف بها أحوال أبنية الكلم .

تعريف السكاكى :

وقال السكاكى : « علم المعانى : هو تتبع خواص تراكيب الكلام

= والترصيع ونحوهما مما يكون بعد رعاية المطابقة ... والمراد انه علم تعرف به هذه الأحوال من حيث انها يطابق بها اللفظ مقتضى الحال ، لظهور ان ليس علم المعانى عبارة عن تصور معانى التعريف والتنكير مثلا ، وبهذا يخرج عن التعريف علم البيان اذ ليس البحث فيه عن احوال اللفظ من هذه الحيثية ..... والمراد باحوال اللفظ الأمور العارضة له من التقديم والتأخير والاثبات والحذف وغير ذلك .

ومقتضى الحال على التحقيق هو الكلام الكلى للتكيف بكيفية مخصوصة على ما اشير اليه فى المفتاح وصرح به الشيرازى فى شرحه — وذلك حيث يقول السكاكى فى تعريف علم المعانى : هو تتبع خواص تراكيب البلغاء الخ ، فهو يشير الى أن المقتضى هو الكلام المتكيف بتلك الكيفيات ، لأن الذى يذكر انما هو الكلام لا الحذف والتقديم الخ ... واورد ان الذى يذكر انما هو الكلام الجزئى لا الكلى فهو كالكيفيات لا يذكر ، الا ان قلنا انه شاع وصف الكلى بوصف جزئياته — ، لا نفس الكيفيات من التقديم والتأخير والتعريف والتنكير على ما هو ظاهر عبارة المفتاح وغيره ، ولو اريد بمقتضى الحال الكيفيات لا الكلام ، لما صح القول بانها احوال بها يطابق اللفظ مقتضى الحال لأنها عين مقتضى الحال .. واحوال الاسناد ايضا من احوال اللفظ باعتبار ان التاكيد وتركه مثلا من الاعتبارات الراجعة الى نفس الجملة. وتخصيص اللفظ بالعربى مجرد اصطلاح لأن الصناعة انما وضعت لذلك .

(١) هو ابن سينا و « القانون » احد مؤلفاته المشهورة فى الطب .

(٢) هو ابن الحاجب عثمان بن عمر الامام العالم النحوى المشهور ، مؤلف الشافية وسواها من الكتب المشهورة .

فى الافادة وما يتصل بها من الاستحسان وغيره ، ليحترز بالوقوف عليها عن الخطأ فى تطبيق الكلام على ما تقتضى الحال ذكره (١) » •

نقد تعريف السكاكى :

(قال الخطيب) : وفيه (٢) نظر :

(١) اذ التتبع ليس بعلم ولا صادق عليه ، فلا يصح تعريف شىء من العلوم (٣) به •

(٢) ثم قال (٤) : « وأعنى بالتراكيب تراكيب البلغاء » ، ولا شك أن معرفة البليغ من حيث هو بليغ متوقفة على معرفة البلاغة ، وقد عرفها فى كتابه بقوله : « البلاغة : هى بلوغ المتكلم فى تأدية المعنى حدا له اختصاص بتوفية خواص التراكيب حقها (٥) وايراد أنواع التشبيه والمجاز والكناية على وجهها » •

فان أريد بالتراكيب فى حد البلاغة تراكيب البلغاء ، وهو الظاهر، فقد جاء الدور (٦) ، وان أراد غيرها فلم يبينه •

---

(١) أى ايراده فى الكلام .

(٢) أى فى تعريف السكاكى لعلم المعانى .

(٣) اجيب عن هذا الاعتراض : بأن المراد من التتبع العلم مجازا مرسلا من اطلاق المسبب على السبب .

(٤) أى السكاكى كما فى المفتاح ص ٧٠ .

(٥) بان يورد كل كلام موافقا لمقتضى الحال ، فالمراد بالتراكيب فى تعريف البلاغة تراكيب ذلك المتكلم .

(٦) لأن علم البلاغة يتوقف على تراكيب البلغاء وتراكيب البلغاء تتوقف على علم البلاغة ، ومتى عرفنا البلاغة فقد وصلنا الى حد نعرف به توفية خواص التراكيب حقها .

=

(٣) على أن قوله « وغيره » مبهم لم يبين مراده به (١) .

المقصود من علم المعـــانى :

ثم المقصود من علم المعانى منحصر فى ثمانية أبواب :

أولهـــا : أحوال الاسناد الخبرى .

وثانيها : أحوال المسند اليه .

وثالثها : أحوال المســـند .

ورابعها : أحوال متعلقات الفعل .

وخامسها : القصر .

وسادسها : الانشـــاء .

وسابعها : الفصل والوصل .

وثامنها : الايجاز والاطناب والمساواة .

ووجه الحصر أن الكلام اما خبر أو انشـــاء ، لأنه اما أن يكون

= وقد أجيب عن اعتراض الدور هذا بان بلاغة الكلام غير بلاغة المتكلم ، فلا يتوقف العلم بالبليغ المتكلم على العـــلم ببلاغة الكلام التى وقع فيهـــا التحديد فلا يمتنع اخذ البليغ فى الحد .

(١) وأجيب عن هذا الاعتراض بان المراد به الاستهجان بقرينـــة الاستحسان . هـــذا وقد بســـط الحفيد فى « الدر النضيد » شرح تعريف السكاكى ونقـــده ؛ وقال : المشـــهور ان المراد بالاستحسان المحسنات البديعية ، فالبديع خارج عن المعانى والبلاغة ، والأوضح فى تعريف علم المعانى كما يرى السعد فى المطول ان نقول : هو علم يعرف به كيفية تطبيق الكلام العربى لمقتضى الحال .

لنســـبته خارج تطابقه ، أو لا تطابقه . أو لا يكون لهـــا خارج (١) .

---

(١) تفصيل ذلك ان الكلام لا محالة يشـــتمل على نســـبة تامة بين الطرفين قائمة بنفس المتكلم ، وهى تعلق احد الشيئين — اى الطرفين : المسند او المسند اليه — بالآخر ، بحيث يصح السكوت على التعلق ، سواء كان ذلك التعلق ايجابيا او ســـلبيا (وهذا لا يكون الا فى الخبر ، بخلاف الانشاء فلا يتصف بايجاب ولا بسلب ، لانهما من انواع الحكم ، والانشاء ليس بحكم ، بل هو ايجاد معنى بلفظ يقارنه فى الوجود) او غيرهما كما فى الانشائيات .

والمراد بالتعلق ما يشـــمل النسبة الحكمية — اعنى ثبوت المحمول للموضوع — وما يشمل النسبة الانشائية . والمراد بالايجاب ادراك الثبوت، اى انه مطابق للواقع او غير مطابق ، وبالسلب عكسه فهو ادراك الانتفاء اى انه مطابق للواقع او غير مطابق .. وتفسير النسبة بايقاع المحكوم به على المحكوم عليه أو سلبه عنه خطا فى هذا المقام ، لانه لا يشمل النسبة فى الكلام الانشائى ، فلا يصح التقسيم .

والتحقيق أن الانشاء له نسبة كلامية ونسبة خارجية تارة يتطابقان وتارة لا ، والفارق بين الخبر والانشاء هو قصد المطابقة او قصد عدمها فى الخبر ، والانشاء ليس فيه قصد للمطابقة ولا لعدمها ، وعبد الحكيم وغيره يقولون : الانشاء لا خارج له اذ لو كان له خارج لكان خبرا يتصور فيه الصدق والكذب اللذان هما من لوازم الخارجية ، واللازم باطل فبطل الملزوم.

هذا والخبر له ثلاث نسب : نسبة ذهنية ، ونسبة كلامية ، ونســـبة خارجية فى احد الازمنة الثلاثة . فبين طرفيه — اللذين هما النسبة الكلامية — فى الخارج والواقع نسبة ثبوتية أو سلبية بحيث يقصد مطابقة تلك النسبة لذلك الخارج بان تكونا ثبوتيتين او سلبيتين أو لا يقصـــد مطابقتهما له ، بان تكون النسبة المفهومة من الكلام ثبوتية والتى بينهما فى الخارج والواقع سلبية أو بالعكس ، واما الانشاء فله نســـبة ذهنية ونســـبة كلامية ، والخلاف هل له نسبة خارجية او لا ؟.

قيل ليس له نســـبة خارجية وهذا هو الفرق بينه وبين الخبر .. وقيل له نسبة خارجية ، والفرق بينهما ان الخبر يقصد فيه مطابقة النسبة للخارج او عدم مطابقتها له ، والانشاء لا يقصد فيه ذلك .

=

الأول الخبر ، والثانى الانشاء • ثم الخبر لابد له من اسناد ومسند اليه ومسند (١) ، وأحوال هذه الثلاثة هى الأبواب الثلاثة الأولى • ثم المسند قد يكون له متعلقات اذا كان فعلا أو متصلا به أو فى معناه كاسم الفاعل ونحوه (٢) ، وهذا هو الباب الرابع • ثم الاسناد والتعلق كل واحد منهما يكون اما بقصر أو بغير قصر ، وهذا هو الباب الخامس • والانشاء هو الباب السادس • ثم الجملة اذا قرنت بأخرى فتكون الثانية اما معطوفة على الأولى أو غير معطوفة ، وهذا هو الباب السابع • ولفظ الكلام البليغ اما زائد على أصل المراد لفائدة (٣) أو غير زائد عليه ، وهذا هو الباب الثامن •

= والخلاصة ان الكلام اما ان تكون نسبته بحيث تحصل من اللفظ ويكون اللفظ موجدا لها من غير قصد الى كونه دالا على نسبة حاصلة فى الواقع بين الشيئين وهو الانشاء ، او تكون له نسبة بحيث يقصد ان لها نسبة خارجية تطابقه اولا تطابقه وهو الخبر ، لان النسبة المفهومة من الكلام الحاصلة فى الذهن لابد أن تكون بين الشيئين ، ومع قطع النظر عن الذهن لابد أن يكون بين هذين الشيئين فى الواقع نسبة ثبوتية بأن يكون هذا ذاك ، أو سلبية بأن لا يكون هذا ذاك : الا ترى أنك اذا قلت زيد قائم فان القيام حاصل لزيد قطعا ، وثبوت النسبة فى الواقع بين الشيئين المذكورين مع قطع النظر عن لذهن هو معنى وجود النسبة الخارجية فمعنى وجودها تحققها فى الواقع .

(١) والانشاء كذلك أيضا ، وانما اقتصر على الخبر لكونه أعظم شأنا من الانشاء ، واكثر اشتمالا على اللطائف البلاغية المعتبرة .

(٢) كالمصدر واسم المفعول وما أشبه ذلك ولا داعى لتخصيص هذا الكلام بالخبر .

(٣) احترز بالفائدة عن التطويل فانه الزيادة على أصل المراد لا لفائدة ، على انه لا حاجة الى قيد الفائدة بعد تقييد الكلام بالبليغ .

هذا وقد افردت هذه الأحوال المتعلقة بالجملة بأبواب مستقلة دون غيرها من الاحوال — كالتعريف والتنكير مثلا — لصعوبة امرها وكثرة تشعبها بكثرة مباحثها .

* * * * * * * * * * * * * *

تطبيق :

١ — ميز الجمل الخبرية من الانشائية وعين المسند والمسند اليه فى كل جملة فيما يلى :

قال بعض البلغاء : لذت بعفوك ، واستجرت بصفحك ، فاذقتنى حلاوة الرضا ، وانسنى مرارة السخط فيما مضى . وقال الشاعر :

ولا تصطنع الا الكرام فانهم   يجازون بالنعماء من كان منعما
ومن يتخذ عند اللئام صنيعة   تجده على آثارها متندما

وقال ابن المعتز :

ليس الكريم الذى يعطى عطيته   عن الثناء وان اغلى به الثمنا
بل الكريم الذى يعطى عطيته   لغير شىء سوى استحسانه الحسنا
لا يستثيب ببذل العرف محمدة   ولا يمن اذا ما قلد المننا

وقال شوقى :

قف دون رايك فى الحياة مجاهدا   ان الحياة عقيدة وجهاد

وقال المتنبى :

انا الذى نظر الاعمى الى ادبى   واسمعت كلماتى من به صمم

وقال زهير :

ومن يك ذا فضل فيبخل بفضله   على قومه يستغن عنه ويذمم

وقال عنترة :

وانا المنية فى المواطن كلها   والطعن منى سابق الآجال

وقال الشاعر :

ايها الرائد فى صمت الرعاة   عد الى دنياك واهتف بالحياة

وقال حافظ :

ردوا على بيانى بعد محمود   انى عييت واعيا الشعر مجهودى

وقال ابو العلاء :

تحطمنا الايام حتى كاننا   زجاج ولكن لا يعاد له سبك

تنبيـــه(١)

اختلف الناس فى انحصار الخبر فى الصـــادق والكاذب ، فذهب الجمهور الى أنه منحصر فيهما ثم اختلفوا :

١ — فقال الأكثر منهم : صدقه مطابقة حكمه للواقع (٢) . هذا هو المشهور وعليه التعويل .

٢ — وقال بعض الناس (٣) : صدقه مطابقة حكمه لاعتقاد المخبر

---

(١) هذا بحث عقلى لا صـــلة له بمباحث البلاغة الا من ناحية انه كالتفسير والشرح لتعريف الخبر والانشاء ، وقد اشار عبد القاهر الى شىء من ذلك فى دلائله — راجـــع ص ٤٠٧ الى ٤١٠ من دلائل الاعجاز — ، كما ذكره الســـكاكى فى مفتاحه ص ٧٢ المفتاح ، وجارى الخطيب شـــيخه السكاكى بالسير على هذا المنوال .

(٢) اى الخارج الذى يكون لنسبة الكلام الخبرى ، فصدق الخبر على ذلك هو مطابقة نسبته الكلامية للنسبة الخارجية ، سواء طابقت الاعتقاد أو لا . وعلى هذا التعريف لا يخرج خبر الشـــاك عن الصـــادق والكاذب بخلافه على التفسير الثانى .. وتفصيل الامر ان قولنا محمد قائم له ثلاث نسب : نسبة كلامية وهى ما يدل عليه الكلام ، ونسبة ذهنية وهى مايحصل فى الذهن من النسبة الكلامية ، ونســـبة خارجية وهى النســـبة التى بين الطرفين فى الواقع ، فمطابقة النسبة الكلامية للنسبة الخارجية بأن يكونا ثبوتيين أو سلبيين صدق ، وعدم مطابقتها لهـــا —بأن تكون احداهما ثبوتية والاخرى سلبية — كذب .

(٣) هو النظام الامام المعتزلى المتوفى عام ٢٣٥ هـ : وعلى رأى النظام يكون قول القـــائل « الســـماء تحتنا » صدقا اذا كان يعتقد ذلك ، ويكون قوله « السماء فوقنا » كذبا اذا لم يعتقـــد ذلك . والمراد بالاعتقاد الحكم الذهنى الجازم او الراجح فيعم العلم والظن ؛ اما الشك فواسطة بين الكذب والصدق ، اذ لا اعتقاد للشاك ، وعلى هذا لا يتحقق انحصـــار الخبر فى الصدق والكذب لوجود الواسطة وهى خبر الشاك ، اللهم الا ان يقال انه كاذب ، لانه اذا انتفى الاعتقاد صدق عدم مطابقته للاعتقاد . هذا والكلام =

صوابا كان أو خطأ ، وكذبه عدم مطابقة حكمه له . واحتج له بوجهين:

أحدهما أن من اعتقد أمرا فأخبر به ثم ظهر خبره بخلاف الواقع يقال : ما كذب ولكنه أخطأ ، كما روى عن عائشة رضى الله عنها قالت فيمن شأنه كذلك : ما كذب ولكنه وهم .

ورد بأن المنفى تعمد الكذب لا الكذب ، بدليل تكذيب الكافر كاليهودى اذا قال : « الاسلام باطل » وتصديقه اذا قال : الاسلام حق . فقولها (١) : « ما كذب » متأول بما كذب عمدا .

الثانى قوله تعالى : « والله يشهد ان المنافقين لكاذبون » ، كذبهم فى قولهم « انك لرسول الله » وان كان مطابقا للواقع لأنهم لم يعتقدوه .. وأجيب عنه بوجوه .

أحدها أن المعنى نشهد شهادة واطأت فيها قلوبنا ألسنتنا ، كما يترجم عنه ان والسلام وكون الجملة اسمية فى قولهم انك لرسول الله .. فالتكذيب فى قولهم « نشهد » وادعائهم فيها المواطأة ، لا فى قولهم « انك لرسول الله » (٢) .

وثانيهما أن التكذيب فى تسميتهم اخبارهم شهادة ، لأن الاخبار

= المشكوك فيه يرى البعض انه ليس خبرا لانه لا نسبة له فى الاعتقاد فهو خارج عن المقسم وهو الخبر .

(١) اى عائشة رضوان الله عليها .

(٢) وعلى هذا فالتكذيب فى الشهادة لا فى المشهود به ، بخلاف الوجه الثالث فالتكذيب فى المشهود به لكن لا فى الواقع بل فى زعمهم الفاسد لانهم يعتقدون انه غير مطابق للواقع ، فيكون كاذبا باعتقادهم وان كان صادقا فى نفس الامر ، فكانه قيل انهم يزعمون انهم كاذبون فى هذا الخبر الصادق ، وحينئذ لا يكون الكذب الا بمعنى عدم المطابقة للواقع .

اذا خلا عن المواطأة لم يكن شهادة فى الحقيقة .

وثالثها أن المعنى لكاذبون فى قولهم : « انك لرسول الله » عند أنفسهم ، لاعتقادهم أنه خبر على خلاف ما عليه حال المخبر عنه .

وأنكر الجاحظ انحصار الخبر فى القسمين (١) ، وزعم أنه ثلاثة أقسام : صادق ، وكاذب ، وغير صادق ولا كاذب . لأن الحكم اما مطابق للواقع مع اعتقـاد المخبر له أو عدمه ، واما غير مطابق مع الاعتقـاد أو عدمه :

فالأول — أى المطابق مع الاعتقاد — هو الصادق (٢) .

والثالث — أى غير المطابق مع الاعتقاد — هو الكاذب (٣) .

والثانى والرابع — أى المطابق مع عدم الاعتقاد (٤) ، وغير المطابق مع عدم الاعتقاد (٥) — كل منهما ليس بصادق ولا كاذب .

---

(١) اى الصادق والكاذب .

(٢) وصدق الخبر على هـذا هو مطابقة الخبر للواقع مع اعتقاد المخبر انه مطابق له .

(٣) فكذب الخبر هو عدم مطابقتـه للواقع مع اعتقـاد انه غير مطابق له .

(٤) اى مع عدم الاعتقاد اصلا او مع الاعتقاد بانه غير مطابق .

(٥) اى اصلا او مع اعتقاد المطابقة ، فالذى ليس بصادق ولا كاذب اربعة :

١ — المطابقة مع اعتقاد عدم المطابقة .

٢ — المطابقة بدون الاعتقاد اصلا .

٣ — عدم المطابقة مع اعتقاد المطابقة .

٤ — عدم المطابقة بدون الاعتقاد اصلا .

فالصدق عنده مطابقة الحكم للواقع مع اعتقاده — والكذب عدم مطابقته مع اعتقاده •

وغيرهما ضربان : مطابقتـه مع عدم اعتقـاده ، وعدم مطابقته مع عدم اعتقاده •

واحتج بقوله تعالى « افترى على الله كذبا أم به جنة (١) ؟ » ، فانهم حصروا دعوى النبى صلى الله عليه وسـلم الرسالة فى الافتراء والاخبار والاخبار حال الجنون ، بمعنى امتناع الخلو ، وليس اخباره حال الجنون كذبا لجعلهم الافـتراء فى مقابلته ، ولا صـدقا لأنهـم لم يعتقدوا صدقه ، فثبت أن من الخبر ما ليس بصادق ولا كاذب (٢) •• وأجيب عنـه بأن الافتراء هو الكذب عن عمـد ، فهو نوع من الكذب فلا يمتنع أن يكون الاخبار حال الجنون كذبا أيضا لجواز أن يكون نوعا آخر من الكذب وهو الكذب لا عن عمد ، فيكون التقسيم للخبر مطلقا ، والمعنى « افترى أم لم يفتر ؟ » ، وعبر عن الثانى بقوله « أم به جنة »، لأن المجنون لا افتراء له •

= فكل من الصـدق والكذب بتفسـير الجاحظ اخص منه بالتفسيرين السابقين ، لانه اعتبر فى الصدق مطابقة الواقع والاعتقـاد جميعـا وفى الكذب عدم مطابقتهما جميعا ، وقد اقتصر فى التفسيرين السابقين على احدهما ، فالجمهور اقتصروا فى تفسـيرهم على اعتبار المطابقـة للواقع والنظام على اعتبار المطابقة للاعتقاد .

(١) الافتراء : الكذب . الجنة : الجنون •

(٢) يلاحظ أن هذا الدليل وان اثبت الواسطة الا انه انما اثبت قسما واحدا من اقسام الواسطة الاربعة . الا ان مراد الجاحظ ابطال مذهب غيره واثبات مذهبه فى الجملة •

تنبيــه آخــر

وهو مما يجب أن يكون على ذكر الطالب لهذا العلم (١) .

قال السكاكى : ليس من الواجب فى صــناعة وان كان المرجع فى أصــولها وتفاريعها الى مجرد العقل أن يكون الدخيل فيها كالناشىء عليها ، فى استفادة الذوق منها ، فكيف اذا كانت الصناعة مستندة الى تحكمات وضعية واعتبارات الفية ؟ فلا على الدخيل فى صــناعة علم المعــانى أن يقلد صــاحبه فى بعض فتاواه ان فاته الذوق هناك ، الى أن يتكامل له على مهل موجبات ذلك الذوق .

وكثيرا ما يشير الشيخ عبد القاهر فى دلائل الاعجاز الى هذا ، كما ذكر فى موضع ما تلخيصه هذا : اعلم أنه لا يصادف القول فى هذا الباب موقعا من الســامع ، ولا يجد لديه قبولا ، حتى يكون من أهــل الذوق والمعرفة ، ومن تحدثه نفسه بأن لمــا تومىء اليه من الحســن أصلا . فيختلف الحال عليه عند تأمل الكلام ، فيجد الأريحية تارة ، ويعرى منها أخرى ، واذا عجبته تعجب ، واذا نبهته لموضــوع المزية انتبه ، فأما من كانت الحالات عنده على سواء ، وكان لا يتفقد من أمر النظم الا الصحة المطلقة ، والا اعرابا ظاهرا ، فليكن عندك بمنزلة من عدم الطبع الذى يدرك به وزن الشعر ، ويميز به مزاحفه من سالمه فى أنك لا تتصدى لتعريفه ، لعلمك أنه قد عدم الأداة التى بها يعرف ... واعلم أن هؤلاء وان كانوا هم الآفة العظمى فى هذا الباب ، فان من الآفة أيضا من زعم أنه لا ســبيل الى معرفة العلة فى شىء مما تعرف المزية فيه ، ولا يعلم الا أن له موقعا من النفس وحظا من القبول ، فهذا بتوانيه فى حكم القائل الأول .. واعلم أنه ليس اذا لم يمكن معرفة

---

(١) اى علم البلاغة .

الكل وجب ترك النظر فى الكل ، ولأن تعرف العلة فى بعض الصـــور فتجعله (١) شاهدا فى غيره أحرى من أن تسد باب المعرفة على نفسك وتعودها الكسل والهوينا ، قال الجاحظ : وكلام كثير جرى على ألسنة الناس ، وله مضرة شديدة وثمرة مرة • فمن أضر ذلك قولهم : لم يدع الأول للآخر شيئا (٢) ، فلو أن علماء كل عصر مذ جرت هذه الكلمة فى اســـماعهم ، تركوا الاستنباط لما لم ينته اليهم عمن قبلهم ، لرأيته العلم مختلا (٣) •

(١) اى فتجعل علمك او عرفانك بذلك .

(٢) وفى البيان والتبيين يقول الجـــاحظ : اذا سمعت الرجل يقول « ما ترك الاول للآخر شيئا فاعلم انه ما يريد أن يفلح » .

(٣) هذا هو نهاية تلخيص الخطيب لكلام عبد القاهر فى الدلائل .

القول فى أحوال الاسـناد الخبرى (١)

من المعلوم لكل عاقل أن قصد المخبر (٢) بخبره افادة المخاطب اما:

---

(١) البحث هنا عن الأمور العارضة للاسناد الخبرى : من التاكيد وعدمه وكونه حقيقة عقلية او مجازا . الاسناد ضم كلمة او ما يجرى مجراها — كالجملة الحالة محل مفرد نحو زيد قائم ابوه ، ومثل المركبات الاضافية والتقييدية — الى كلمة أخرى أو ما يجرى مجراها بحيث يفيد الحكم بأن مفهوم احداهما — وهى المحكوم به والمسند — ثابت لمفهوم الاخرى — وهى المسند اليه — .

(٢) اى من يكون بصدد الاخبار والاعلام ، والا فالجملة الخبرية كثيرا ما تاتى لاغراض اخر غير افادة الحكم او لازمه مثل :

التحسر والتحزن كما فى قوله تعالى حكاية عن امراة عمران « رب انى وضعتها أنثى » ، وقول الشاعر :

قـومى هـم قتلوا أميـم أخى   فـاذا رميت يصـيبنى سـهمى

وكاظهار الضعف كما فى قوله تعالى : « رب انى وهن العظم منى » .

وكبيان التفاوت القريب فى المنزلة كما فى قوله تعالى « لا يستوى القاعدون من المؤمنين » الاية ، وقوله تعالى « هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون » .

وكالاستعطاف والاعتذار كقول النابغة :

نبئت ان ابا قابوس اوعـدنى   ولا قرار على زار من الاسـد

وكالتوبيخ كقولك : أنت تسىء الى من احسن اليك ، وكاظهار الفرح كقولك : انتصرنا على العـدو اللدود . الى غير ذلك من الوجـوه التى يفيدها الاسلوب . واستفادة التحسر وغيره من هـذه الاساليب بطريق التلويح والاشارة فتكون هذه المعانى من مستتبعات التراكيب ، وقيل ان استعمال الكلام فى التحسر مثلا مجاز مركب ؛ لان الهيئة فى مثله موضوعة للاخبار . فاذا استعمل ذلك المركب فى غير ما وضع له لعلاقة المشـابهة فاستعارة وان كان لعلاقة غير المشابهة فمجاز مرسل .

نفس الحكم (١) كقولك زيد قائم لمن لا يعلم أنه قائم ، ويسمى هذا فائدة الخبر . اما كون المخبر عالما (٢) بالحكم ، كقولك لمن زيد عنده ولا يعلم أنك تعلم ذلك : زيد عندك ، ويسمى هذا لازم فائدة الخبر(٣).

قال السكاكى (٤) :

---

(١) يطلق الحكم على النسبة الكلامية وهو المتعارف بين ارباب العربية ، ويطلق على المحكوم به ، وعلى اذعان النسبة اى ادراك انها واقعة او ليست بواقعة اى تحققها فى الخارج او عدم تحققها وهذا هو المراد هنا .. والحكم اعم من ان يكون مدلولا حقيقيا للخبر او مجازيا او كنائيا .

(٢) المراد بالعلم هنا التصديق بالنسبة جزما او ظنا ، لا مجرد التصور .

(٣) لان كل خبر افاد المخاطب الحكم افاد ان المخبر عالم بذلك الحكم، وليس كل ما افاد انه عالم بالحكم افاد نفس الحكم ، لجواز ان يكون الحكم معلوما قبل الاخبار . فيكون الخبر حينئذ قد افاد لازم الفائدة ولم يفد الفائدة كما فى قولنا لمن قرا كتاب الايضاح : انت قد قرات كتاب الايضاح ... وتسمية مثل هذا الحكم فائدة الخبر بناء على انه من شأنه ان يقصد بالخبر ويستفاد منه فان قيل ان المخاطب قد يلقى الخبر لافادة الحكم ويغفل عن كون المتكلم عالما به . او يجيز بالحكم وهو شاك او جاهل فلم تكن افادة انه عالم بالحكم لازمة لافادة نفس الحكم . والجواب أن المراد باللزوم اللزوم فى الجملة اى ان ذلك اللزوم بالنظر للغالب .

والمراد بالعلم هنا المعنى المصطلح عليه عند المناطقة ، وهو الصورة الحاصلة فى الذهن وافقت الواقع اولا ، وسواء كانت معتقدة للمتكلم اعتقادا جازما او غير جازم . لا الاعتقاد الجازم المطابق للواقع كما عليه المتكلمون .

(٤) هذا وتفسير الفائدة بالحكم الذى يقصد بالخبر افادته ولازم الفائدة بكون المخبر عالما بالحكم رأى الجمهور ومنهم السكاكى كما ترى فى المفتاح ... وزعم العلامة الشيرازى ان فائدة الخبر هى استفادة السامع من الخبر ان المخبر عالم بالحكم ، وهو خلاف التحقيق .

« والأولى بدون هذه تمتنع ، وهذه بدون الأولى لا تمتنع ، كما هو حكم اللازم المجهول المساواة (١) » •

أى يمتنع أن لا يحصل العلم الثانى من الخبر نفسه عند حصول الأول منه (٢)، لامتناع حصول الثانى قبل حصول الأول ، مع أن سماع الخبر من المخبر كاف فى حصول الثانى منه •

ولا يمتنع أن لا يحصل الأول (٣) من الخبر نفسه عند سماع الثانى منه ، لجواز حصول الأول قبل حصول الثانى وامتناع حصول الحاصل •

---

(١) وهو اللازم الاعم مثل لزوم الحيوانية للانسانية فلا يلزم من العلم بالحيوانية العلم بالانسانية •

(٢) للزوم حصول لازم فائدة الخبر كلما حصلت الفائدة ، فالعلم الثانى وهو علم المخاطب بأن المخبر عالم بهذا الحكم من الخبر نفسه يوجد عند حصول العلم الاول وهو علمه بذلك الحكم من الخبر نفسه ، اذ لو لم يحصل العلم الثانى عند حصول الأول فاما لانه قد حصل قبل واما لانه لم يحصل بعد : اما الاول — حصول العلم الثانى قبل الاول — فباطل لان العلم بكون المخبر عالما بالحكم لابد فيه من ان يكون هذا الحكم حاصلا فى ذهنه ضرورة • والثانى باطل ايضا لان علة حصوله سماع الخبر من المخبر ، اذ التقدير ان حصوله انما هو نفس الخبر ، فنبه الخطيب على الاول بقوله : « لامتناع حصول الثانى قبل حصول الاول » ، ونبه على الثانى بقوله : مع أن سماع الخبر من المخبر كاف فى حصول الثانى منه ... فان قيل لا نسلم انه كلما افاد الخبر افاد انه عالم به ، لجواز أن يكون خبره مظنونا او مشكوكا او موهوما او كذبا محضا ، فالجواب انه ليس المراد بالعلم هنا الاعتقاد الجازم المطابق بل حصول صورة هذا الحكم فى ذهنه وهذا ضرورى فى كل عاقل تصدى للاخبار •

(٣) اى يمتنع حصول العلم الاول من الخبر نفسه عند حصول العلم الثانى ، لجواز حصول الاول قبل حصول الثانى فلا يمكن حصوله لامتناع حصول الحاصل ، كالعلم بكونه حافظا للقرآن فى قولك : انت حفظت القرآن ، وحينئذ يكون تسمية هذا الحكم فائدة الخبر على ان من شأنه أن يستفاد من الخبر •

وقد ينزل العالم (١) بفائدة الخبر ولازم فائدته منزلة الجاهل لعدم جريه على موجب العلم ، فيلقى اليه الخبر كما يلقى الى الجاهل بأحدهما .. قال السكاكي :

وان شئت فعليك بكلام رب العزة : « ولقد علموا لمن اشتراه ماله في الآخرة من خلاق ، ولبئس ما شروا به أنفسهم لو كانوا يعلمون(٢) » ، كيف تجد صدره يصف أهل الكتاب بالعلم على سبيل التوكيد القسمي ، وآخره ينفيه عنهم حيث لم يعملوا بعلمهم . ونظيره في النفي والاثبات « وما رميت اذ رميت » (٣) ، وقوله تعالى : « وان نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم ، وطعنوا في دينكم ، فقاتلوا أئمة الكفر انهم لا أيمان لهم لعلهم ينتهون » .

هذا لفظه(٤) .. وفيه ايهام أن الآية الأولى من أمثلة تنزيل العالم بفائدة الخبر ولازم فائدته منزلة الجاهل بهما ، وليست منها ، بل هي من أمثلة تنزيل العالم بالشيء منزلة الجاهل به لعدم جريه على موجب العلم ، والفرق بينهما ظاهر .

---

(١) أي المخاطب العالم بالفائدة ولازمها معا ، وكذلك العالم بأحدهما ، الفائدة أو اللازم ، فقط . وذلك لعدم جريه على مقتضى علمه . فان من لا يجري على مقتضى العلم هو والجاهل سواء ، كما يقال للعالم التارك الصلاة الصلاة واجبة ، وقولك لمن يسألك : ماذا أمامك ؟ وهو يعلم أنه كتاب : أمامي كتاب .

(٢) اللام في لقد موطئة للقسم ، أي واقعة في جواب قسم محذوف ، واللام في « لمن » ابتدائية ، وجملة « لمن اشتراه الخ » سدت مسد مفعولي علموا لتعليقه بلام الابتداء ، ومحل الشاهد قوله « لو كانوا يعلمون » ، فان العلم الواقع بعد « لو » منفي بمقتضاها لأنها حرف امتناع لامتناع ، وقد أثبت ذلك العلم لهم في صدر الآية .. هذا وتنزيل العالم بالشيء منزلة الجاهل به لاعتبارات بلاغية كثيرة في الكلام .

(٣) الآية من تنزيل وجود الشيء منزلة عدمه — وقوله في « النفي والاثبات » أي في نفي شيء واثباته .

(٤) أي نص كلام السكاكي .

واذا كان غرض المخبر بخبره افادة المخاطب أحد الأمرين ، فينبغى أن يقتصر من التركيب على قدر الحاجة :

١ — فان كان المخاطب خالى الذهن من الحكم (١) — بأحد طرفى الخبر على الآخر — والتردد فيه استغنى عن مؤكدات الحكم كقولك : جاء زيد ، وعمرو ذاهب ، فيتمكن فى ذهنه ، لمصادفته اياه خاليا .

٢ — وان كان متصورا لطرفيه (٢) ، مترددا فى اسناد أحدهما الى الآخر ، طالبا له ، حسن تقويته بمؤكد (٣) ، كقولك لزيد عارف أو أن زيدا عارف .

---

(١) المراد بالحكم كما سبق الاعتقاد ولو غير جازم : وخلو الذهن من لازم الحكم مثل خلوه من الحكم فى ترك التاكيد . والضمير فى قوله . « والتردد فيه » للحكم بمعنى وقوع النسبة او لا وقوعها ، ففى الكلام استخدام ، لان التردد ليس فى الحكم بمعنى التصديق .. والمراد أن المخاطب ليس عالما بوقوع النسبة او لا وقوعها وليس مترددا فى ان النسبة هل هى واقعة او لا .

(٢) أى طرفى الحكم وهما المسند والمسند اليه .

(٣) اى باداة تاكيد واحدة ، ليزيل ذلك المؤكد تردده ويتمكن الحكم فى نفسه .

هذا والمراد بالخالى من يخلو ذهنه عن التصديق بالنسبة الحكمية فيما بين طرفى الجملة الخبرية وعن تصور تلك النسبة .. والمراد بالمتردد من تصور تلك النسبة الحكمية ولم يصدق بشىء من وقوعها وعدم وقوعها ... وبالمنكر من صدق بما ينافى مضمون الجملة الملقاة اليه .

واعتبار هذه الاحوال فى المخاطب وايراد الكلام على الوجوه المذكورة بالقياس الى فائدة الخبر اعنى الحكم ظاهر ، واما بالقياس الى لازمها فيمكن اعتبار الخلو وتجرد الجملة عن المؤكد ، وأما اعتبار التردد والانكار على الوجه المذكور فلا يجرى فى اللازم .

=

٣ — وان كان حاكما بخلافه وجب توكيده (١) بحسب الانكار (٢) ، فتقول : « انى صادق » لمن ينكر صدقك ولا يبالغ فى انكاره ، و « انى لصادق » لمن يبالغ فى انكاره . وعليه قوله تعالى « ضرب لهم مثلا أصحاب القرية اذ جاءها المرسلون ، اذ أرسلنا اليهم اثنين فكذبوهما فعززنا بثالث فقالوا انا اليكم مرسلون ، قالوا ما أنتم الا بشر مثلنا ، وما أنزل الرحمن من شيء ، ان أنتم الا تكذبون ، قالوا ربنا يعلم انا اليكم لمرسلون » .

= ومؤكدات الحكم هى : ان والقسم ونونا التوكيد ولام الابتداء واسمية الجملة وتكريرها ولو حكما واما الشرطية وحروف التنبيه وحروف الزيادة وضمير الفصل وتقديم الفاعل المعنوى لتقوية الحكم ، ومنها السين اذا دخلت على فعل محبوب او مكروه لانها تفيد الوعد او الوعيد وهذا مقتض لتوكيد الحكم ، وقد التى للتحقيق ، وكأن ولكن وانما وليت ولعل وتكرير النفى ، وبعضهم عد ان المفتوحة ، وقيل : ليست منها لان ما بعدها فى حكم المفرد .

والفرق بين التاكيد الواجب والمستحسن مع ان المستحسن عند البلغاء واجب هو ان ترك المستحسن يلام عليه لوما اخف من اللوم على ترك الواجب .

وقال عبد القاهر فى دلائل الاعجاز ص ٢٤٩ : « اكثر مواقع ان بحكم الاستقراء هو الجواب » ، لكن « يشترط فيه ان يكون للسائل ظن على خلاف ما انت تجيبه به ، فاما ان يجعل مجرد الجواب اصلا فيها فلا ، لانه يؤدى الى ان لا يستقيم لنا ان نقول : « صالح » فى جواب كيف زيد ؟ و « فى الدار » فى جواب : « أين زيد ؟ » حتى نقول : انه صالح ، وانه فى الدار ، وهذا مما لا قائل به » ، فهو يرى انه انما يحسن التاكيد اذا كان للمخاطب ظن على خلاف حكمك اى تأكيد الحكم بمؤكد فاكثر وقيل باكثر من مؤكد فرقا بينه وبين التوكيد المستحسن .

(٢) اى بقدره قوة وضعفا ، يعنى يجب زيادة التاكيد بحسب ازدياد الانكار .

حيث قال فى المرة الأولى : انا اليكم مرسلون ، وفى الثانية : انا اليكم لمرسلون (١) .

* * *

ويؤيد ما ذكرناه جواب أبى العباس (٢) للكندى عن قوله : انى أجد فى كلام العرب حشوا ، يقولون : عبد الله قائم ، وان عبد الله قائم ، وان عبد الله لقائم ، والمعنى واحد .. بأن قال ، بل المعانى مختلفة ، « فعبد الله قائم » اخبار عن قيامه ، و « ان عبد الله قائم » جواب عن سؤال سائل ، وان عبد الله لقائم جواب عن انكار منكر .

* * *

ويسمى النوع الأول من الخبر ابتدائيا (٣) ، والثانى طلبيا ، والثالث انكاريا ، واخراج الكلام على هذه الوجوه (٤) اخراجا على مقتضى الظاهر (٥) .

---

(١) فاكد فى الاول بان واسمية الجملة ، وفى الثانية بالقسم وان واللام واسمية الجملة لمبالغة المخاطبين فى الانكار حيث قالوا : « ما أنتم الا بشر مثلنا وما انزل الرحمن من شىء ان انتم الا تكذبون » .

(٢) ابو العباس هو محمد بن يزيد المبرد الامام فى اللغة والنحو وصاحب الكامل توفى عام ٢٨٥ هـ . والكندى ابو يوسف يعقوب بن اسحاق فيلسوف العرب المشهور المتوفى نحو سنة ٢٥٣ هـ . وتجد الرواية كاملة فى دلائل الاعجاز ص ٢٤٢ وفى المفتاح ايضا ص ٧٤ .

(٣) أى غير مسبوق بطلب ولا بانكار .

(٤) وهى الخلو عن التاكيد فى الاول والتقوية بمؤكد استحسانا فى الثانى ووجوب التاكيد بحسب الانكار فى الثالث .

(٥) أى مقتضى ظاهر الحال وهو اخص مطلقا من مقتضى الحال ، فكل مقتضى الظاهر مقتضى الحال ، ولا عكس ، كما فى صور اخراج الكلام =

وكثيرا ما يخرج على خلافه (١) :

(١) فينزل غير السائل منزلة السائل ، اذ قدم اليه ما يلوح له بحكم الخبر ، فيستشرف له استشراف المتردد الطالب (٢) كقوله تعالى:

= على خلاف مقتضى الظاهر ، فانه يكون على مقتضى الحال ولا يكون على مقتضى الظاهر ... هذا والحال هو الأمر الداعى الى ايراد الكلام مكيفا بكيفية مخصوصة سواء كان ذلك الامر الداعى ثابتا فى الواقع او كان ثبوته بالنظر لما عند المتكلم كصور التنزيل ، اما ظاهر الحال فهو الأمر الداعى الى ايراد الكلام مكيفا بكيفية مخصوصة بشرط ان يكون ذلك الأمر الداعى ثابتا فى الواقع فلذا كان اخص من الحال مطلقا . ثم ان تلك الكيفية هى مقتضى الحال أو لظاهره ، فكل كيفية اقتضاها ظاهر الحال اقتضاها الحال دون عكس ، فعموم المقتضى يقتضى عموم المقتضى .

(١) اى على خلاف مقتضى الظاهر . هذا وذكر بعضهم ان صور التخريج من باب الكناية ، لانه ذكر اللازم — وهو مدلول الكلام المشتمل على الخصوصية وهو المقام الذى لا يناسبه بحسب الظاهر مع قرينة غير مانعة من ارادته — واستعمل اللفظ فيه وقصد منه ملزومه الذى هو تنزيل المقام الغير المناسب منزلة المناسب . وقيل انه من قبيل الاستعارة المكنية ... والحق انه لا يقال فيه شىء من ذلك ، لان الكلام هنا لم يوضع لهذه المعانى لانها معان عرضية .

هذا والصور هى :

١ — الخالى : — السائل — المنكر : بالنسبة لحال كل منهم .
٢ — العالم ينزل منزلة الخالى او السائل او المنكر .
٣ — الخالى ينزل منزلة السائل او المنكر .
٤ — السائل ينزل منزلة الخالى او المنكر .
٥ — المنكر ينزل منزلة الخالى او السائل .

فحال المخاطب بالخبر منحصر فى العلم بالحكم والخلو منه والسؤال له والانكار له . والعالم لا يخرج معه الكلام على مقتضى الظاهر .

(٢) يلوح : يشير . استشرف فلان الى الشىء اذا رفع راسه لينظر اليه وبسط كفه فوق الحاجب كالمستظل من الشمس .. هذا والنكتة فى التنزيل الذى ذكرها الخطيب هى انه قد قدم للمخاطب غير السائل ما يلوح =

« ولاتخاطبنى فى الذين ظلموا انهم مغرقون» (١) ، وقوله : « وما أبرىء نفسى ان النفس لأمارة بالسوء » ، وقول بعض العرب :

فغنها وهى لك الفداء　　ان غناء الابل الحداء (٢)

وسلوك هذه الطريقة شعبة من البلاغة فيها دقة وغموض .

روى عن الأصمعى (٣) أنه قال :

كان أبو عمرو بن العلاء (٤) وخلف الأحمر (٥) يأتيان بشارا (٦) ، فيسلمان عليه بغاية الاعظام ، ثم يقولان : يا أبا معاذ ما أحدثت ؟ فيخبرهما وينشدهما ويكتبان عنه متواضعين له حتى يأتى وقت الزوال ثم ينصرفان ، فأتياه يوما فقالا : ما هذه القصيدة التى أحدثتها فى

= له بالخبر فيتطلع له تطلع السائل المتردد . وقد يكون تنزيل غير السائل لاغراض اخرى ، كالاهتمام بشان الخبر لكونه مستبعدا والتنبيه على غفلة السامع الى غير ذلك .

(١) اى لا تدعنى يا نوح فى شان قومك واستدفاع العذاب عنهم بشفاعتك فهذا كلام يلوح بالخبر تلويحا ما ، ويشعر بانه قد حق عليهم العذاب ، فصار المقام مقام ان يتردد المخاطب فى انهم هل صاروا محكوما عليهم بالاغراق أم لا ، فقيل « انهم مغرقون » مؤكدا ، اى محكوما عليهم بالاغراق.

(٢) الضمير فى « فتغنها » للابل والحداء من حدا الابل او بها : ساقها وغنى لها .

(٣) عبد الملك بن قريب الامام فى اللغة والادب ، توفى عام ٢١٤ هـ ، ونجد الرواية فى الاغانى ص ٤٣ جـ ٣ ، وفى الدلائل ص ٢١٠ وفى المفتاح ص ٧٥ .

(٤) وفى الاغانى : خلف بن ابى عمرو بن العلاء . وابو عمرو من ائمة اللغة توفى عام ١٥٤ هـ وخلف ابنه توفى فى أواخر القرن الثانى الهجرى .

(٥) من ائمة اللغة والشعر والادب توفى عام ١٨٠ هـ .

(٦) أبو معاذ امام الشعراء المحدثين توفى عام ١٦٧ هـ .

ابن قتيبة (١) ؟ قال : هى التى بلغتكما ، قالا : بلغنا أنك أكثرت فيها من الغريب قال ، : نعم ان ابن قتيبة يتباصر بالغريب فأحببت أن أورد عليه ما لا يعرف ، قالا : فأنشدناها يا أبا معاذ فأنشدهما :

بكرا صاحبى قبل الهجير   ان ذاك النجاح فى التبكير

حتى فرغ منها ، فقال له خلف : لو قلت يا أبا معاذ مكان « ان ذاك النجاح » : بكرا فالنجاح ، كان أحسن ، فقال بشار : انما بنيتها أعرابية وحشية فقلت « ان ذاك النجاح » كما يقول الأعراب البدويون، ولو قلت (بكرا فالنجاح) كان هذا من كلام المولدين ، ولا يشبه ذلك الكلام ولا يدخل فى معنى القصيدة ، قال : فقام خلف فقبل بين عينيه .

فهل كان ما جرى بين خلف وبشار بمحضر من أبى عمرو بن العلاء — وهم من فحولة هذا الفن — الا للطف المعنى فى ذلك وخفائه ؟

٢ — وكذلك ينزل غير المنكر منزلة المنكر اذا ظهر عليه شىء من أمارات الانكار (٢) . كقوله (٣) :

---

(١) قائد من كبار القواد المشهورين فى بدء عهد الدولة العباسية .

(٢) وغير المنكر يشمل الخالى والسائل والعالم وان كان المثال من تنزيل العالم منزلة المنكر .

(٣) البيت لحجل بن نضلة . شقيق : اسم رجل . عارضا رمحه أى واضعا له على العرض بأن جعله وهو راكب على فخذيه ... فهو لا ينكر أن فى بنى عمه رماحا لكن مجيئه هكذا واضعا الرمح على العرض من غير التفات وتهيؤ امارة على انه يعتقد انه لا رماح فيهم بل كلهم عزل لا سلاح معهم فنزله منزلة المنكر فأكد له الكلام فقال : « ان بنى عمك فيهم رماح » . وفى البيت تهكم واستهزاء كأنه يرميه بالضعف والجبن وبأنه لو علم ان فيهم رماحا لما حملت يده السلاح ولفر من خوف الكفاح . فهو على طريقة قوله :

فقلت لمحرز لما التقينا   تنكب لا يقطرك الزحام =

جاء شقيق عارضا رمحه   ان بنى عمك فيهم رماح

فان مجيئه هكذا مدلا بشجاعته قد وضع رمحه عرضا لدليل على اعجاب شديد منه ، واعتقاد أنه لا يقوم اليه من بنى عمه أحد . كأنهم كلهم عزل ليس مع أحد منهم رمح .

٣ — وكذلك ينزل المنكر (١) منزلة غير المنكر اذا كان معه ما ان تأمله ارتدع عن الانكار ، كما يقال لمنكر الاسلام : الاسلام حق (٢) . وعليه قوله تعالى فى حق القرآن « لا ريب فيه (٣) » .

والتقطير : الالقاء على الارض على البطن او على احد الجانبين .. يرميه بانه لم يباشر الشدائد ولم يدفع الى مضايق الحروب ، كأنه يخاف عليه ان يداس بالقوائم كما يخاف على الصبيان والنساء لقلة غنائه .

(١) ومثله المتردد . وغير المنكر هنا وان صدق بخالى الذهن والعالم بالحكم والمتردد فيه الا ان المراد منه خصوص الاول . وقوله ما ان تأمله اى شىء من الدلائل والشواهد بحيث لو تأمل المنكر ذلك الشىء ارتدع عن انكاره، ومعنى كونه معه . ان يكون معلوما له ومشاهدا عنده كالاسلام حق لمنكر ذلك ، لان مع ذلك المنكر دلائل دالة على حقيقة الاسلام .

(٢) اسمية الجملة هنا ليست مؤكدا لانها انما تكون مؤكدا اذا اعتبر تحويلها عن الفعلية او اذا انضمت لغيرها من المؤكدات او ان اسمية الجملة ليست مؤكدة الا اذا ناسب ذلك المقام .

(٣) ظاهر هذا الكلام انه مثال لجعل المنكر كغيره وترك التأكيد لذلك، وبيانه أن معنى « لا ريب فيه » ليس القرآن بمظنة للريب ولا ينبغى أن يرتاب فيه ، وهذا الحكم مما ينكره كثير من المخاطبين ، لكن نزل انكارهم منزلة عدمه أو على الأصح نزل المنكر منزلة غير المنكر ، لما معه من الدلائل الدالة على انه ليس مما ينبغى ان يرتاب فيه ، من ظهور اعجازه وكون من اتى به صادقا مصدوقا بالمعجزات . والأحسن ان يقال انه تنظير لتنزيل وجود الشىء منزلة عدمه — لا مثال للجعل — وذلك بناء على وجود ما يزيله ، فانه نزل ريب المرتابين منزلة عدمه تعويلا على وجود ما يزيله ، حتى صح نفى الريب على سبيل الاستغراق المفهوم من وقوع النكرة فى سياق النفى المفيد للعموم الشمولى ، فالمنفى هنا هو نفس الريب على سبيل الاستغراق . وفى الاول =

ومما يتفرع على هذين الاعتبارين قوله تعالى : « ثم انكم بعد ذلك لميتون ثم انكم يوم القيامة تبعثون » . أكد اثبات الموت تأكيدين وان كان مما لا ينكر لتنزيل المخاطبين منزلة من يبالغ فى انكار الموت لتماديهم فى الغفلة والاعراض عن العمل لما بعده ، ولهذا قيل « ميتون » دون « تموتون » كما سيأتى الفرق بينهما (١) . وأكد اثبات البعث تأكيدا واحدا وان كان مما ينكر لأنه لما كانت أدلته ظاهرة كان جديرا بأن لا ينكر ، بل اما أن يعترف به أو يتردد فيه ، فينزل المخاطبون منزلة المترددين ، تنبيها لهم على ظهور أدلته ، وحثا لهم على النظر فيها ، ولهذا جاء تبعثون على الأصل .

* * *

هذا كله اعتبارات الاثبات وقس عليه اعتبارات النفى (٢) ، كقولك : ليس زيد أو ما زيد منطلقا أو بمنطلق ، ووالله ليس زيد

= ليس المنفى الريب بل كون القرآن مظنة لهخطابا لمنكرى ذلك . وهذا الوجه احسن لانه لا يحتاج الى التأويل الذى فى الوجه الأول وما لا يحتاج الى التاويل اولى مما يحتاج لتأويل .

(١) من ان الجملة الاسمية لافادة الثبوت والدوام ، والفعلية لافادة التجدد والحدوث .

(٢) اى امثلة الاعتبارات الواقعة فى الاسناد فى الكلام المنفى من التجريد عن المؤكدات فى الابتدائى وتقويته بمؤكد استحسانا فى الطلبى ووجوب التاكيد بحسب الانكار فى الانكارى . وقد ينزل غير المنكر منزلة المنكر فيؤكد معه النفى ، وينزل المنكر كغيره فيلقى اليه الكلام خلوا من التاكيد الخ .

خاتمة فى اغراض الخبر :

١ — افادة المخاطب الحكم (فائدة الخبر) .

٢ — افادة المخاطب ان المخبر عالم بالحكم (لازم الفائدة) . =

أو ما زيد منطلقا أو بمنطلق ، وما ينطلق أو ما ان ينطلق زيد ، وما كان زيد ينطلق ، وما كان زيد لينطلق ، ولا ينطلق زيد ، ولن ينطلق زيد ، ووالله ما ينطلق أو ما ان ينطلق زيد .

= ٣ — الفخر والتمدح كقول المتنبى :
انا الذى نظر الاعمى الى ادبى   واسمعت كلماتى من به صمم
٤ — اظهار الفرح كقول الشاعر :
بشرى فقد أنجز الاقبال ما وعدا
٥ — التنبيه والحث كقول الشاعر :
من راقب الناس مات غما   وفاز باللذة الجسور
٦ — الارشاد والوعظ كقول لبيد :
الا كل شيء ما خلا الله باطل   وكلّ نعيم لا محالة زائل
٧ — اظهار الضعف : « انى وهن العظم منى » .
٨ — التحسر على الفائت كقول الشاعر :
ذهب الصبا وتولت الايام
٩ — التحذير كقولك : « مصير البخيل الهم والاملاق » .
١٠ — التذكير بالتفاوت :
وما يستوى من عاش المجد سعيه   ومن عاش فى دنياه عيش البهائم
١١ — الاستعطاف :
فان اك مظلوما فعبد ظلمته   وان تك ذا عتبى فمثلك يعتب
١٢ — التوبيخ :
ذل من يغبط الذليل بعيش   رب عيش اخفّ منه الحمام

شواهد لمعرفة اغراض الخبر فيها ومقاصده :

قال ابراهيم بن المهدى :

اتيت جرما شنيعا   وانت للعفو اهل =

وقال ابو فراس :

ومكارمى عدد النجوم ومنزلى   ماوى الكرام وموئل الأضياف

ولمروان بن ابى حفصة يرثى معن بن زائدة :

مضى لسبيله معن وابقى   مكارم لن تبيد ولن تنالا

وقال ابو نواس :

ذهبت جدتى بطاعة نفسى   وتذكرت طاعة الله نضوا

المتنبى :

انى اصاحب حلمى وهو بى كرم   ولا اصاحب حلمى وهو بى جبن

وقال :

اقمت بارض مصر فلا ورائى   تخب بى الركاب ولا امامى

وقال الشاعر :

قومى هم قتلوا — اميم — اخى   فاذا رميت يصيبنى سهمى

وقال الشاعر:

ذهب الشباب فما له من عودة   واتى المشيب فاين منه المهرب ؟

وقال :

ظمئت وفى فمى الأدب المصفى   وضعت وفى يدى الكنز الثمين

وقال المتنبى :

ذل من يغبط الذليل بعيش   رب عيش اخف منه الحمام

شواهد على اضرب الخبر وادوات التاكيد :

قال ابوالطيب :

على قدر اهل العزم تاتى العزائم   وتاتى على قدر الكرام المكارم

وقال النابغة :

ولست بمستبق اخا لا تلمه   على شعث ، اى الرجال المهذب ؟!

. . . .

= وقال ابو العتاهية :

انى رايت عواقب الدنيــا   فتركت ما اهوى لمــا اخشى

ابو نواس :

ولقد نهزت مع الغواة بدلوهم   واسمت سرح اللحظ حيث اساموا

وبلغت ما بلغ امرؤ بشبابه   فاذا عصارة كل ذاك اثام

المعـــــرى :

ان الذى الوحشـة فى داره   تؤنســـه الرحمة فى لحده

شـــاعر :

وليس اخى من ودنى راى عينه   ولكن اخى من ودنى وهو غائب

شواهد لخروج الخبر عن مقتضى الظاهر :

قال تعالى : وصل عليهم ان صلاتك سكن لهم . وقال : قل هو الله احد ، الله الصمد .. وقال ابو العتاهية :

إن الشباب والفراغ والجدة   مفســـدة للمرء اى مفســـدة

وقال ابو الطيب :

ترفق ايهـــا المولى عليهم   فان الرفق بالجـــانى عتاب

وتقول لمن ينكر فائدة التعليم : التعليم ينهض بالامة ويرقى بالشعب .

الحقيقة العقلية والمجاز العقلى :

فصـــــــل

قال الخطيب :

الاسناد : منه حقيقة عقلية ، ومنه مجاز عقلى .

أما الحقيقة فهى اسناد (١) الفعل أو معناه الى ما هو له عنـــد المتكلم فى الظاهر .

---

(١) معناه اى معنى الفعل يشـــمل المصدر واسمى الفاعل والمفعول والصفة المشبهة واسم التفضيل والظرف . وامثلة المبالغة تدخل فى اســـم الفاعل ، والجار والمجرور يدخل فى الظرف . ويدخل اسم الفعل والمنسوب اليه نحو اتيمى ابوك ؟ .

وقولنا « الى ما هو له » اى الى لفظ يكون الفعل او ما فى معناه له ، اى لمعنى ذلك اللفظ : اى مدلول الفعل ومدلول اللفظ الدال عليه معنى الفعل ثابت لمدلول ذلك اللفظ .

معنى ذلك ان الحقيقة هى اسناد لفظ اى لفظ دل على معنى الفعل الى لفظ له ، فاذا قلنـــا « ضرب زيد » فقد اسندنا الى الفاعل لفظ الفعـــل وهو ضرب الدال على المعنى الذى هو وصف الفاعل فيكون حقيقة ، وكذا اذا قلنـــا « ضرب عمرو » فقد اسندنا الى المفعول وهو « عمرو » لفظ الفعل الذى هو « ضرب » الدال على وصف المفعول فيكون حقيقة . فالشىء المسند اليه الذى ثبت له الفعل او معناه منحصر فى الفاعل فيما بنى للفاعل ، والمفعول به فى فعل بنى للمفعول ، فان الضاربية لزيد ثابتة له والمضروبية ثابتة لعمرو ، بخلاف « نهاره صائم » فان الصوم ليس ثابتا للنهار بل للشخص ، فلذا كان الاسناد فيه مجازا ، لكونه لغير من هو له .

ولا يدخل هنا المبتدا عند المصنف ، نحو انما هى اقبال ، لأن الاسناد اليه عنده واسطة بين الحقيقة والمجاز ، أما عند عبد القاهر والسكاكى =

والمراد بمعنى الفعل نحو المصدر واسم الفاعل . وقولنا « فى الظاهر » ليشمل ما لايطابق اعتقاده مما يطابق الواقع وما لايطابقه.

فهى أربعة أضرب :

أحدهما ما يطابق الواقع واعتقاده ، كقول المؤمن : « أنبت الله البقل » و « شفى الله المريض » .

والثانى ما يطابق الواقع دون اعتقاده ، كقول المعتزلى لمن لا يعرف حاله وهو يخفيها منه : « خالق الأفعال كلها هو الله تعالى » .

= فالمبتدا كالفاعل والمفعول فيما اسند اليه . فالاسناد فى « زيد قائم » ليس حقيقة ولا مجازا عند الخطيب ، وكذلك فيما كان الخبر فيه جامدا مثل « هذا معدن » ، وأما اسناد « قائم » الى ضمير زيد فهو حقيقة .

ثم المراد بكون المسند للمسند اليه كونه وصفا له وحقه أن ينسب اليه بالاتصاف . فمتى كونه له ان معناه قائم به وهو متصف به ومنتسب اليه. وقوله الى ما هو له يشمل ما هو له فى الواقع والاعتقاد معا أو فى الواقع فقط.

وقوله « عند المتكلم » اى لما هو له عند المتكلم لا فى الواقع ونفس الأمر .. وبهذا دخل فى تعريف الحقيقة : ما طابق الاعتقاد دون الواقع كقول الجاهل « انبت الربيع البقل » .

وقوله فى « الظاهر » وعند المتكلم متعلقان بقوله « له » . وفى الظاهر — اى فى ظاهر حال المتكلم — يدخل ما لا يطابق الاعتقاد سواء طابق الواقع ام لا.

وبهذا صار التعريف متناولا لاربعة اقسام : ما يطابق الواقع والاعتقاد، وما لا يطابق شيئا منهما ، وما طابق الواقع دون الاعتقاد ، وما طابق الاعتقاد دون الواقع .. ولم يخرج عن التعريف الا ما فيه اسناد لغير ما هو له عند المتكلم بحسب الظاهر . فالحقيقة العقلية اربعة اقسام كما ترى وكما سيذكر الخطيب ... والمعنى ان الحقيقة هى اسناد الفعل او معناه الى ما يكون هو له عند المتكلم فيما يفهم من ظاهر حاله ، وذلك الفهم بالا ينصب قرينة دالة على انه غير ما هو له فى اعتقاده .

والثالث ما يطابق اعتقاده دون الواقع ، كقول الجاهل : « شفى الطبيب المريض » معتقدا شفاء المريض من الطبيب ، ومنه قوله تعالى حكاية عن بعض الكفار : « وما يهلكنا الا الدهر » . ولا يجوز أن يكون مجازا . والانكار عليهم من جهة ظاهر اللفظ لما فيه من ايهام الخطأ ، بدليل قوله تعالى عقبيه : « وما لهم بذلك من علم ان هم الا يظنون » ، والمتجوز المخطىء فى العبارة لا يوصف بالظن ، وانما الظان من يعتقد أن الأمر على ما قاله .

والرابع ما لا يطابق شيئا منهما ، كالأقوال الكاذبة التى يكون القائل عالما بحالها دون المخاطب .

وأما المجاز (١) فهو اسناد الفعل أو معناه الى ملابس (٢) له غير

---

(١) المجاز اصله مجوز من جاز المكان تعداه لأن الاسناد تعدى مكانه الاصلى ... وعقلى نسبة للعقل ، لان التجوز والتصرف فيه فى امر معقول يدرك بالعقل وهو الاسناد ، بخلاف المجاز اللغوى فان التصرف فيه فى أمر نقلى ، وهو ان اللفظ لم يوضع لهذا المعنى ...

ويسمى مجازا حكميا أى منسوبا للحكم بمعنى الادراك ، او انه نسبة للحكم بمعنى النسبة والاسناد لتعلقه بها . والمراد بالحكم المنسوب اليه والمتعلق به مطلق نسبة سواء كانت اسنادية أو اضافية أو ايقاعية ، وحينئذ فهو من نسبة الخاص للعام أو من تعلق الخاص بالعام ، فالمجاز كما يكون فى الحكم وهو النسبة التامة ، يكون فى النسبة الاضافية كمكر الليل ، والايقاعية كنومت الليل اى اوقعت النوم عليه ... فالمراد بالحكم الذى تعلق به المجاز ليس خصوص النسبة التامة ، بل مطلق نسبة . فالمجاز اذا كان فى الاضافية او الايقاعية يصدق عليه أنه متعلق بالحكم بمعنى مطلق نسبة من تعلق الخاص بالعام .

ويسمى ايضا مجازا فى الاثبات لحصوله فى اثبات احد الطرفين للآخر ، والتقييد بالاثبات لأشرفيته ، فمثل « فما ربحت تجارتهم » : جعل من قبيل المجاز لكون اسناد الربح الى التجارة اسنادا الى غير ما هو له ، أو ان ما ربحت تجارتهم بمعنى خسرت ، فالمجاز العقلى كما يكون فى الاسناد المثبت =

* * * * * * * * * * * * * *

=

يكون في المنفى ايضا .. ويسمى ايضا اسناد مجازيا نسبة الى المجاز بمعنى المصدر ، لأن الاسناد جاوز به المتكلم حقيقته واصله الى غير ذلك . فان قيل: المجاز العقلى لا يختص بالاسناد اى النسب التامة ، بل يجرى فى الاضافية والايقاعية ، واقتصارهم على الاســناد يوجب الاختصـاص ، اجيب بأن اقتصارهم فى التسمية على الاسـناد لأشرفيته او أن المراد بالاسناد مطلق النسبة من اطلاق الخاص وارادة العام .

(٢) أى الى شيء بينه وبين الفعل او معناه ملابسة وارتباط وتعلق ، فالضمير فى قوله « له » راجع « للفعل او معناه » — « وغير ما هو له » اى غير الملابس الذى هو أى الفعل او معناه له اى لذلك الملابس ، يعنى غير الفاعل الحقيقى فى المبنى للفاعل ، وغير المفعول به فى المبنى للمفعول به .

وفى تعريف المجاز العقلى اشارة الى انه لا بد فيه من علاقة (ويدل على ذلك قولنـا الى ملابس له) وقرينة (ويدل عليها قولنا بتأول) .

وقصارى القول : ان المجاز العقلى هو « اسناد الفعل اومعناه الىغير ما هو له عند المتكلم فى الظاهر لعلاقة مع قرينة صارفة عن أن يكون الاسـناد الى ما هو له » .

علاقة المجاز العقلى :

المجاز العقلى لابد له من علاقة كما ان اللغوى كذلك . وظـاهر كلام المصنف أن العلاقة المعتبرة هنا هى الملابسة فقط ، وانه لا بد منها فى كل مجاز عقلى ، قال الشيخ يسن : لكن يبقى هناك شيء ، وهو انه هل يكفى فى جميع افراد هذا المجاز كون العلاقة الملابسة ، او لابد أن تبين جهتها ، بأن يقال العلاقة هى ملابسة الفعل لذلك الفاعل المجازى من جهة وقوعه عليه او فيه أو به ، كما قالوا فى المجاز اللغوى : انه لا يكفى أن يجعل اللزوم أو التعلق هو العلاقة بل فرد منها ، لأن ذلك قدر مشترك بين جميع افراده ، فلا بد أن يبين انه من أى وجه ؟ !

والمعتبر عند الزمخشرى تلبس ما اسند اليه الفعل بفاعله الحقيقى ، لأنه قال : المجاز العقلى هو أن يسند الفعل الى شيء يتلبس بالذى هـو فى الحقيقة له ، كتلبس التجارة بالمشترين فى « فما ربحت تجارتهم » .. وقال الزمخشرى قبل هذا الكلام : « وقد يسند الى هذه الأشياء على طريق المجاز

=

* * * * * * * * * * * * * * *

=

المسمى استعارة ، وذلك لمضاهاتها الفاعل فى ملابسة الفعل ، كما يضاهى الرجل الاسد فى جراته فيستعار له اسمه . . . وهذا هورأى السكاكى ايضا. فالملابسة فى المجاز العقلى عنده هى بين الفاعل الحقيقى والفاعل المجازى . وفى كلام عبد القاهر اشارة الى ذلك ايضا (٣٣١ اسرار) ، فالربيع عنده قد شبه بالقادر فى تعلق وجود الاثبات به ، فذلك عنده على العرف الجارى بين الناس ، من أن يجعلوا الشىء اذا كان سببا او كالسبب فى وجود الفعل كأنه فاعل .

فالحاصل ان العلاقة ليست هى الملابسة والتعلق والارتباط بين الفعل والمسند اليه المجازى كما هوظاهر كلام المصنف ، وكما هو المتبادر من التعريف من قوله « وله — اى للفعل — ملابسات شتى » ، بل هى المشابهة بين المسند اليه الحقيقى والمسند اليه المجازى فى الملابسة اى فى تعلق الفعل بكل منهما وان كانت جهة التعلق مختلفة ، فالمسند اليه المجازى فى « جرى النهر مثلا » وهو النهر يشابه ما هو له ، اى يشابه المسند اليه الحقيقى ، فالماء فى قولك جرى الماء ، فى ملابسة الفعل وهو الجرى ، فالجرى يلابس الماء من جهة ذهابه به ، ويلابس النهر من جهة كونه واقعا فيه .

والعلاقة المعتبرة فى هذا المجاز هى المشابهة بين المسند اليه الحقيقى والمسند اليه المجازى فى تعلق الفعل بكل فى صحة اسناده لذلك المجازى ، والعلاقة فى الاستعارة المشابهة بين المعنى المجازى والمعنى الحقيقى لاجل صحة نقل اللفظ من المعنى الحقيقى للمعنى المجازى .

فالعلاقة هى فى المجاز العقلى على التحقيق المشابهة بين الفاعلين : المجازى والحقيقى ، لا الملابسة بين الفعل والمسند اليه المجازى وان كان ذلك كافيا فى اسناد الفعل اليه .. لان ملاحظة المشابهة بين الفاعلين اتم وادخل فى صرف الاسناد الى غير ما هو له ، وان كفى فيه مجرد الملابسة المذكورة .

وانواع العلاقة فى المجاز العقلى هى :

١ — المفعولية : فيما بنى للفاعل واسند الى المفعول به الحقيقى كقولهم ، « عيشة راضية » اذ هى مرضية ، فالاسناد فى المثال مجازى ، واصله رضى المؤمن عيشته ، فاقيمت عيشة مقام المؤمن فى تعلق الفعل وهو الرضى بكل ، فصار رضيت عيشته ، فاشتق منه اسم الفاعل واسند الى =

* * * * * * * * * * * * * *

=
ضمير المفعول وهو عيشة بعد تقديمه وجعله مبتدأ ، ثم حذف المضاف اليه اكتفاء بالمبتدأ فى مثل « عيشة زيد راضية » ... وقال العدوى : اصله : عيشة رضيها صاحبها» فالرضا كان بحسب الأصل مسندا للفاعل الحقيقى (الصاحب) ثم حذف الفاعل وأسند الرضا الى ضمير العيشة ، وقيل عيشة رضيت ، لما بين الصاحب والعيشة من المشابهة فى تعلق الرضا بكل ، وان اختلفت جهة التعلق ، فصار ضمير العيشة فاعلا نحويا حقيقيا ، ثم اشتق من رضيت راضية ، واسند الى المفعول ... ومذهب الخليل والبصريين انه لا مجاز فى هذا التركيب ، بل الراضية بمعنى ذات رضا حتى تكون بمعنى مرضية ، فهو نظير لابن وتامر ، قال الفنرى ونقله عنه الدسوقى : وهو مشكل بدخول التاء لان هذا البناء يستوى فيه المذكر والمؤنث ، ويمكن الجواب بجواز جعلها للمبالغة لا للتانيث كعلامة ... وقيل راضية بمعنى كاملة .. والشاهد فى « عيشة راضية » اسناد راضية للضمير المستتر الذى هو للعيشة ، وليس الشاهد فى اسناد راضية للعيشة ، لان الاسناد الى المبتدأ عند المصنف واسطة بين الحقيقة والمجاز ، وكذا يقال فيما بعد هذا المثال من الامثلة الآتية

٢ — الفاعلية : فيما بنى للمفعول واسند للفاعل الحقيقى ، كسيل مفعم ، لان السيل هو الذى يفعم اى يملأ ، فاصله افعم السيل الوادى اى ملأه ثم بنى افعم للمفعول واشتق منه اسم المفعول واسند لضمير الفاعل الحقيقى وهو السيل بعد تقديمه وجعله مبتدأ .

٣ — المصدر فيما بنى للفاعل واسند للمصدر مجازا ، مثل شعر شاعر ، فقد اسند ما هو بمعنى الفعل (وهو شاعر) الى ضمير المصدر ، وحقه ان يسند للفاعل (اى الشخص) لان الفاعل الحقيقى ، بحيث يقال شعر شاعر صاحبه ، لكن لما كان الشعر شبيها بالفعل من جهة تعلق الفعل بكل منهما صح الاسناد اليه مجازا ، والاولى ان يمثل بنحو جد جده لان الجد مصدرا اسند اليه فعل الفاعل ، فحق الجد ان يسند للفاعل الحقيقى وهو الشخص لا الى الجد نفسه الذى اسند اليه لمشابهته له فى تعلق الفعل بكل منهما . وانما كان ذلك اولى لان الشعر الذى هو مصدق الضمير فى شاعر يحتمل ان يكون بمعنى المفعول اى المشعور به لا المصدر الذى هو نفس الشعر فيكون من باب عيشة راضية ، اى يكون من باب ما بنى للفاعل
=

ما هو بتأول وللفعل ملابسات شتى (١) :

يلابس الفاعل والمفعول به والمصدر والزمان والمكان والسبب . فاسناده الى الفاعل اذا كان مبنيا له حقيقة كما مر ، وكذا الى المفعول

= واسند للمفعول لا من باب ما بنى للفاعل واسند للمصدر الذى كلامنا فيه ، بخلاف « جد جده » فانه من ذلك القبيل . وانما قلنـا الاولى ولم نقـل الصواب ، لان الشـعر يحتمل ان يكون باقيا على مصدريته بمعنى تاليف الكلام فيكون من ذلك القبيل .. فالحاصل ان « جد جده » من باب ما بنى للفاعل واسند للمصدر قطعا ، واما « شعر شاعر » فيحتمل ان يكون منه او من باب « عيشة راضية » . وما لا احتمال فيه اولى مما فيه احتمال .

٤ — الزمانية فيما بنى للفاعل واسند للزمان لمشابهته الفاعل الحقيقى فى ملابسة الفعل لكل منهما مثل نهاره صائم .

٥ — المكانية : فيما بنى للفاعل واسـند للمكان لمشابهته الفـاعل الحقيقى فى ملابسـة الفعل لكل منهما مثل نهر جار ، لان المـاء هو الجارى فى النهر — اى الحفرة التى يكون المـاء فيها — .

٦ — السببية فيما بنى للفاعل واسند للسبب مجازا ، مثل بنى الامير المدينة فى السبب الآمر ، لان السبب نوعان : سـبب آمر وسبب غائى او مآلى ، قال ابن يعقوب : السبب المـآلى يسند اليه ايضا مجازا مثل يوم يقوم الحساب ، فالقيام فى الحقيقة لاهل الحسـاب لا لاجله ، فكان الحساب علة غائية .

هذه هى علاقات المجاز العقلى ، وذكر ابن السبكى ان جميع علاقات المجاز اللفظى ينبغى ان تاتى فى العقلى .

(١) لمـا ذكر فى تعريف الحقيقـة العقلية « الملابس الذى له » ، وفى تعريف المجاز العقلى « الملابس الذى ليس هو له » ، اخذ يبين التعريفين ببيان الملابس ، فقال « وللفعل ملابسات شتى » ... ويصح فتح « باء الملابسة » وكسرها ، لان الملابسـة مفاعلة من الجانبين ، فكل واحد من الفعل وما اسند اليه ملابس (بكسر الباء) وملابس (بفتحها) . الا ان المناسـب لقوله « يلابس الفاعل » ان يقرا بالفتح ... وقول الخطيب : « وللفعل ملابسات شتى ... الخ » هو نص كلام الزمخشرى فى تفسير قوله تعالى « ختم الله على قلوبهم » ؛ ومأخوذ منه .

اذا كان مبنيا له ، وقولنا « ما هو له » يشملهما . واسناده الى غيرهما لمضاهاته لمـا هو له فى ملابسة الفعل مجاز . كقولهم فى المفعول به : « عيشة راضية » و « ماء دافق » ، وفى عكسه « سيل مفعم » وفى المصدر « شعر شاعر(١) » ، وفى الزمان « نهاره صائم » و « ليله قائم » ، وفى المكان « طريق سائر » و « نهر جار » ، وفى السبب «بنى الأمير المدينة»، وقال :

(فلا تسـألينى واسـألى عن خليقتى)
اذا رد عاق القـدر من يسـتعيرها (٢)

وقولنا بتأول يخرج نحو قول الجاهل : شفى الطبيب المريض ، فان اسناده الشفاء الى الطبيب ليس بتأول . ولهذا لم يحمل نحو قول الشاعر الحماسى (٣)

---

(١) وجد جده . قال تابط شرا .

اذا المرا لم يحتل وقد جد جده   أضـاع وقاسى أمره وهو مدبر

(٢) البيت لعبيد بن الابرص . وفى السبكى انه لعوف بن الاحوص . وهو من قصيدة رواها صاحب المفضليات لعوف . ونسبه اللسان للمضرس الاسدى .. وعاق فاعل ، والقدر مضاف اليه ، ومن اسم موصول مفعول. وعاق القـدر : المرق الذى يتـأخر فيها ، وبقاؤه فيها سـبب فى رد من يستعيرها ، فاستد بذلك الرد اليه من اسناد الفعل الى سببه .

(٣) هو الصلتان العبدى ، وبعد البيت قرينة تدل على المجاز وارادته وهو قول الشاعر :

فملتنـا أننـا مسـلمون   على دين صـديقنا والنبى

فليس هناك فرق بين البيت وكلام ابى النجم الآتى :

ومثال البيت فى ذلك قول اسقف نجران :

منع البقاء تصرف الشمس   وطلوعهـا من حيث لا تمسى

وحاصل الكلام انه لابد فى المجاز العقلى من التاول الذى حاصله نصب القرينة الصارفة عن أن يكون الاسناد الى ما هو له .

أشاب الصغير وأفنى الكبير   ير كر الغداة ومر العشى

على المجاز ما لم يعلم أو يظن أن قائلة لم يرد ظاهره .. كما استدل على أن اسناد (ميز) الى (جذب الليالى) فى قول أبى النجم :

قد أصبحت (أم الخيار) تدعى
على ذنبا كله لم أصنع
من أن رأت رأسي كرأس الأصلع
ميز عنه قنزعا عن قنزع
جذب الليالى أبطئى أو أسرعى (١)

مجاز بقوله عقيبه :

أفناه قيل الله للشمس اطلعى
حتى اذا واراك أفق فارجعى

* * *

وسمى الاسناد فى هذين القسمين من الكلام عقليا لاستناده الى العقل دون الوضع ، لأن اسناد الكلمة الى الكلمة شيء يحصل بقصد المتكلم دون واضع اللغة ، فلا يصير ضرب خبرا عن زيد بواضع اللغة بل بمن قصد اثبات الضرب فعلا له ، وانما الذى يعود الى واضع اللغة : أن ضرب لاثبات الضرب لا لاثبات الخروج ، وأنه لاثباته فى زمان ماض وليس لاثباته فى زمان مستقل ، فاماتعيين من ثبت له فانما يتعلق بمن أراد ذلك من المخبرين .. ولو كان لغويا لكان حكمنا بأنه مجاز فى مثل

---

(١) الجذب : الشد . القنزع : الشعر المجتمع فى نواحى الراس . عن بمعنى بعد . « ابطئى أو اسرعى » جملتان واقعتان حالا من الليالى بتقدير القول اى مقولا فيها ذلك .

قولنا « خط أحسن مما وشى الربيع » من جهة أن الفعل لا يصح الا من الحى القادر حكما بأن اللغة هى التى أوجبت أن يختص الفعل بالحى القادر دون الجماد ، وذلك مما لا يشك فى بطلانه .

* * *

تعريف السكاكى للحقيقة والمجاز العقليين :

وقال السكاكى :

الحقيقة العقلية : هى الكلام المفاد به ما عند المتكلم من الحكم فيه (١) .

وانما قلت « ما عند المتكلم » ، دون أن أقول « ما عند العقل » ليتناول كلام الجاهل اذا قال « شفى الطبيب المريض » ، رائيا شفاء المريض من الطبيب ، حيث عد منه حقيقة مع أنه غير مفيد لما فى العقل من الحكم فيه .. وفيه . نظر (٢) :

١ — لأنه غير مطرد (٣) ، لصدقه على ما لم يكن المسند فيه فعلا

---

(١) هو لا يخرج عن كلام عبد القاهر فى الحقيقة العقلية : « كل جملة وضعتها على ان الحكم المفاد به على ما هو عليه فى العقل وواقع موقعه فهى حقيقة .

(٢) اى فى تعريف السكاكى للحقيقة العقلية .

(٣) التعريف المطرد اى المانع بمعنى انه كلما صدق التعريف صدق المعرف فهو مانع من دخول غير افراد المعرف فيه .

والتعريف المنعكس اى الجامع بمعنى انه كلما انتفى التعريف انتفى المعرف فهو جامع لافراد المعرف ، ومثال عدم الجمع تعريف الحيوان بانه جسم مفكر ، ومثال عدم المنع تعريفه بأنه جسم نام .

وسبب عدم الجمع كون التعريف اخص من المعرف كالمثال ، اومباينله، كتعريف الانسان بالملك .. وسبب عدم المنع هو كون التعريف أعم من المعرف مطلقا ، فان كان اعم من وجه كان فى التعريف عدم الجمع والمنع .

ولا متصـــلا به ، كقولنا : الانسان حيوان ، مع أنه لا يسمى حقيقة ولا مجازا •

٢ — ولا منعكس ، لخروج ما يطابق الواقع دون اعتقاد المتكلم وما لا يطابق شيئا منهما منه ، مع كونهما حقيقتين عقليتين كما سبق •

وقال (السكاكى) :

المجاز العقلى هو الكلام المفاد به خلاف ما عند المتكلم من الحكم فيه لضرب من التأويل ، افادة للخلاف لا بوساطة وضع ، كقولك : أنبت الربيع البقل ، وشفى الطبيب المريض ، وكسا الخليفة الكعبة •

قال (السكاكى) : وانما قلت « خلاف ما عند المتكلم من الحكم فيه » • دون أن أقول خلاف ما عند العقل :

١ — لئلا يمتنع طرده بمـــااذا قال الدهرى عن اعتقاد جهــل ، أو جاهل غيره : أنبت الربيع البقــل ، رائيا انبــاته من الربيع ، فانه لا يسمى كلامه ذلك مجازا ، وان كان بخلاف العقل فى نفس الأمر ، واحتج (السكاكى) ببيت الحماسة وقول أبى النجم على ما تقدم •

٢ — ثم قال السكاكى : ولئلا يمتنع عكسه بمثل : كسا الخليفة الكعبة وهزم الأمير الجند ، فليس فى العقل امتناع أن يكسو الخليفة نفســه الكعبة ولا أن يهزم الأمير وحده الجند ، ولا يقدح ذلك فى كونهما من المجاز العقلى •

وانمـــا قلت « لضرب من التأول » ليحترز به عن الكذب فانه لا يسمى مجازا مع كونه كلاما مفيدا خلاف ما عند المتكلم •

وانما قلت « افادة للخلاف لا بوســـاطة وضع » ليحترز به عن المجاز اللغوى فى صـــورة ، وهى اذا ادعى أن « أنبت » موضـــوع لاستعماله فى القادر المختار أو وضع لذلك •

وفيــه نظر (¹) :

١ — لأنا لا نسلم بطلان طرده بما ذكر ، لخروجه بقوله : لضرب من التأول .

٢ — ولا بطلان عكسه بما ذكر ، اذ المراد بخلاف ما عند العقــل خلاف ما فى نفس الأمر ، وفى كلام الشيخ عبد القاهر اشارة الى ذلك ، حيث عرف الحقيقة العقلية بقوله : « كل جملة وضعتها على أن الحكم المفاد بها على ما هو عليه فى العقل وواقع موقعه » فان قوله « واقع موقعــه » معناه فى نفس الأمر وهــو بيان لمـا قبله ، وكذا فى كلام الزمخشرى ، حيث عرف المجاز العقلى بقوله : « أن يسند الفعل الى شىء يلتبس بالذى هو فى الحقيقة له » ، فان قوله فى الحقيقة معناه فى نفس الأمر . ونحو كســا الخليفة الكعبة اذا كان الاســناد فيه مجازاً كذلك .

٣ — ثم القول بأن الفعل موضوع لاستعماله فى القادر ضعيف ، وهو معترف بضعفه ، وقد رده فى كتابه بوجوه ، منها : أن وضع الفعل لاستعماله فى القادر قيد لم ينقل عن واحد من رواة اللغة وترك القيد دليل فى العرف على الاطلاق فقوله : « افادة للخلاف لا بوساطة وضع » لا حاجة اليه ، وان ذكر فينبغى أن لا يذكر الا بعــد ذكر الحد على المذهب المختار ، على أن تمثيله بقول الجاهل « أنبت الربيع البقل » ينافى هذا الاحتراز .

تنبيــه :

قــد تبين بما ذكرنا أن المسمى بالحقيقة العقلية والمجاز العقلى على ما ذكره السكاكى هو الكلام لا الاسناد ، وهــذا يوافق

---

(١) اى فى تعريف السكاكى للمجاز العقلى .

ظاهر كلام الشيخ عبد القاهر فى مواضـــع من دلائل الاعجاز ، وعلى ما ذكرناه هو الاسناد لا الكلام ، وهذا ظاهر ما نقله الشيخ أبو عمرو ابن الحاجب (١) رحمـــه الله عن الشيخ عبـــد القاهر (٢) ، وهو قول الزمخشرى فى الكشاف ، وقول غيره ، وانما اخترناه لأن نسبة المسمى حقيقة أو مجازا الى العقل على هذا لنفســـه بلا وساطة شىء ، وعلى الأول لاشتماله على ما ينتسب الى العقل ، أعنى الاسناد .

اقسام المجاز العقلى باعتبار طرفيه : حقيقيتهما ومجازيتهما أو أحدهما :

قال الخطيب :

ثم المجاز العقلى باعتبار طرفيه — أعنى المسند والمسند اليه — أربعة أقسام لا غير ، لأنهما اما :

١ — حقيقتان ، كقولنا أنبت الربيع البقل ، وعليه قوله :

فنـــام ليـــلى وتجـــلى همى

وقـــوله :

وشـــــيب أيام الفـــراق مفـــــارق
(وأنشـــــزن نفسى فوق حيث تكون)

وقـــوله :

(لقد لمتنا يا أم غيلان فى السرى) ونمت وما ليـــل المطى بنائم (٣)

---

(١) امام فى اللغة والنحو توفى عام ٦٤٦ هـ .
(٢) وهو ظاهر كلام عبد القاهر فى الأسرار والدلائل كما فهمته انا .
(٣) لجرير ومثل البيت قول النعمان بن بشير : =

٢ — واما مجازان كقولنا « أحيا الأرض شباب الزمان » .

٣ — واما مختلفان ، كقولنا : « أنبت البقل شباب الزمان » ، وكقولنا : « أحيا الأرض الربيع » ، وعليه قول الرجل لصاحبه : « أحيتنى رؤيتك » ، أى آنستنى وسرتنى ، فقد جعل الحاصل بالرؤية من الأنس والمسرة حياة ثم جعل الرؤية فاعلة له ، ومثله قول أبى الطيب :

وتحيى له المال الصوارم والقنا ۝ ويقتل ما تحيى التبسم والجد (١)

جعل الزيادة والوفور حياة للمال ، وتفريقه فى العطاء قتلا له ، ثم أثبت الاحياء فعلا للصوارم ، والقتل فعلا للتبسم ، مع أن الفعل لا يصح منهما . ونحو قولهم : « أهلك الناس الدينار والدرهم » : جعلت الفتنة اهلاكا ، ثم أثبت الاهلاك فعلا للدينار والدرهم .

* * *

وهو فى القرآن كثير (٢) .

كقوله تعالى : « واذا تليت عليهم آياته زادتهم ايمانا » ، تسبت

= الم تبتدركم يوم بدر سيوفنا ۝ وليلك عما ناب قومك نائم

وقول عمرو بن براق :

فلا تأمنن الدهر حرا ظلمته ۝ فما ليل مظلوم كريم بنائم

ومثله فى المجاز قول الشاعر :

نهارى باشرف التلاع موكل ۝ وليلى — اذا ما جننى الليل — آرق

(١) الجدا : العطاء . وراجع تعليق عبد القاهر على البيت فى الأسرار ص ٣٢١ وقد نقل منه الخطيب .

(٢) رد به على مذهب الظاهرية الزاعمين عدم وقوع المجاز العقلى كاللغوى فى القرآن لايهام المجاز الكذب والقرآن منزه عنه . ووجه الرد انه لا ايهام مع القرينة .

الزيادة التى هى فعل الله الى الآيات لكونها سببا فيها • وكذا قوله تعالى : « وذلكم ظنكم الذى ظننتم بربكم أرداكم » • ومن هذا الضرب قوله : « يذبح أبناءهم » ، الفاعل غيره ونسب الفعل اليه لكونه الآمر به • وكقوله : « ينزع عنهما لباسهما » ، نسب النزع الذى هو فعل الله تعالى الى ابليس ، لأن سببه أكل الشجرة ، وسبب أكلها وسوسته ومقاسمته اياها : انه لهما لمن الناصحين • وكذا قوله : « ألم تر الى الذين بدلوا نعمة الله كفرا وأحلوا قومهم دار البوار » ، نسب الاحلال الذى هو فعل الله الى أكابرهم ، لأن سببه كفرهم وسبب كفرهم أمر أكابرهم اياهم بالكفر • وكقوله تعالى : « يوما يجعل الولدان شيبا » ، نسب الفعل الى الظرف لوقوعه فيه ، كقولهم : « نهاره صائم » • وكقوله تعالى : « وأخرجت الأرض أثقالها » •

* * *

وهو غير مختص بالخبر ، بل يجرى فى الانشاء ، كقوله تعالى : « يا هامان ابن لى صرحا » ، وقوله : « فأوقد لى يا هامان على الطين فاجعل لى صرحا » ، وقوله : « ولا يخرجنكما من الجنة فتشقى » •

* * *

أنواع القرينــة :

(قال الخطيب) :

ولا بد له — أى للمجاز العقلى — من قرينة :

(ا) اما لفظية كما سبق فى قول أبى النجم [1] •

---

(1) « افناه قيل الله للشمس اطلعى » الخ •

(ب) أو غير لفظية (أى معنوية) :

كاستحالة صدور المسند من المسند اليه المذكور أو قيامه به : عقلا كقولك محبتك جاءت بى اليك ، أو عادة كقولك هزم الأمير الجند وكسا الخليفة الكعبة وبنى الوزير القصر ، (لاستحالة ذلك فى العادة). وكصدور الكلام من الموحد فى مثل قوله : « أشاب الصغير» ، البيت[1].

* * *

واعلم أنه ليس كل شىء يصلح لأن تتعاطى فيه المجاز بسهولة بل تجدك فى كثير من الأمر تحتاج الى أن تهيىء الشىء وتصلحه له بشىء تتوخاه فى النظم ، كقول من يصف جملا :

تجوب له الظلماء عين كأنها زجاجة شرب غير ملأى ولا صفر

يريد أنه يهتدى بنور عينه فى الظلماء ويمكنه بها أن يخرقها ويمضى فيها ، ولولاها لكانت الظلماء كالسد الذى لا يجد السائر شيئا يفرجه به ويجعل لنفسه فيه سبيلا ، فلولا أنه قال : تجوب له ، فعلق له بتجوب لما تبين جهة التجوز فى جعل الجوب فعلا للعين كما ينبغى ، لأنه لم يكن حينئذ فى الكلام دليل على أن اهتداء صاحبها فى الظلماء ومضيه فيها بنورها ، وكذلك لو قال تجوب له الظلماء عينه لم يكن له هذا الموقع ولانقطع السلك من حيث كان يعييه حينئذ أن يصف العين بما وصفها به.

---

(١) القرينة اما لفظية او غير لفظية وهى المعنوية وتنقسم الى عادية وعقلية ، وذلك مثل :

١ — استحالة قيام المسند بالمسند اليه استحالة عادية .

ب — أو استحالة قيامه به استحالة ضرورية . اى بدهية .

ج — صدور الكلام الذى فيه الاسناد من الموحد ، وهذا القسم الثالث من المجاز العقلى هوالذى يحتاج الى دليل وتأمل ، أما القسم الاول والثانى فمن المجاز الضرورى البدهى الذى لا يحتاج الى دليل .

واعلم أن الفعل المبنى للفاعل فى المجاز العقلى واجب أن يكون له فاعل فى التقدير اذا أسند اليه صار الاسناد حقيقة (١) لما يشعر بذلك تعريفه كما سبق ، وذلك قد يكون ظاهرا كما فى قوله تعالى :

---

(١) هذا راى الرازى والسكاكى والخطيب ، وعبد القاهر على خلاف ذلك :

فيرى الخطيب أن الفعل فى المجاز العقلى لابد ان يكون له فاعل اذا أسند اليه يكون الاسناد حقيقة ، ومعرفة ذلك اما ظاهرة كما فى « فما ربحت تجارتهم » واما خفية لا تظهر الا بمزيد نظر وتأمل كما فى « سرتنى رؤيتك » لكثرة الاسناد الى الفاعل المجازى وترك الاسناد الى الفاعل الحقيقى .. وقد اشترك السعد والسيد فى ابطال ما وجهه الرازى والسكاكى من الشبه فى هذا البحث .

قال الدسوقى : وتحرير النزاع ان المجاز العقلى هل يشترط فى تحققه ان يكون للفعل المسند فيه فاعل محقق فى الخارج اسند له ذلك الفعل قبل المجاز اسنادا حقيقيا معتدا به ، بان يقصد فى العرف والاستعمال اسناد ذلك الفعل لذلك الفاعل ، أو لا يشترط ؟ . فمذهب السكاكى والمصنف اشتراط ذلك لاجل ان ينقل الاسناد من ذلك الفاعل الحقيقى للفاعل المجازى، ومذهب عبد القاهر لا يجب ذلك الا اذا كان الفعل موجودا ، فان كان غير موجود بان كان امرا اعتباريا فلا يصح أن يكون له فاعل حقيقى ، بل يتوهم ويفرض له فاعل اسند اليه ونقل الاسناد منه للفاعل المجازى ، فالفاعل ليس محققا فى الخارج بل متوهم مفروض ولا يعتد بالاسناد للمتوهم المفروض ، فليس « لسرتنى » ولا « ليزيدك » فاعل فى الاستعمال يكون الاسناد اليه حقيقة ؛ لعدم وجود تلك الافعال المتعدية فى الاستعمال ، أى أن المتكلم لم يقصد الاخبار بها بل استعملها فى لازمها ، فانتفاؤها بالنظر الى قصد المتكلم وملاحظته لا بالنظر للواقع ، وكذا « اقدمنى » ، فان الاقدام ليس له فاعل حقيقى واسناد الاقدام فيه للحق مجاز عقلى ، فقد بولغ فى كون الحق له مدخل فى تحقق القدوم ، ففرض اقدام صادر من فاعل متوهم ثم نقل عنه واسند الى الحق مبالغة فى ملابسته للقدوم ، كما ينقل اسناد الفعل من الفاعل الحقيقى الى الفاعل المجازى مبالغة فى ملابسة الفاعل المجازى للفاعل الحقيقى ، فالمجاز فى الاسناد ، لا فى الفعل ، فالفاعل الحقيقى ليس موجودا محققا فى الخارج بل متوهم مفروض ، ولا يعتد باسناد
=

« فما ربحت تجارتهم » ، أى فما ربحوا فى تجارتهم ، وقد يكون خفيا لا يظهر الا بعد نظر وتأمل ، كما فى قولك سرتنى رؤيتك أى سرنى الله وقت رؤيتك ، كما تقول : أصل الحكم فى أنبت الربيع البقل أنبت الله البقل وقت الربيع ، وفى شفى الطبيب المريض : شفى الله المريض عند علاج الطبيب ، وكما فى قولك أقدمنى بلدك حق لى على فلان أى أقدمتنى نفسى بلدك لأجل حق لى على فلان أى قدمت لذلك ، ونظيره محبتك جاءت بى اليك ، أى جاءت بى نفسى اليك لمحبتك ، أى جئت لمحبتك .. وانما قلنا ان الحُكم فيهما مجاز لأن الفعلين فيهما مسندان الى الداعى والداعى لا يكون فاعلا ، وكما فى قول الشاعر [1] :

وصـــيرنى هواك ربى لحينى يضرب المثــل

أى وصيرنى الله لهواك وحالى هذه ، أى أهلكنى الله ابتلاء بسبب هواك ، وكما فى قول الآخر وهو أبو نواس [2] :

يزيدك وجهه حســـنا اذا ما زدته نظـــــرا

= الفعل للفاعل المتوهم المفروض ، وكذا يقال فى سرتنى رؤيتك ويزيدك وجهه حسنا : انه بولغ فى كون الرؤية لها مدخل فى السرور ، والوجه له مدخل فى زيادة العلم بالحسن ، ففرض سرور وازدياد من فاعل متوهم ، ثم نقلا عنه وأسندا للفاعل المجازى وهو الوجه والرؤية للمبالغة فى ملابسة الفاعل المجازى للفعل ، فقول الشيخ عبد القاهر : ليس لهذه الافعـــال فاعل ، أى محقق فى الخارج يعتد باسنادها اليه .. هذا وما ذكر من ان الاسناد فى « أقدمنى بلدك حق الخ » من قبيل المجاز العقلى غير متعين ، بل يجوز أن يراد بالاقدام الحمل على القدوم على جهة المجاز المرسل ، فيكون المعنى « حملنى على القدوم حق الخ » .

(١) هو ابن البواب كما فى الدلائل ص ٧٢ ، والكلام على البيت فى ص ٢٢٩ من الدلائل .. وينسب البيت لمحمد اليزيدى .

(٢) فى المطول لابن المعتز ، وهو لأبى نواس كما فى معاهد التنصيص . وتجد البيت فى الدلائل ص ٢٢٩ .

أى يزيدك الله حسنا فى وجهه لما أودعه من دقائق الجمال متى تأملت .

* * *

وأنكر السكاكى وجود المجاز العقلى فى الكلام ، وقال : الذى عندى نظمه فى سلك الاستعارة بالكناية ، بجعل الربيع استعارة بالكناية عن الفاعل الحقيقى (١) بواسطة المبالغة فى التشبيه على ما عليه مبنى الاستعارة كما سيأتى ، وجعل نسبة الانبات اليه قرينة للاستعارة (٢) ،

---

(١) وكان عبد القاهر يرد ذلك الرأى فى كلامه فى الأسرار (ص ٣٣١) .

(٢) تفصيل الكلام على رأى السكاكى فى رد المجاز العقلى الى الاستعارة المكنية انه بعد ان عرض للمجاز العقلى قال :

« هذا كله تقرير الكلام فى هذا الفصل بحسب رأى الأصحاب من تقسيم المجاز الى لغوى وعقلى ، والا فالذى عندى هو نظم هذا النوع فى سلك الاستعارة بالكناية ، بجعل الربيع استعارة بالكناية عن الفاعل الحقيقى — وهو القادر المختار اى الله تعالى — بواسطة المبالغة فى التشبيه على ما عليه مبنى الاستعارة كما عرفت ، وجعل نسبة الانبات اليه قرينة للاستعارة ، وبجعل الأمير المدبر لأسباب هزيمة العدو استعارة بالكناية عن الجند الهازم ، وجعل نسبة الهزم اليه قرينة للاستعارة ، فالمجاز كله لغوى اى فى الكلمة لا فى الاسناد (راجع ص ١٦٩ المفتاح) .. والاستعارة بالكناية عنده أن تذكر المشبه وتريد المشبه به بواسطة قرينة ، وهى ان تنسب اليه شيئا من اللوازم العادية للمشبه به مثل ان تشبه المنية بالسبع ثم تفردها بالذكر وتضيف اليها شيئا من لوازم السبع فتقول مخالب المنية نشبت بفلان .

وما ذهب اليه السكاكى هو حاصل شبهة اوردها عبد القاهر ورد عليها (٣٣١ من الأسرار) ، قال عبد القاهر فى اسلوب « صاغ الربيع الوشى » : فان قيل : اليس الكلام معقودا على تشبيه الربيع بالقادر فى تعلق وجود الصوغ والنسج به؟ فالجواب ان هذا التشبيه ليس هو الذى

* * * * * * * * * * * * * *

= يعقد في الكلام ، انما هو عبارة من الجهة التي راعاها المتكلم حين اعطى الربيع حكم القادر في اسناد الفعل اليه ، فقولنا في تشبيه منقول منطوق به ، وقول المعترض في تشبيه معقول غير منطوق به الخ .. وقد سار السكاكي على ضوء هذه الشبهة وقال : ليس في كلام العرب مجاز عقلي الخ . والحامل للسكاكي على هذا الانكار كما يقول هو للاستعارة بالكناية ، ولكن يرد عليه ان ذلك ليس باولى من العكس .. وقول السكاكي في الاستعارة بالكناية « هي ان تذكر المشبه الخ » اى هي ذكر المشبه اى هي المشبه المذكور .

وناقش الخطيب راى السكاكي ، ورده بوجوه منها :

١ — انه يستلزم ان يكون المراد : بعيشة في قوله تعالى « فهو في عيشة راضية » صاحب العيشة لا العيشة ، وبماء في قوله « خلق من ماء دافق » فاعل الدفق ، لما سياتي من تفسير الاستعارة بالكناية على مذهب السكاكي ، من ان حاصلها ان يشبه الفاعل المجازى المذكور بالفاعل الحقيقي في تعلق وجود الفعل به ثم يفرد الفاعل المجازى بالذكر ، وينسب اليه شيء من لوازم الفاعل الحقيقي .. توضيح المقام : انه لابد في الاسناد من مستعار منه ومستعار له ومستعار ، ففي انشبت المنية اظفارها بفلان المستعار منه معنى السبع وهو الحيوان المفترس ، والمستعار لفظ السبع ، والمستعار له معنى المنية ، ومعنى قولهم بالكناية انك كنيت عن المستعار بشيء من لوازم معناه (اى الاظفار) ولم تصرح به ، وهذا على طريق الجمهور ، فيجعلون مدلول لفظ استعارة بالكناية المستعار اعنى اللفظ الدال على المشبه به المضمر ، والسكاكي يجعل مدلوله اللفظ الدال على المشبه فيقال عنده في تقريرها : شبهت : المنية بالسبع وادعينا انها فرد من افراده ، ثم اوردنا اللفظ الدال على المشبه مرادا منه المشبه به بواسطة قرينة دالة على ذلك (كلفظ الاظفار) ، واما على طريق المصنف فمدلوله نفس التشبيه المضمر في النفس فتسمية التشبيه استعارة بالكناية .... وقول السكاكي في « انبت الربيع البقل » : « ان الربيع استعارة بالكناية عن الفاعل الحقيقي بواسطة المبالغة في التشبيه — اى بادخال المشبه في جنس المشبه به وجعله فردا من افراده ادعاء ؛ ونسبة الانبات الى الربيع قرينة الاستعارة — يرد عليه ان هذا مخالف لما اشتهر من ان قرينة الاستعارة بالكناية عند السكاكي هي اثبات الصورة الوهمية المسماة =

. . . .

= بالاستعارة التخييلية ، فيجب ان يؤول على ان المراد « وجعل نسبة ما هو على الاستعارة بالكناية غير الكائنة فى المجاز العقلى ، واما الواقعة فيه فتسبة شبيه بالاثبات اليه قرينة » . . واجيب : بأن ما اشتهر عنه محمول على الاستعارة بالكناية غير الكائنة فى المجاز العقلى واما الواقعة فيه فالقرينة فيه قد تكون أمرا محققا ، فما اشتهر عنه غير كلى ؛ ويدل على ذلك انه نفسه صرح فى بحث المجاز العقلى بأن القرينة قد تكون أمرا محققا كما فى انبت الربيع البقل . وقول السكاكى : المكنية « هى ان تذكر المشبه وتريد المشبه به بواسطة قرينة ، وهى أن تنسب اليه شيئا من اللوازم المساوية للمشبه به » ، يريد « بالمساوية » التى تصدق حيث صدق وتكذب حيث كذب .

٢ — ويستلزم أن لا تصح الاضافة فى نحو قولهم : فلان نهاره صائم وليله قائم ، اى لان المراد بالنهار على هذا فلان نفسه ، واضافة الشىء الى نفسه لا تصح ، فكل تركيب اضيف فيه الفاعل المجازى الى الفاعل الحقيقى كما فى المثالين السابقين تكون — على هذا — الاضافة فيه غير صحيحة ؛ لبطلان اضافة الشىء الى نفسه اللازمة من كلامه ؛ لان المراد بالنهار حينئذ فلان نفسه ؛ ولا شك فى صحة هذه الاضافة ووقوعها ؛ قال تعالى : فما ربحت تجارتهم ؛ وقال الشاعر : فنام ليلى وتجلى همى ؛ وهذان المثالان اظهر ؛ لان « نهاره صائم » يمكن المناقشة فيه بأن الاستعارة انما هى فى ضميره المستتر لا فى « نهاره » على الاستخدام المعروف فى علم البديع . لكن المناقشة فى المثال ليست من ادب العلماء — قال الدسوقى فى « نهاره صائم » : اضافة الشىء الى نفسه انما توجد اذا كان المراد « بالنهار » وضمير « صائم » واحدا ، واما اذا ارتكب الاستخدام وجعل الضمير فى « صائم » راجعا الى النهار ؛ لا بالمعنى الاول وهو الزمان ؛ بل بمعنى الشخص ؛ فلا يلزم اضافة الشىء الى نفسه ؛ لان الاستعارة انما هى فى الضمير المستتر فى صائم لا فى نهاره .

٣ — وان لا يكون الامر بالايقاد على الطين فى احدى الآيتين وبالبناء فيهما لهامان مع ان النداء له فيكون الامر له ايضا فلا يجوز تعدد المخاطب فى كلام واحد او جمعه او عطفه .

قال الدسوقى : قيل ان هذا الالزام انما يتوجه على السكاكى اذا كان المسند مستعملا فى معناه الحقيقى ، وله ان يمنع ذلك مدعيا أن معنى « ابن » هو امر بالبناء « واوقد لى ياهامان » هو امر بالايقاد ، فصح أن =

= النداء له والخطاب معه .. وفيه ان هذا خروج عما نحن بصدده، لأنه حينئذ يكون المجاز في الظرف ، فيخرج عن المجاز العقلي كما يقول المصنف وغيره وعن الاستعارة بالكناية كما يقول السكاكي .

وقال ابن السبكي : ان الزام الخطيب للسكاكي بنحو « ابن لي صرحا » بأن لا يكون الأمر بالبناء لهامان مع ان النداء له ، جوابه : ان المأمور بالبناء الباني بنفسه بعد اعتقاد دخول هامان نفسه في زمرة من يبني بنفسه مجازا .

٤ — ويستلزم ان يتوقف جواز التركيب في نحو قولهم : انبت الربيع البقل وسرتني رؤيتك على الاذن الشرعي لأن اسماء الله تعالى توقيفية .

قال ابن يعقوب : ان ما ذهب اليه السكاكي يستلزم أيضا أن يتوقف استعمال نحو « انبت الربيع البقل » و « شفى الطبيب المريض » و « سرتني رؤيتك » و « يزيدك وجهه حسنا » — وكل ما كان مثل هذا الاستعمال — على سماعه من الشارع ، لأن اسماء الله توقيفية ، فلا يطلق عليه تعالى اسم لا حقيقة ولا مجاز ما لم يرد اذن من الشارع كالرحمن فانه مجاز بخلاف ما لم يسم به الله نفسه في الكتاب ولا في السنة سواء كان مجازا أو حقيقة ، ولم يرد اطلاق الربيع والطبيب والرؤية على الله تعالى . لكن توقف مثل هذا الاستعمال على السماع غير صحيح ، لأنه شاع استعماله حتى كاد أن يكون اجماعا سكوتيا ، فشيوعه يدل على أن المراد بالربيع غير الله . ولا يجاب عن هذا الالزام بأن مذهب السكاكي أن اسماءه تعالى غير توقيفية ، لأن الرد عليه ليس باستعماله هو بل باستعمال غيره ممن يذهب الى غير ذلك مع عدم انكار غيره ، فصار استعمالا صحيحا ، ولو كان كما ذكر السكاكي لتركه من يراها توقيفية أو لأنكر عليه .

ملاحظة :

المجاز العقلي له معنيان : اسناد الفعل أو ما في معنى الفعل الى ما ليس الاسناد له بعلاقة ، مع قرينة — والمجاز الذي سببه التصرف في أمور عقلية أي غير لفظية كجعل الفرد الغير المتعارف من أفراد المعنى المتعارف للفظ مثل جعل الشجاع فردا من أفراد الحيوان المفترس فننقل اسمه اليه قائلا : « رأيت أسدا » أي رجلا شجاعا شبيها بالأسد . والمعنى الأول هو المراد هنا في هذا الباب .

ويجعل الأمير المدبر لأسباب هزيمة العدو استعارة بالكناية عن الجند الهازم وجعل نسبة الهزم اليه قرينة للاستعارة •

وفيما ذهب اليه (السكاكى) نظر :

١ — لأنه يستلزم أن يكون المراد بعيشة فى قوله تعالى « فهو فى عيشة راضية صاحب العيشة لا العيشة ، وبماء فى قوله : خلق من ماء دافق فاعل • فاعل الدفق لا المنى ، لما سيأتى من تفسيره للاستعارة بالكناية •

٢ — وأن لا تصح الاضافة فى نحو قولهم : فلان نهاره صائم وليله قائم • لأن المراد بالنهار على هذا فلان نفسه واضافة الشىء الى نفسه لا تصح •

٣ — وأن لا يكون الأمر بالايقاد على الطين فى احدى الآيتين وبالبناء فيهما لهامان ، مع أن النداء له •

٤ — وأن يتوقف جواز التركيب فى نحو قولهم : أنبت الربيع البقل ، وسرتنى رؤيتك على الاذن الشرعى ، لأن أسماء الله تعالى توقيفية ، وكل ذلك منتف ظاهر الانتفاء •

٥ — ثم ما ذكره منقوض بنحو قولهم : « فلان نهاره صائم » فان الاسناد فيه مجاز ، ولا يجوز أن يكون النهار استعارة بالكناية عن فلان ، لأن ذكر طرفى التشبيه يمنع من حمل الكلام على الاستعارة ويوجب حمله على التشبيه ، ولهذا عد نحو قولهم « رأيت بفلان أسدا ، ولقينى منه أسد » تشبيها لا استعارة ، كما صرح السكاكى أيضا بذلك فى كتابه •

تنبيــــه :

انما لم نورد الكلام فى الحقيقة والمجاز العقليين فى علم البيان كما فعل السكاكى ومن تبعه ، لدخوله فى تعريف علم المعانى دون تعريف علم البيان .

البحث البلاغى عن أسلوب المجاز العقلى وأطواره (١)

سيبويه وهل أثبت المجاز العقلى ؟ :

قال صاحب الكتاب : مطر قومك الليل والنهار على الظرف، وإن شئت رفعته على سعة الكلام ، كما يقال صيد عليه الليل والنهار ، كما قال جرير :

ونمت وما ليـل المطى بنـائم

فكأنه فى كل هذا جعل الليل بعض الاسم ، وكما قال الشاعر :

أما النهـار ففى قيـد وسلسلة ‏‏‏‏ والليل فى قعر منحوت من الساج

فكأنه جعل النهار فى قيد والليل فى جوف منحوت (راجع ١/٨٠ سيبويه فى : باب من الفعل يبدل فيه الآخر من الأول ويجرى الاسم كما يجرى أجمعون على الاسم ينصب بالفعل لأنه مفعول) .

وقال : تقول سرقت الليلة أهـل الدار فتجرى الليلة فى سعة الكلام ، ومثل ما أجرى مجرى هذا فى سعة الكلام والاستخفاف : « بل مكر الليل والنهـار » فالليل والنهار لا يمكران ولكن المكر فيهما (٨٩ /١ الكتاب لسيبويه) .

وقال : باب استعمال الفعل فى اللفظ لا فى المعنى لاتساعهم فى الكلام وللإيجاز والاختصار : فمن ذلك أن تقول : صيد عليه يومان أى صيد عليه الوحش فى يومين ولكنه اتسع واختصر ، ومما جاء على اتساع الكلام والاختصار . واسأل القرية التى كنا فيها والعير التى

---

(١) هذه البحوث بقلم محمد عبد المنعم خفاجى .

أقبلنا فيهـا ، انما يريد أهـل القرية فاختصر وعمل الفعل فى القرية كما كان عاملا فى الأهل لو كان ها هنا ، ومثله بل مكر الليـل والنهار المعنى مكركم فى الليل والنهار ، وقال تعالى ولكن البر من آمن بالله ، أى بر من آمن بالله ، وهذا أكثر من أن يحصى ، وقال الجعدى :

وكيف تواصـل من أصـبحت   خلالتـــه كأبى مرحب

(راجع ١٠٨ — ١/١١٠ من الكتاب) .

هذا بعض ما ذكره سيبويه فى كتابه عن المجاز العقلى (١) . وهو يرشدنا الى رأى شيخ العربية فى مثل هذا الأسلوب .. وبالامعان فيما نقلنـاه ها هنا عن سـيبويه ندرك أنه يحمـل هذه الأسـاليب وما شابهها — مما حمله المتأخرون على المجاز فى الكلام أى على المجاز العقلى — يحملها على السعة فى الكلام بالايجاز والحذف والاختصار ، وأصلها على تقدير المضاف ، وبهذا التقدير تخرج هذه الأساليب عند سيبويه عن معنى المجاز الذى نفهمه من كلام المتأخرين ... فالمجاز العقلى محمول عنده على السعة فى الكلام وحذف مضاف .

وسيأتى نبسط رأى عبد القاهر فى ذلك ودفاعه عن أسلوب المجاز العقلى ورده على من يرى أنه محمول على السعة والحذف من علماء العربية كسيبويه ومن نهج نهجه فى فهم وتحليل هذا الأسلوب .

---

(١) وفى ص ١٦٩ ج ١ من الكتاب يقول سيبويه :
وان شئت رفعت (فقلت ولا اناعى) فجاز على سعة الكلام ، من ذلك قول الخنساء
ترتع ما رتعت حتى اذا ادكرت   فانما هى اقبالٌ وادبار
فجعلها الاقبال والادبار فجاز على سعة الكلام كقولك : نهارك صائم وليلك قائم .. ولكنه جاز على السعة فاستخفوا واختصروا ، والسيراف والشنتمرى يجعلانه على تقدير مضاف أو تأويل المصـدر باسم الفاعل . وهذا بيان لمعنى السعة الذى يقصده صاحب الكتاب .

المبرد واسلوب المجاز العقلى :

وقال صاحب الكامل : « ليلة مزؤودة » أى ذات زؤد وهو الفزع وجعل الليلة ذات فزع لأنها يفزع فيها ، قال تعالى : بل مكر الليـــل والنهار أى مكركم فى الليل والنهار ، وقال جرير : ونمت وما ليل المطى بنائم • وقال آخر : فنام ليلى وتجلى همى • (١/٦٥ كامل النسخة القديمـــة) •

وقال : العـــرب تقول نهارك صـــائم وليلك قائم أى أنت قائم وصائم ، كما قال تعالى : بل مكر الليل والنهار أى فى الليل والنهار ، وقال : ونمت وما ليل المطى بنائم (١/١٠٤/ كامل المبرد) •

وقال : « وأما خلة فثمانى » ، سماها بالمصدر مثل فانما هى اقبال وادبار ، نعتها بالمصدر لكثرته منها ، ويجوز أن يكون أراد ذات خلة ، ومثله : ولكن البر من آمن بالله (١٣٧ جـ ١ كامل المبرد الطبعة القديمة)•

وقال : « ويمسى ليله غير نائم » أى فى ليله ، جعل الفعل لليـــل على السعة مثل فانما هى اقبال وادبار ، وفى القرآن بل مكر الليـــل والنهار (٢٤٨ جـ ٢ كامل المبرد طبعة التجارية) •

ذلك ما فى كامل المبرد من كلام وتحليل لبعض الأســـاليب التى جعلها المتأخرون من أسلوب المجاز العقلى •

والمبرد فى تحليل هذه الأساليب يجمع بين رأى سيبويه السابق ورأى آخر جديد هو المبالغة ، والمبالغة من خصائص المجاز كما تعلم — فيقول فى « فانما هى اقبـــال وادبار » نعتها بالمصـــدر لكثرته منهـــا (١٣٧ جـ ١ كامل) ، فهو اذاً يجوز فى أســـلوب « فانما هى اقبـــال وادبار » — وما يشابهه مثله طبعا — أن يكون على المبالغة كما يقول عبد القاهر أى على المجاز ، أو على الحذف كما يقول سيبويه ، واذا هو

لم يذهب الى مذهب سـيبويه وحده ، وقد يكون المبرد قد أراد من المبالغة التشبيه البليغ ، هي اقبال ، أي شبيهة به . ولكن ذلك بعيـد عن الأسلوب وعن مراد المبرد منه كما يخيل لي .

وفي رسالة أخرى للمبرد هي « ما اتفق لفظه واختلف معناه في القرآن » يقول المبرد :

وفي القرآن مختصرات ، فان مجاز كلام العرب يحذف كثيرا من الكلام اذا كان فيما يبقى دليل على ما يلقى ، فمن ذلك : واسأل القرية التي كنا فيهـا والعير التي أقبلنـا فيها ، لمـا كانت القـرية والعير لا يسألان ولا يجيبان علم أن المطلوب غيرهما (ص ٣٦) ، ولا يجوز على هذا جاء زيد وأنت تريد غلامه لأن المجيء يكون له ولا دليل في مثل هذا على المحذوف . ومثل الأول : ولكن البر من آمن بالله ، أي بر من آمن بالله لأن البر لا يكون البـار . ونظيره قول الجعدي : (.. أصبحت خلالته كأبي مرحب) أي كخلالة أبي مرحب (٣٢ و ٣٣) .

ومن المختصر في القرآن قوله تعالى : ومثل الذين كفروا كمثل الذي ينعق بما لا يســمع . تأويله مثلكم ومثلهـم كمثل النـاعق بما لا يســمع فاختصر وحذف ، كقول النابغة : كأنك من جمال بني أقيش ، أي جمل من جمال (٣٥) .. والمبرد في ذلك تابع لسـيبويه ناقل عنه ، ورأيه عندي صحيح .

ابن المدبر والمجاز العقلي :

يرى ابن المدبر أن أسلوب « بل مكر الليل والنهار » من الحذف والاتساع ، وأن الكتاب ينبغي أن يتجنبوه . (راجع ص ١٨ الرسالة العذراء لابن المدبر نشر الدكتور مبارك) .

نقد النثر والمجاز العقلى :

وكذلك كتاب « نقد النثر » ضئيل الصلة بالمجاز العقلى . قال :

ومن الاستعارة انطاق ما لا ينطق مثل « فوجد فيها جدارا يريد أن ينقض فأقامه »ومثل : امتلأ الحوض وقال قطنى — وذكر أيضا المثال : فللموت ما تلد الوالدة (٦٦ نقد النثر) .. ومن المعلوم أن كلامه فى هذا قليل جدا من ناحية البحث البيانى وهو متأثر بخطابة أرسطو ، حامل لهذه المثل على الاستعارة ، كما صنع عبد القاهر بعد .

الآمدى وأسلوب المجاز العقلى :

قال الآمدى فى موازنته : المصادر قد تجعل أوصافا فى مكان أسماء الفاعلين وانما تكون أوصافا على وجه من الوجوه وطريقة من اللفظ ، وهى قولهم انما زيد دهره أكل ونوم وانما عمرو أبدا قيام وقعود ، فتقيم المضاف اليه مقام المضاف لأنه يدل عليه أو تجعل زيدا نفسه الأكل والنوم وعمرا القيام والقعود على المبالغة لأن ذلك كثير منهما كما قالت : « فانما هى اقبال وادبار » ، فجعلت الناقة هى الاقبال والادبار لأن ذلك كثير منها ، وان شئت كان المعنى ذات اقبال وادبار فأقمت المضاف اليه مقام المضاف فهذه طريقة الوصف بالمصادر على ما ذكرته ، فيقال هند الحسن كله ودعد الجمال أجمعه وزيد الهرم أقصاه وعبد الله التيه بعينه : ان شئت كان المعنى هند صاحبة الحسن كله ودعد ذات الجمال أجمعه وزيد أخو الهرم وعبد الله ذو التيه فأقمت المضاف إليه مقام المضاف مثل واسأل القرية ، وان شئت جعلت هندا هى الحسن ودعداهى الجمال على المبالغة لما كانتا متناهيتين فى هذين الوصفين (٧٦ الموازنة طبعة صبيح) .

ورأى صاحب الموازنة قد حلله أتم تحليل وان كان لا يخرج عن رأى المبرد فى كثير ولا قليل .. فان هذه الأساليب كلها بعيدة عن

المجاز العقلى انما هى على الحذف والاختصار ، أما ما ذكره فى الكامل من الأساليب من مثل : نهارك صائم وليلك قائم فقد حملهما على المبالغة أو على الحذف كما سبق : وسيبويه يحملها كلها على الحذف .

ومن تتمة الفائدة أن ننقل هذا النص عن المبرد وان لم يكن وثيق الصلة بالمجاز العقلى ، قال المبرد : « وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون — انما نملى لهم ليزدادوا اثما » مجاز مصيره الى ذا كقوله تعالى : « فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا وحزنا » وهم لا يلتقطونه مقدرين فيه ذلك ولكن تقديره : فكان مصيره الى عداواتهم وحزنهم ، ومثله : ودورهم بخراب الموت نبنيها ، أى الى هذا تصير ، ومثل قول ابن الزبعرى فللموت ما تلد الوالدة ، أى أن هذا مصيرهم (٣٦ — ٣٨ ما اتفق لفظه للمبرد) .

خطابة أرسطو والمجاز العقلى :

وقد ترجمت فى القرن الثالث الهجرى ولم يتأثر بها أئمة البيان كثيرا فى فهم هذا الأسلوب ، وانما كان جل تأثرهم بآراء علماء العربية كسيبويه والمبرد وابن فارس ، وليس فيها الا كلام قريب الصلة بالمجاز العقلى : قال :

« ومن التغيرات الاستعارية اللذيذة أن ينسب الأمر الى صفة الفاعل مثل الشيخوخة تفعل الخير بدل الشيخ » .. وقال : ومن أنواع الاستعارة اللفظية أن تجعل أفعال الأشياء غير المتنفسة كأفعال ذوات الأنفس مثل الغضب لجوج (راجع باب العبارة فى فن الخطابة فى فى الشفاء لابن سينا) .

فهو ها هنا يجعل هذه الأساليب استعارة فقط ، لا حذفا كما ذهب اليه سيبويه ، وصنيع الخطابة فى هذا هو صنيع عبد القاهر ، فقد جعل ما شابه هذه الأساليب مجازا عقليا ورد أن تكون من الحذف بسبيل .

ابن فارس واسلوب المجاز العقلى :

قال ابن فارس : ومن اللامات لام العاقبة : « فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا وحزنا » لم يلتقطوه لذلك ولكن صارت العاقبة ذلك (٨٧ الصاحبى لابن فارس) •

وقال : ومن سنن العرب الحذف والاختصار ، ومنه « واسأل القرية » أراد أهلها ، وبنو فلان يطؤهم الطريق أى أهله ، ومنه نطأ السماء أى مطرها ، وعلى خوف من فرعون ، « اذن لأذقناكم ضعف الحياة » أى ضعف عذابها (١٧٥ الصاحبى) •

وقال : ومن سنن العرب اضافة الفعل الى ما ليس فاعلا فى الحقيقة مثل جدارا يريد أن ينقض وهو فى شعر العرب كثير (١٧٩ و ١٨٠ الصاحبى) •

وقال : باب المفعول يأتى بلفظ الفاعل ، تقول سر كاتم أى مكتوم، وفى القرآن لا عاصم اليوم من أمر الله أى لا معصوم ، ومن ماء دافق، وعيشة راضية أى مرضى بها ، وحرما آمنا أى مأمونا فيه •• قيل ويأتى الفاعل بلفظ المفعول به كقوله : انه كان وعده مأتيا • أى آتيا (١٨٧ و ١٨٨ الصاحبى) •

وقال : ومن سنن العرب وصف الشىء بما يقع أو يكون منه كقولهم يوم عاصف أى عاصف الريح ، لأن عصوف ريحه يكون فيه ، ومثله ليل نائم ، وليل ساهر لأنه ينام فيه ويسهر ، قال أوس : خذلت على ليلة ساهرة ، وقال عمرو بن براق : « وليلك من ليل الصعاليك نائم » • ومثله ، « وما ليل المطى بنائم » • ويقولون : لا يرقد وساده يريدون متوسد الوساد (١٨٨ الصاحبى) •• وقال : ومن سنن العرب التوهم والايهام وهو أن يتوهم أحدهم شيئا ثم يجعله كالحق كمساءلة الرسوم (١٩٢) •• وقال : ومن سنن العرب الاضمار :

اضمار الأسماء ،واضمار الأفعال ، واضمار الحروف (١٩٦ — ١٩٨ الصاحبى) — والعرب تضمر الفعل فيشتبه المعنى حتى يعتبر فيوقف على المراد مثل « فانى لا آلام على دخول » أى على ترك دخول ، وقال الأعشى : أأزمعت من آل ليــلى ابتكارا ، أى من أجــل آل ليــلى (ص ١٩٨ و ١٩٩) •• وقال : باب اضافة الشيء الى ما ليس له مثل سرج الفرس وثمرة الشجرة وغنم الراعى (ص ٢٠٥) • وقال : باب اقتصــارهم على ذكر بعض الشيء • وهم يريدون كله ومنه : ويبقى وجه ربك الخ • (٢١٢ و ٢١٣) •

وبالتأمل فيما ذكره ابن فارس فى الصاحبى نجده يفرق بين باب الحذف وباب المبالغة والمجاز ، فيذكر مثل الحذف ويجعلها من الحذف، ويذكر مثل المبالغة كليل نائم ويجعلها من وصف الشيء بما يقع فيــه أو يكون منه •

وابن فارس فى هذا جد دقيق متحر للصواب فيما يرى ويقول •

ابن الأثير والمجاز العقلى :

كذلك لم يعرض ابن الأثير فى المثل الســائر للمجاز العقــلى ، وانما جعل المجاز ثلاثة أقسام : توسع فى الكلام وتشبيه واستعارة :

فالتوسع يكون العدول فيه عن الحقيقة الى المجاز لغير مشاركة بين المنقول والمنقول اليه لطلب التوسع فى الكلام ، وهو ضربان :

١ — ما يرد على وجه الاضــافة واستعماله قبيح ، لبعد ما بين المضاف والمضاف اليه ، وذلك لأنه يلتحق بالتشــبيه المضمر الأداة ، واذا ورد التشبيه ولا مناسبة بين الطرفين ، كان ذلك قبيحا مثل بح صوت المــال وماء الملام •

٢ — مايرد على غير وجه الاضافة ، وهو حسن لا عيب فيــه مثل : قالتا أتينا طائعين ، فنسبة القول الى السماء من باب التوسع ، لأنهما جماد لا ينطق ، وعلى هذا ورد مخاطبة الطلول ... وهذا النوع الثانى قريب من أسلوب المجاز العقلى ،وابن الأثير يعده من التوسع الذى هو قسم من أقسام المجاز .

عبد القاهر والمجاز العقلى :

ليس عبد القاهر أول من تكلم على أسلوب المجاز العقلى ، فقد تقدمه كثير من العلمــاء : كسيبويه والمبرد والآمدى وابن فارس .. وفى هــذا ما يبطل الرأى القائل بأن المجاز الحكمى — العقلى — من ابتداع عبد القاهر وحده ، وهو رأى ذهب اليه الدكتور طه حســين فى مقدمته لكتاب نقد النثر .

وبلاغة المجاز العقلى كما فهمها عبد القاهر سبق الى بيانها باختصار وفى خفية المبرد والآمدى .

وجملة ما ذكره عبد القاهر فى كتابيه الأسرار والدلائل عن المجاز العقلى .. هى :

١ — اثبات وجود المجاز العقلى وبيان سر الفروق بينه وبين المجاز فى الكلمة .

٢ — بيان أن المجاز فى الاثبات عقلى وفى الكلمة المثبتة لغوى .

٣ — بيان حد هذين النوعين من المجاز (المجاز الحكمى والمجاز فى المفرد) .

٤ — بيان القرينة على التجوز فى المجاز العقلى والفرق بينه وبين الأحاديث الكاذبة .

٥ — الكلام على بلاغة المجاز العقلى ودرجاته فى البلاغة — من العامية والخاصية — وأن تقدير الحقيقة فى الاسناد المجازى قد لا يتأتى فى الأسلوب ، وتوضيح سر دقة الأساليب الخاصية فى المجاز العقلى ، وتأويل نظرية علماء النحو التى يذهبون فيهـا الى أن أسلوب المجاز الحكمى على تقدير مضـاف ، والدفاع عن بلاغة المجاز الحكمى التى يهتضمها مثل هذا التقدير الحائف والتأويل البعيد .

وهذه الآراء مبسوطة فى كتابى « عبد القاهر ، والبلاغة العربية » بسطا وافيا ، فليرجع اليها من أراد .

الراغب الأصفهانى والمجاز العقلى :

أكثر الأسـباب التى يحتاج الفعـل اليها فى وجوده كما يقول الراغب عشرة : فاعل يصدر عنه كالنجار وعنصر يعمل فيه كالخشب وعمل كالنجر ، وزمان ومكان يعمـل فيهما ، وآلة يعمل بها كالمنجر ، وغرض قريب كاتخاذ النجار ، وغرض بعيد كتحصين البيت به ، ومثال يعمل عليه ويقتدى به ، ومرشد يرشده .. وكل قد ينسب اليه الفعل فيقال أعطـانى زيد اذا باشر الاعطـاء ، وأعطانى الله لمـا كان هو الميسر له وربما جمع بين السببين : البعيد والقريب فيقال : أعطانى الله وزيد ، قال الشاعر :

حبـانا به جدنا والاله   وضرب لنـا أجذم صارم

فنسب الى الأول وهو الله والى السبب المتأخر وهو الضرب والى المتوسط وهو الجد .. وقال : الله يتوفى الأنفس حين موتها ، فأسند الى الآمر به ، قل يتوفاكم ملك الموت ، فأسند الى المباشر له ، وقال الشاعر : وأليسنيه الهالكى ... وقال : كساهم محرق (١) . فنسبه

(١) للحصين المرى (راجع ص ١٩ من المفضليات) .

الفعل الى عاملها وفى الثانى الى مستعملها ، وقال فى صفة نبال : كستها ريشها مضرحية • فنسب كسوتها الى الطائر الذى أخذ ريشه فجعل لها : وقيل يداك أوكتا وفوك نفخ ، فنسب الفعل الى الآلة المتصلة •

ويقال سيف قاطع فنسب الى الآلة المنفصلة • وقيل ضرب قاطع وطعن جائف فنسب الى الحدث • وسر كاتم وعيشة راضية ، فنسب الى المفعول • وقال تعالى : حرما آمنا • فنسب الى المكان • وقيل يوم صائم وليل ساهر ، وما ليل المطى بنائم ، فنسب الى الزمان •• ولما كانت أفعالنا على ذلك صح فى الفعل الواحد أن ينسب الى أحد الأسباب مرة وينفى عنه مرة بنظرين مختلفين • وقال :

أعطيت من لم تعطه ولو انقضى حسن اللقاء حرمت من لم تحرم

فأثبت له الفعل ونفاه عنه بنظرين مختلفين •• وهذا فصل من تأمله لم يعتمد فى تثبيت المعانى على مثلها من الألفاظ فينظر من اللفظ الى المعنى ، بل ينظر فى مثل هذا من المعنى الى اللفظ • ومن أجل هذا قال قوم من المحصلين لا فاعل فى الحقيقة لأى شىء من الأفعال الا الله تعالى فان فعله يستغنى عن الزمان والمكان والمادة ، ومن عداه من الفاعلين فان له من كل ذلك أو بعضه ، ولهذا لا يصح أن ينسب الابداع الى غيره تعالى لا حقيقة ولا مجازا ويصح أن ينسب فعل الله تعالى الى كل ما تقدم ذكره (١٨٠ — ١٨٢ الذريعة الى مكارم الشريعة) •

وبهذا نرى أن الراغب ينفى المجاز العقلى كافة ، ولكن فى نظرى انه انما ينظر الى المعانى كما قال فى آخر كلمته ، ويوجه الألفاظ فى دلالتها الى ما تقتضيه المعانى ، ولا ينظر الى النظم والأسلوب وكيفية أدائه للمعنى من حقيقة أو مجاز ، فهو عن هذا فى واد بعيد ، وشغل شاغل •

صاحب المصباح (١) واسلوب المجاز العقلى :

وقد تأثر بدر الدين فى كتابه فى بحث المجاز العقلى بالسكاكى : قال : المجاز العقلى هو الكلام المزال اسناده عما هو له عند المتكلم الى غيره بضرب من التأويل والمراد بما الاسناد له عند المتكلم ما يعتقد قيام الفعل به أو صدوره عنه ، ولم أقل بغير العقل لأنا لم نرهم يحملون نحو « أشـــاب الصـــغير البيت » على المجاز ما لم يعلموا أو يظنوا صدوره عن غير جهل ، أو ما ترى كيف استدلوا على أن اسناد « ميز » الى الجذب فى قوله :

ميز عنـــه قنـــزعا عن قنـــزع   جذب الليالى أبطئى أو أسرعى

مجاز بأن أتبعه قوله : « أفناه قيل الله الخ » الشاهد لنزاهته أنه يريد الظاهر ، وقولى بضرب من التأويل مخرج للكذب . وسمى هذا الضرب مجازا عقليـــا لتعدى الحكم فيه عن مكانه الأصلى من غير تغيير للوضع . ومن شرط هذا المجاز أن يكون للمسند اليه شبه بالمتروك فى تعلقه بالعامل (٦٩ و ٧٠ المصباح) .

فهو يثبت المجاز العقلى ويفسره ويبين شروطه ويفرق بينه وبين الكذب .

« حسن التوسل فى صناعة الترسل » والمجاز العقلى :

وهذا الكتاب متأثر فى بحث أسلوب المجاز العقلى بعبد القاهر ، قال : المجاز مفعل من جاز يجوز اذا تعداه . فاذا عدل باللفظ عما يوجبه أصل اللغة وصف بأنه مجاز بمعنى أنهم قد جاوزوا به موضعه الأصلى أو جاز هو مكانه الذى وضع فيه أولا لأنه ليس بموضع أصـــلى لهذا

---

(٢) هو بدر الدين ابن ابن ملك المتوفى عام ٦٤٩ هـ .

اللفظ ولكنه مجازه ومتعداه يقع فيه كالواقف بمكان غيره ثم يتعداه الى مكانه الأصلى (١) .. وحدهما — الحقيقة والمجاز — فى المفرد : أن كل كلمة أريد بها ما وضعت له فهى حقيقة (١١٧ المرجع المذكور) كالأسد للحيوان واليد للجارحة ، وان أريد بها غيره لمناسبة بينهما فهى مجاز كالأسد للشجاع واليد للنعمة أو القوة ، وحدهما فى الجملة : أن كل جملة كان الحكم الذى دلت عليه كما هو فى العقل فهى حقيقة مثل خلق الله الخلق ، وكل جملة أخرجت الحكم المفاد بها عن موضعه فى العقل لضرب من التأول فهى مجاز ، كما اذا أضيف الفعل الى شىء يضاهى الفاعل كالمفعول به فى عيشة راضية ، أو المصدر فى شعر شاعر ، أو الزمان فى ليله نائم ، أو المكان فى طريق سائر ، أو المسبب فى بنى الأمير المدينة ، أو السبب فى واذا تليت عليهم آياته زادتهم ايمانا ، فمجاز المفرد لغوى ويسمى مجازا فى المثبت . ومجاز الجملة عقلى ويسمى مجازا فى الاثبات ، فالمجاز قد يكون فى المثبت وحده مثل : فأحيينا به الأرض بعد موتها ، وقد يكون فى الاثبات وهو أن يضيف الفعل الى غير الفاعل الحقيقى كما ذكرنا ، وقد يكون فيهما جميعا كقولك آنستنى رؤيتك أى سرتنى فجعل المسرة حياة ، وأسندها الى الرؤية وهو مجاز فى الاثبات (١١٨ حسن التوسل) .

---

(١) ذلك مأخوذ عن عبد القاهر وقد سبق ابن فارس فى كتابه « الصاحبى » الى بيان ذلك قال : « باب سنن العرب فى حقائق الكلام والمجاز » : الحقيقة من حق الشىء اذا وجب . وهى الكلام الموضوع موضعه ليس باستعارة ولا تمثيل ولا تقديم فيه ولا تأخير ، كقول القائل « احمد الله على نعمه واحسانه » وهذا أكثر الكلام . وأما المجاز فمأخوذ من جاز يجوز اذا استن ماضيا ، تقول جاز بنا فلان وجاز علينا فارس ، هذا هو الاصل ، ثم تقول يجوز أن تفعل كذا أى تنفذ ولا يرد ولا يمنع ، وتقول عندنا دراهم وضح وازنة واخرى تجوز جواز وازنة ، أى هى وان لم تكن وازنة فهى تجوز مجازها وجوازها لقربها منها ، فهذا تأويل قولنا مجاز ، أى أن الكلام الحقيقى يمضى لسننه لا يعترض عليه أو قد يكون غيره يجوز جوازه لقربه منه الا أن فيه من تشبيه واستعارة ما ليس فى الأول ، (١٦٧ — ١٦٦ الصاحبى) .

الزمخشرى والمجاز العقلى :

قال فى الكشاف فى تفسير الآية الكريمة « ختم الله على قلوبهم » ما نصه : ويجوز أن يستعار الاسناد نفسه من غير الله لله فيكون الختم مسندا الى الله على سبيل المجاز وهو لغيره حقيقة ، تفسير هذا أن للفعل ملابسات شتى يلابس الفاعل والمفعول به والمصدر والزمان والمكان والمسبب له فاسناده الى الفاعل حقيقة ، وقد يسند الى هذه الأشياء على طريق المجاز المسمى استعارة وذلك لمضاهاتها الفاعل فى ملابسته الفعل (١) كما يضاهى الرجل الأسد فى جراءته فيستعار له اسمه ، فيقال فى المفعول به : عيشة راضية وماء دافق وفى عكسه : سيل مفعم وفى المصدر شعر شاعر وذيل ذائل وفى الزمان نهاره صائم وليله قائم ، وفى المكان طريق سائر ونهر جار ، وأهل مكة يقولون : صلى المقام ، وفى المسبب بنى الأمير المدينة ، وقال الشاعر : اذا رد عاف القدر من يستعيرها • فالشيطان هو الخاتم فى الحقيقة أو الكافر الا أن الله لما أقدره ومكنه أسند اليه الختم كما يسند الفعل الى المسبب •

وقال فى الآية الكريمة : « فما ربحت تجارتهم » ما نصه : فان قلت كيف أسند الخسران الى التجارة وهو لأصحابها • قلت : هو من الاسناد المجازى وهو أن يسند الفعل الى شىء يتلبس بالذى هو فى الحقيقة له كما تلبست التجارة بالمشترين •

---

(١) فالزمخشرى يجعل هذا مجازا فى الاسناد على تشبيه الفاعل غير الحقيقى بالفاعل الحقيقى فهو عنده كالاستعارة فى التشبيه والعلاقة .. فهو ينظر الى المجاز فى الاسناد من جهة الفاعل غير الحقيقى وانه على تشبيهه بالفاعل الحقيقى .

الشهاب الخفاجى وأسلوب المجاز العقلى :

جاء فى طراز المجالس للشهاب الخفاجى م سنة ١٠٦٩ هـ ما نصه:

قال الأبهرى فى شرح العضد : الفاعل لابد أن يكون سببا قابليا لفعله ليصح الاسناد اليه لغة ، فاذا أسند فعل الى ما لا يكون سببا قابليا له يجعل مجازا عن فعل آخر مناسب (١) له يكون الفاعل قابليا (٢) له ، ويكفى فى هذا التسبب أن يعد الفاعل سببا قابليا له فى عرف العرب وعادتهم ولا يجب أن يكون محلا له فى الحقيقة ، فانهم لا ينظرون فى الاسناد الى ذلك ، ويرون جهة الاسناد — فى نحو : سرتنى رؤيتك ومات زيد وضرب عمرو — واحدة من حيث ان الفاعل فيها سبب قابل لأفعاله عادة وان كان موجدها هو الله حقيقة ، فقول الشيخ عبد القاهر : « الاسناد فى سرتنى رؤيتك مجاز اذ فاعله فى الحقيقة هو الله والمعنى سرنى الله عند رؤيتك ، وفى الآخرين حقيقة » بعيد لأن موجد الضرب أيضا هو الله لما ثبت من قاعدة خلق الأفعال ، وكذا محدث الموت اتفاقا لكن العرب لا يخطر ببالهم عند اسناد الضرب الى عمرو والمسرة للرؤية ان فاعلهما غير المذكور . قال الشهاب : وهذا كلام دقيق ، ولكن فيه بحث من وجهين :

١ — كيف يتم قوله : اذا أسند فعل الى ما لا يكون سببا قابليا له يجعل مجازا عن فعل آخر مناسب له يكون الفاعل قابليا له ، فانه يقتضى أنه لو أسند الى الموجد الحقيقى كخلق الله السموات والأرض يكون مجازا ، وهذا يأباه العقل والنقل ، وكون هذا لابد فيه من التجوز فى

---

(١) هو هنا يجعل الاسناد غير حقيقة ، ويؤول المجاز فيجعله فى الفعل ، من حيث اول الزمخشرى فجعله فى الفاعل ، وعبد القاهر والسكاكى والخطيب فجعلوه فى الاسناد .

(٢) يرد عبد القاهر فى الأسرار على نظرية ان المجاز فى الفعل وحده ردا مفصلا .

الفعل أيضا لا وجه له لجواز التجوز فى الاسناد ، فما وجه الحصر ؟.

٢ — كيف يشترط فى الاسناد الحقيقى أن يكون الفاعل سببا قابليا ، دائما فى اللغة . بناء على أن الفاعل اللغوى غير الفاعل الحقيقى ، مع أن اللغة واستعمال العرب يشهد بخلافه فى مواضع كثيرة : منها ما ذكر من الاسناد للموجد ، ومنها أن الفعل يوضع للاعدام الصرفة كفقد وعدم وقد يسند للرجل حقيقة ما يقبله غيره ويقوم به مثل قطف ، وهذا كله يقتضى أن الحقيقة والمجاز . يدوران على اعتبار اللغة وواضعها .

والذى تحرر عندى وهو ما رد به الابهرى : أن الفاعل الواقع فى التخاطب لا سيما فى اللسان العربى هو من تلبس بالفعل وقام به أوكان سببا قابليا عاديا فى الاثبات ، أو ما هو فى حكمه ، وليس هذا على الاطلاق بل اذا كان الشىء موجدا وفاعلا حقيقيا . وكان له أمر آخر قام به أو نسب له على الوجه المذكور فانه يسند حقيقة الى الثانى دون الأول ، فان لم يكن الا الأول كخلق الله السموات يسند حقيقة الى الموجد ، وانما الكلام ومحل النزاع هو الأول ، ثم السبب القابل ليس المراد به ما هو كذلك حقيقة بل هو وما جرى مجراه ، ولذا عوله فيه على عادة العرب فى عرف تخاطبهم ، ومن كان له دراية وطالع أساس البلاغة للعلامة وفقه اللغة للثعالبى وقف على سر هذا (٢٠٤ — ٢٠٦ طراز المجالس) .

والخلاصـــة :

أن أسلوب المجاز العقلى قد اختلف فيه العلماء :

١ ــ فسيبويه ومن تابعه يقولون : هو على تقدير محذوف ــ نام ليلى أى نمت فى ليلى •

٢ ــ وأناس يقولون : المجاز فى الفعل وحده وهو « نام » ••• فهو فيه مجاز لغوى لا غير ، ويرد عبد لقاهر هذا الرأى ردا مطولا فى كتابه « الأسرار » •• ولكن الأبهرى اتخذ ذلك مذهبا فى شرحه على العضد ، ورد على ذلك الخفاجى فى « طراز المجالس » •

٣ ــ وآخرون يقولون : المجاز فى الفاعل وحده وأنه على تشبيهه بالفاعل الحقيقى ، وعبد القاهر يرد على ذلك ، ولكن الزمخشرى يلوح كلامه باعتقاده هذا الرأى ، والسكاكى ذهب اليه وحده ، وجعله مذهبا له فى التخلص من المجاز العقلى •

٤ ــ وعبد القاهر يرى أن المجاز فى الاسناد ، وأن تشبيه الفاعل غير الحقيقى بالفاعل الحقيقى انما هو عبارة على العلاقة فى هــذا التجوز العقلى وأن تقدير المضاف فى أســلوب المجاز العقلى صــار كالشريعة المنسوخة ، فهو غير منظور اليه الآن ••••

ولا شك أن رأى عبد القــاهر هو أمثل هذه الآراء فى فهم بلاغة هذا الأسلوب •

حول المجاز العقلى

١ ــ الحقيقة العقلية والمجاز العقلى عند الخطيب من صفة الاسناد لا الكلام ، حيث قال : « ثم الاسناد منه حقيقة عقلية ومجاز عقلى » لأن المتصف بالحقيقة والمجاز فى الواقع هو ما تســلط عليه التصرف

العقلى وهو الاسناد ، فاتصاف الكلام بهما بالتبع للأمر العقلى وهو الاسناد ، واتصاف الاسـناد بهما بطريق الأصالة ، فجعل الاسـناد معروضا لهما .. وذلك أولى — لكون ذلك بالأصالة — من جعل الكلام معروضا لهما لأن ذلك بالتبع ، وكلام الزمخشرى يؤيد الخطيب . أما السكاكى فجعلهما صفتين للكلام حيث قال : « المجاز العقلى هو الكلام المفاد به خلاف ما عند المتكلم الخ » ، والحقيقة العقلية هى الكلام المفاد به ما عند المتكلم الخ » .

أما كلام عبد القاهر من قوله : « مجاز واقع فى الاثبات » وقوله « الاضافة فى الاسم كالاسناد فى الفعل » ، فظاهره أن المتصف بذلك هو الاسناد . ولكن قوله فى حد الحقيقة فى الجملة : « كل جملة وضعتها على أن الحكم المفاد بها على ما هو عليه فى العقل وواقع موقعه فهو حقيقة » ، وفى حد المجاز العقلى فيها : « فكل جملة أخرجت الحكم المفاد بها عن موضعه فى العقل لضرب من التأويل فهو مجاز » ، وقوله « لا يجوز الحكم على الجملة بأنها مجاز الا بأحد الأمرين » ، كل ذلك يوهم أنهما عنده صفتان للكلام لا للاسناد .

ولكن الحق أن عبد القاهر يجعلهما وصفا للاسناد بالذات فاذا وصف بهما الكلام فباعتبار اشتماله على الاسناد ، فرأيه مؤيد لما سبق عن الخطيب ، وهذا ظاهر مما نقله ابن الحاجب فى رأى الشيخ عبد القاهر أيضا من أنه يجعلهما وصفا للاسناد ، كما أن ذلك هو رأى جمهور علماء البلاغة ، ولكن السعد يرى أن عبد القاهر يجعلهما وصفا للكلام كصاحب المفتاح ، والحق أن السعد فى ذلك قد وهم بظاهر بعض كلام عبد القاهر ، فالحق أن عبد القاهر يرى أنهما وصفان للاسناد . ثم قال السعد : « قال الخطيب : وانما اخترنا أنهما صفة للاسناد لأن نسبة الشىء الذى يسمى حقيقة أو مجازا الى العقل على هذا لنفسه بلا واسطة وعلى قولهما (عبد القاهر والسكاكى) لاشتماله على ما ينسب الى العقل أعنى الاسناد ، يعنى الخطيب أن

تسمية الاسناد حقيقة عقلية انما هى باعتبار أنه ثابت فى محله ومجاز باعتبار أنه متجاوز اياه والحاكم بذلك هو العقل دون الوضع لأن اسناد كلمة الى كلمة شيء يحصل بقصد المتكلم دون واضع اللغة . فان ضرب مثلا لا يصير خبرا عن زيد بواضع اللغة بل بمن قصد اثبات الضرب فعلا له وانما الذى يعود الى الواضع أنه لاثبات الضرب دون الخروج وفى الزمان الماضى دون المستقبل (١) فالاسناد ينسب الى العقل بلا واسطة والكلام ينسب اليه باعتبار أن اسناده منسوب اليه » .. فالسعد يثبت هنا أمرين :

١ — أن المجاز فى الاسناد عقلى وكذلك الحقيقة فى الاسناد عقلية .

٢ — أن المجاز والحقيقة العقليين راجعان الى الاسناد .

فالخلاصة أنهما وصفان للاسناد الا عند السكاكى على أن كلام السكاكى ربما أمكن تأويله ، أفلا تراه يقول : المجاز العقلى هو الكلام المفاد به خلاف ما عند المتكلم من الحكم فيه لضرب من التأويل والحقيقة هى الكلام المفاد به ما عند المتكلم من الحكم فيه فيجعل مناطهما الحكم (وهو الاسناد) ، ويسميه — تبعا لعبد القاهر — أحيانا مجازا حكميا ومجازا فى الاثبات ، أفلا يدل ذلك على أن السكاكى يعتبر التجوز انما هو أولا فى الاسناد ، فيكون على هذا وصفا له ، قال السبكى : بل لا يصح من جهة المعنى الا ذلك .

الحق أن جمهور علماء البلاغة على أن المجاز والحقيقة العقليين انما هما وصف للاسناد ، وما يوهمه كلام السكاكى فمؤول ، وتأويل ما يوهمه عبد القاهر فى ذلك أظهر فى باب التأويل اذ لا يحتاج فى تأويله الى دليل .

---

(١) راجع ٣٥٥ و ٣٥٦ اسرار .

٢ — ذكر الخطيب المجاز العقلى فى علم المعانى وذكره السكاكى فى علم البيان . أما حجة الخطيب فهى أن المجاز العقلى داخل فى تعريف علم المعانى لا البيان فكانه مبنى على أنه من الأحوال المذكورة فى تعريف المعانى كالتأكيد والتجريد عن المؤكدات ، فهو من أحوال اللفظ — بواسطة أنه من أحوال الاسناد — التى بها يطابق اللفظ مقتضى الحال ، قال السعد : « وفيه نظر لأن علم المعانى انما يبحث عن الأحوال المذكورة من حيث انها يطابق بهـا اللفظ مقتضى الحال وظاهر أن البحث فى الحقيقة والمجاز العقليين ليس من هـذه الحيثية — والا لو كانا من الأحوال المعهودة لذكر المصنف الحال التى تقتضى الحقيقة والمجاز كما ذكر فى غيره من المباحث الآتية — فلا يكون داخلا فى علم المعانى والا فالحقيقة والمجاز اللغويان أيضا من أحوال المسند أو المسند اليه » ، هذا اعتراض قوى من السعد ، تخلص منه بعض العلماء بحجة واهية وهى أن الخطيب انما ذكر المجاز والحقيقة العقليين هنا على طريق الاستطراد لا غير أى لا لمناسبة .

أما حجة السكاكى فى ذكرهما فى علم البيـان فقوية ، قالوا : لما كان علم البيان موضوعا لبيان ما يعرف به كيفية ايراد المعنى الواحد بطريق مختلفة فى وضـوح الدلالة واختـلاف الطرق يكون بالحقيقية والمجازية فى الجملة ، أوردهما فى علم البيان ، ولكن الخطيب — كما سبق — راعى أنهما من أحوال الكلام المفيد ، باعتبار عروضهما لاسناده الذى به صار مفيدا ، والكلام المفيد تراعى فيه المعانى الزائدة على أصل المراد ليطابق بها الكلام مقتضى الحـال ، بخلاف الحقيقة والمجاز اللغويين فليسا من أحوال الكلام المفيد بل من أحوال أجزائه ، والمفيد من حيث انه مفيد بالاسناد هو المعروض للمعانى الزائدة على أصل المعنى المراد ليطابق بها مقتضى الحال كما تقدم .

قال ابن يعقوب : لكن يرد على هذا أنهما انما يكونان من علم المعانى ان ذكرا فيه من حيث المطابقة لمقتضى الحال ، ولم يذكرا فيه

من تلك الجهة والحيثية بل من حيث تفسيرهما وذكر أقسامهما ، وقد يجاب عن هذا بأن تصور حقيقتهما يدرك معه بسهولة ما يذكر فى علم المعانى من كيفية الاستعمال للمطابقة لمقتضى الحال لأنه اذا علم أن المجاز يفيد تأكيد الملابسة علم أنه لا يعدل اليه عند اقتضاء المقام لذلك التأكيد مثلا فكأنه ذكر ولم يصرح به لوضوحه •

الحق مع السكاكى فى عدهما من علم البيان ، وما قيل عن عدهما فى المعانى تكلف محض ، ولابن السبكى رأى غريب فى توجيه حجة السكاكى فى عدهما من البيان ، قال : جعلهما السكاكى فى علم البيان لأنه كان ينكر هذه الحقيقة وهذا المجاز فلذلك ذكرهما ثم •

٣ — المجاز والحقيقة العقليان وصف للاسناد مطلقا سواء كان خبريا أو انشائيا ولهذا قال الخطيب « ثم الاسناد منه حقيقة عقلية الخ » فأتى بالاسم الظاهر دون الضمير — وان كان المحل للضمير حيث كان السياق أن يقول ثم منه — لئلا يتوهم عوده على الاسناد المقيد بالخبرى فى قوله « أحوال الاسناد الخبرى ، وارتكاب الاستخدام فى الكلام خلاف الأصل » ، ولا يرد أن المعرفة اذا أعيدت بلفظ المعرفة كانت عين الأولى فما لزم على الاتيان بالضمير لازم على الاتيان بالاسم الظاهر ، لأنا نقول ليس هذا كليا بل مقيد بما اذا خلا عن قرينة المغايرة • ومما يدل على أن المراد الاسناد مطلقا الأمثلة الآتية من نحو : « يا هامان ابن لى صرحا » • وليس المراد خصوص الخبرى كما قد يتوهم من كون البحث فى الاسناد الخبرى •

والحقيقة والمجاز العقليان يقتضى ذكرهما فى الاسناد الخبرى وجعلهما وصفا للاسناد مطلقا — انشائيا كان أو خبريا — اختصاصهما بالاسناد التام ، لأن الانشاء والاخبار وصفان له • مع أنهمالا يختصان بالاسناد التام بل يكونان فى الاسناد الناقص كما فى اسناد المصدر للفاعل وللمفعول به مثل أعجبنى ضرب زيد وجرى النهر وأعجبنى انبات الله البقل أو انبات الربيع البقل •

وأجاب الحفيد بأن المراد بالانشـائى والاخبارى الاسـناد فى الجملة الانشائية والاخبارية سواء كان تاما أو ناقصا فيتناول ما ذكر ، فالمراد بالاسناد مطلق النسبة مجازا مرسلا من اطلاق المقيد على المطلق فان الاسناد هو النسبة التامة واستعمل فى مطلق النسبة : تامة كالاسنادية أم غير تامة مثل الاضافية والايقاعية . وأجاب المطول بأن المراد بالاسناد أعم من أن يكون صريحا أو مستلزما .

قال الخطيب : والمجاز العقلى غير مختص بالخبر بل يجرى فى الانشـاء ، كقوله تعـالى « ياهامان ابن لى صرحا » وقوله تعالى : « فأوقد لى يا هامان على الطين فاجعـل لى صرحا » وقوله تعـالى : « ولا يخرجنكما من الجنة فتشقى » .. وقد سبق الى ذلك السكاكى (١٦٩ المفتاح) .

وقال السعد نقلا عن السـكاكى : لمـا كان تقييـده بالمجاز فى الاثبات وايراده فى أحوال الاسناد الخبرى يوهم اختصاصه بالخبر لأن الاثبات لا يتحقق فى الانشـاء اذ الاثبات يقابل الانتزاع ، وكل منهما حكم ، ولا حكم فى الانشاء لأنه من قبيل التصـورات ، قال الخطيب وهو غـير مختص بالخبـر بل يجرى فى الانشـاء كما فى « يا هامان ابن لى صرحا » أى قصرا عاليا .

فالمجاز العقلى يدخل فى الخبر ، ويدخل فى الانشاء ويظهر ذلك فى دخوله فى أنواع الانشاء الآتية ١ — الأمر ٢ — النهى ٣ — الاستفهام عند ابن يعقوب لا السبكى ٤ — أما النداء فلا تقدر على دخول المجاز العقلى فيه كما قال السبكى ٥ — وأما غير الانشاء الطلبى : فالقسم لا تكاد تقدر عليه كما ذكره السبكى ، والعلاقة فى المجاز العقلى فى الانشاء كما هى فى الخبر ، فقد تكون السببية مثل ابن لى صرحا أو المكانية مثل ليت النهر جار أو الزمانية مثل ليصم ليلك أو الآلة مثل لتقطع السكين الخ .

٤ — ومما سبق الاشارة اليه فى الملاحظة السابقة نعلم أن المجاز العقلى أعم من أن يكون فى النسبة الاسنادية أو غيرها ، فكما أن اسناد الفعل الى غير ما حقه أن يسند اليه مجاز ، فكذا ايقاعه على غير ما حقه أن يوقع عليه ، واضافة المضاف الى غير ما حقه أن يضاف اليه ، لأنه جاز موضعه الأصلى ، فالمذكور فى الخطيب اما تعريف للمجاز العقلى فى الاسناد خاصة أو لمطلقه باعتبار أن يجعل الاسناد المذكور فى التعريف أعم من أن يدل عليه الكلام بصريحه كما مر أو يكون مستلزما له كما فى : « شقاق بينهما » فانه جعل البين شقاقا فى الآية ، وكما فى « مكر الليل والنهار » حيث جعل الليل والنهار ماكرين ، وكما فى يا سارق الليلة أهل الدار فانه جعل الليل مسروقة ، وكما فى « ولا تطع أمر المسرفين » ، حيث جعل الأمر مطاعا ... وكذا فيما جعل فيه الفاعل المجازى تمييزا كقوله تعالى « أولئك شر مكانا وأضل سبيلا » لأن التمييز فى الأصل فاعل ، قال السعد : واعلم أن المجاز العقلى قد يدل عليه صريحا كما مر ، وقد يكون كناية كما ذكروا فى قولهم « سل الهموم » أنه من المجاز العقلى حيث جعل الهموم مخزونة بقرينة اضافة التسلية اليها ، فافهم ولا تقصر المجاز العقلى على ما يفهم من ظاهر كلام السكاكى والخطيب ، وقال الدسوقى : المجاز العقلى والحقيقة العقلية يجريان فى الاضافة مثل أعجبنى جرى الماء فى النهر وجرى النهر ، وفى الايقاعية مثل نومت ابنى فى الليل ونومت الليل أى أوقعت النوم عليه ، فلا تختص الحقيقة والمجاز بالنسبة الاسنادية كما يوهمه كلام الخطيب ، لأنهما كما يجريان فى الاسنادية يجريان فى الاضافية وهى النسبة الواقعة بين المضاف والمضاف اليه ، وفى الايقاعية وهى نسبة الفعل للمفعول فان الفعل المتعدى واقع على المفعول أى متعلق به — ولكن يلاحظ أن ظاهر هذا يقتضى أن الايقاعية غير تامة مع أن نسبة الفعل للمفعول انما تعتبر بعد التمام فكان الأولى الاقتصار على الاضافية الا أن يقال انهم التفتوا الى نسبة الفعل للمفعول فى حد ذاته بقطع النظر عن نسبته

للفاعل ولا شك أنها غير تامة .. فنحو أعجبني جرى الأنهار من النسب الاضافية وهو مجاز عقلى وكذلك أعجبنى انبات الربيع البقل ، فهما مجازان فى النسبة الاضافية لكن هذا اذا جعلت الاضافة بمعنى اللام وأما لو جعلت بمعنى فى فلا يكون مجازا بل حقيقة ، فلابد من النظر لقصد المتكلم ونفس الأمر فان كان ما قصده مناسبا بحسب نفس الأمر فحقيقة والا فمجاز .. ومجرد مناسبة نوع من الاضافة لا يقتضى أن تكون حقيقة ما لم يقصده .

٥ — حديث المجاز العقلى أنه تجــوز فى الاســـناد كما قال الخطيب أو تجوز فى النسبة أعم من أن تكون اســـنادا أو اضـــافة أو ايقاعا مصرحا بها أو مكنية عنهـــا كما رأى الســـعد ، فما الحكم اذا فى :

(أ) وصف الفاعل أو المفعول بالمصدر نحو رجل عدل ، فانما هى اقبال .

(ب) وصف الشيء بوصف محدثه وصاحبه مثل الكتاب الحكيم والأسلوب الحكيم ، فان المبنى للفاعل قد أســـند الى المفعول لكن لا الى المفعول الذى يلابسه ذلك المسند بل فعل آخر من أفعاله مثل أنشأت الكتاب .. فان كلامه ظاهر فى أن المفعول الذى يكون الاسناد اليه مجازا يجب أن يكون بما يلابسه ذلك المسند .. وكذا ما أسند الى المصدر الذى يلابسه فعل آخر من أفعـــال فاعله نحو الضـــلال البعيد فان البعيد انما هو الضال وكذا العـــذاب الأليم فالأليم هو المعذب فوصف به فعله مثل جد جده ، كذا فى الكشاف وظاهر أن هذا المصدر مما يلابسه ذلك المسند .

أما الجواب عن الأول فقد قالوا : انه ليس بحقيقة ولا مجاز ، لأنه اسناد الى المبتدأ — والاسناد اليه ليس بحقيقة ولا مجاز عند الخطيب — هذا بعيد ، والحق أنه مجاز ، كما ذهب اليه عبد القاهر

ومن سبقه ، وكما يمليه الذوق السليم ، قال عبد القاهر فى الدلائل :
« لم ترد بالاقبال والادبار غير معناهما حتى يكون المجاز فى الكلمة وانما المجـــاز فى أن جعلتهـــا لكثرة ما تقبل وتدبر كأنها تجسمت من الاقبال والادبار ، فليس المراد تشبيهها بالاقبال حتى يكون تشبيها بليغا ، ولا المراد ذات اقبال ولو كان صحيح المعنى ، لأن ذلك يفيت المبالغة المقصودة للشاعر وهى كونها لكثرة وقوع الاقبال والادبار منها صارت نفس كل منهما » •

وأما الجواب عن الثـــانى فهو أن الملابســـة أعم من أن تكون بواسطة حرف أو بدونها ، وهذه الصور من قبيل الأول لأن المعنى هو حكيم فى أسلوبه وكتابه وبعيد فى ضلاله وأليم فى عذابه فيكون مما بنى للفاعل وأسند الى المفعول بواسطة ، فهو داخل فى المفعول ليكون اسناد ما للفاعل له مجازا لأنه لا يتوصـــل اليه ذلك المســـند الا بحرف فالمراد بالمفعول ما يتوصـــل اليه فعل الفاعل بنفســـه أو بحرف ، فهو مجاز عقلى علاقته المفعولية •• فالخلاصة أن الاسناد فى :

(أ) الانسان حيوان ليس بحقيقة ولا مجاز عند الخطيب •

(ب) هى اقبال وادبار مجاز عند عبد القاهر والسكاكى وعنـــد السـعد •

(ج) كتاب حكيم رده السعد الى المجـــاز •

(د) نام ليلى أو ليلى نائم الاسناد فيه مجاز قطعا عند الجميع •

فالخطيب أخرج الاسناد الذى بين المبتدأ والخبر عن أن يكون حقيقة أو مجازا ، ولذلك قال ثم الاســـناد منه حقيقة ومنه مجـــاز ولم يقل اما حقيقة واما مجاز ، وذلك لأن المتبادر من هذه العبارة فى تقاسيم الأشياء هو الانفصال الحقيقى (مانعة جمع وخلو معا) أو المـــانع من الخلو اذ بأحدهما تصير الأقسام مضبوطة ، دون المـــانع

من الجمع اذ لا يعلم به عدة الأقسام قطعا ، فلو أوردت اما هنا لدلت على انحصار الاسناد فى الحقيقة والمجاز والمصنف لا يقول به .

قال السبكى : قال الخطيب : اسناد ما ليس فعلا ولا متصلا به لا يسمى حقيقة ولا مجازا مثل الانسان جسم ، وليس كما قال بل كل خبر ففيه الاسناد وما ذكر يؤدى الى نفى الاسناد لأن من أثبت الحقيقة والمجاز العقليين فتقسيمه الاسناد اليهما منفصلة حقيقية مانعة جمع وخلو فكل اسناد ليس حقيقة ولا مجازا لا وجود له ، ومن وقف على حدى الاسناد الحقيقى والمجازى عرف ذلك ، ثم نقول : الانسان جسم فيه معنى الفعل باعتبار رجوعه الى الاسناد المعنوى كما قدروا فى زيد أسد زيد جرىء ، وكذلك يقدر فى الجميع .

هذا ويجعل ابن قتيبة مثل نبت البقل وطالت الشجرة من المجاز ، ومثل قوله فى الغرابة كلام صاحب الذريعة من أنه ينفى المجاز العقلى كافة ، قال السبكى : وهما قولان غريبان آخذان بطرفى الافراط والتفريط والحق بينهما .

وقال الدسوقى : الظاهرية يزعمون عدم وقوع المجاز العقلى فى القرآن كاللغوى لايهام المجاز الكذب والقرآن منزه عنه .. والرد عليهم أنه لا ايهام مع القرينة .

وقال ابن السبكى : فى أنبت الربيع البقل اذا لم يكن من كافر ولا كذبا أقوال :

(أ) المجاز لغوى فى أنبت وهو رأى ابن الحاجب .

(ب) المجاز لغوى فى الربيع وهو رأى السكاكى .

(جـ) المجاز عقلى فى الاسناد وهذا رأى عبد القاهر والمصنف .

(د) أنه تمثيل فلا مجاز فيه لا فى الاسناد ولا فى الافراد بل هو كلام أورد ليتصور معناه فينتقل الذهن فيه الى انبات الله تعالى وهو اختيار الامام فخر الدين . انتهى كلام السبكى ، ونضيف اليه رأيا خامسا وهو أنه حقيقة ، وهو رأى صاحب الذريعة .

نشأة البيان العربى

١ — كان للعرب فى حياتهم الأولى ذوق وفيهم طبع ، كانوا بهما فى غنى عن الشرح والتحليل والتوجيه والتعليل لأحكام النقد ولأصول البيان العربى ومذاهبه ، وكذلك كانت أصول البيان بعيدة عن البحث والدراسة والتقرير •

وفى ظلال الحيـاة الاسـلامية اختلطت العنـاصر ، وتمازجت الثقافات ، فلقحت العقول ، وأصابت الألسنة آثار من اللكنة واللحن ، وأخذ أئمة العربية يعملون فى صبر وعزيمة فى وضع أصول النحـو العربى ، وجمع مواد اللغة العزيزة •• وصحب ذلك وتلاه دراسات أخرى تتناول البيـان العربى وأصـوله ومذاهبه بالبحث والتحليل ، وأخذت تتكون من تلك الدراسات النواة الأولى للبيان العربى ، وظل التقـدم الفكرى والنضـوج الأدبى والعلمى يسـير بهذه البحوث والدراسات نحو الكمال المنشـود بخطوات كبيرة •• وكانت الثقافة البيانية تنمو حين ذاك بجهود ثلاث طبقات :

١ — الأولى طبقة رواة وعلماء الأدب من البصريين والكوفيين والبغداديين ، من أمثال : خلف والأصمعى وأبى زيد وأبى عبيدة ويحيى ابن نجيم وعمرو بن كركرة ، وأستاذهم أبو عمرو بن العلاء أعلم الناس بالعرب والعربية (١) ، ومن عامة الرواة الذين لا يقفون الا على البليغ الساحر من الأسـاليب كما يقول الجـاحظ دون النحويين واللغويين والاخباريين الذين لم يتجهوا هذا الاتجاه (٢) •• وبجوار هؤلاء أئمة الشعراء (٣) وغيرهم من الخطباء ورجال الأدب الذين تثقفوا بالثقافة العربية •

---

(١) ١/٢٠٩ البيان • (٢) ٣/٢٢٤ البيان • (٣) ١/٥٤ البيان •

ب — والثانية طبقة الكتاب الذين لم ير الجاحظ قوما أمثل طريقة فى البلاغة منهم والذين التمسوا من الألفاظ ما لم يكن وحشيا ولا سوقيا (١) ، ورأى الجاحظ البصر بهذا الجوهر من الكلام فيهم أعم (٢) ، وحكم مذهبهم فى النقد (٣) ، ومثلهم المعتزلة وفرق المتكلمين الذين رآهم الجاحظ فوق أكثر الخطباء وأبلغ من كثير من البلغاء (٤) وكان بعضهم من عناصر عربية وتثقفوا بثقافة أجنبية ، والآخرون من عناصر أجنبية تثقفت بالثقافة العربية ، مما كان له أثره فى فهم أصول البيان وفى توجيه دراسته وبحوثه وفى الدعوة الى آراء فى الأدب توائم ثقافتهم وعقليتهم ، وكان بعضهم يلقن مذاهبه الأدبية العامة للتلاميذ وشداة الأدب ، كما ترى فى محاضرة بشر بن المعتمر المعتزلى م ٢١٠ هـ فى أصول البلاغة (٥) ، والتى يقول الجاحظ عنها ان بشرا مر بابراهيم بن جبلة بن مخرمة (٦) وهو يعلم الفتيان الخطابة فوقف بشر فظن ابراهيم أنه انما وقف ليستفيد فقال بشر : اضربوا عما قال صفحا ثم دفع اليهم صحيفة من تحبيره وتنميقه فى أصول البلاغة وعناصر البيان (٧) ، ومن رجال هذه الطبقة : أبو العلاء سالم مولى هشام وعبد الحميد الكاتب أو الأكبر كما يقول الجاحظ (٨) وابن المقفع وسهل ابن هرون (٩) والحسن والفضل (١٠) ابنا سهل ويحيى البرمكى وأخوه

---

(١) ١/١٠٥ البيان (٢) ٣/٢٢٥ البيان . (٣) ١/٢٤٠ البيان .

(٤) ١/١٠٦ البيان (٥) ١/١٠٤ ومابعدها البيان، ٢٢٨ ومابعدها صناعتين .

(٦) يعده الجاحظ من الخطباء الشعراء ١/٥٥ البيان .

(٧) ولبشر كتاب فى نظم كليلة ودمنة . (٨) ١٥١ ج ١ البيان .

(٩) كان سهل يقول : سياسة البلاغة أشد من البلاغة (١/١٤٤ البيان ، ٣/٣٢ العقد) .

(١٠) ذكر الحصرى كثيرا من بلاغته (١٦ — ١٩ ج ٢ زهر) .

جعفر (١) وأيوب بن جعفر وأحمد بن يوسف وعمر بن مسعدة (٢) وابن الزيات وسواهم •

وكان لهذه الطبقة أثرها فى بحث عناصر البيان وبلاغة الكلام •• ونستطيع أن نعرف آثار هاتين الطبقتين فى دراسات البيان بالرجوع الى آرائهم المبثوثة فى شتى أصول الأدب ، والتى يمكننا أن نذكر لك هنا طرفا منها ، وان شئت فاقرأ جواب صحار لمعاوية حين سأله عن البلاغة (٣) ، ويروى قبل هذا بكثير أن عامر بن الظرب سأل حممة بن رافع من أبلغ الناس ؟ • فقال ، من حلى المعنى المزيز باللفظ الوجيز وطبق المفصل قبل التحزيز (٤) واقرأ تحديد المفضل الضبى للايجاز (٥)، وتفسير ابن المقفع للبلاغة (٦) ، وحوار الشمرى لعمرو بن عبيد فى البلاغة (٧) ، وتعريف الأصمعى للبليغ (٨) ، ورأى ابراهيم بن محمد فى البلاغة (٩) ، وتعريف جعفر البرمكى للبيان (١٠) ، وتعريف العتابى للبلاغة (١١) ، وتفضيل الجاحظ لرأيه (١٢) ، ووصفة الرشيد للبلاغة (١٣) ، ورأى شبيب بن شيبة فى تفضيل بلاغة جودة القطع أو القافية على جودة الابتداء (١٤) ، ووصف ابن المقفع كلام الأعراب (١٥) ، الذين أعجب

---

(١) وصف الجاحظ بلاغته واشاد به (٨٥ و ١/٩١ البيان ، ٢/٨١ زهر) ، وكان يؤثر الايجاز (١/٨١ البيان ، ١/١٧٧ الكامل) ، ونوه به سهل بن هرون (٢/١١ زهر) • (٢) نوه المأمون ببلاغته (٣/٢٦٤ زهر)•

(٣) ١/٨١ البيان ، وراجع ٢/١٨ الكامل •

(٤) ١/٢١٦ العمدة ، ٢/٢٨٠ الأمالى للقالى • (٥) ١/٨١ البيان•

(٦) ٩١ البيان ، ١/٢١٤ العمدة ، ١٥ — ١٧ صناعتين •

(٧) ١/٩٠ البيان ، ١/١٤٢ زهر ، ٤٧ الرسالة العذراء •

(٨) ١/٨٦ البيان ، ١/٢٢٠ العمدة • (٩) ١/٧٥ البيان •

(١٠) ١/٨٥ البيان ، ٤٢ — ٤٧ صناعتين •

(١١) ١/٩٠ ، و١/١٥٧ البيان • (١٢) ١/١٢١ البيان •

(١٣) ٣/٢٦٤ زهر • (١٤) ١/٨٦ البيان • (١٥) ٢/١١٨ زهر •

الجاحظ ببلاغتهم (١) ووصف الحسن بن وهب بلاغة أبى تمام (٢) ، وتعريف المأمون للبليغ بأنه من كان كلامه فى مقدار حاجته ولا يجيل الفكرة فى اختلاس ما صعب عليه من الألفاظ ولا يتعمد الغريب الوحشى ولا الساقط السوقى (٣) ، وقول خالد بن صفوان : أبلغ الكلام ما لا يحتاج الى الكلام الخ (٤) ، وتعريفه للبلاغة بأنها التقريب من المعنى البعيد أو التباعد عن خسيس الكلام والدلالة بالكبير على الكثير، وتعريف ابن عتبة لها : بأنها دنو المأخذ وقرع الحجة والاستغناء بالقليل عن الكثير ، وعرفها الخليل : بأنها ما قرب طرفاه وبعد منتهاه ، وعرفها ابراهيم الامام : بأنها الجزالة والاصابة وعرفها ابن المقفع : بأنها قلة الحصر والجراءة على البشر ، الى غير ذلك من شتى هذه التحديدات (٥) ، ويقول أبو داود الأيادى : رأس الخطابة الطبع وعمودها الدربة وجناحاها رواية الكلام وحليها الاعراب (٦) الخ ، ويقول الخليل : كل ما أدى الى قضاء الحاجة فهو بلاغة فان استطعت أن يكون لفظك لمعناك طبقا ولتلك الحال وفقا وآخر كلامك لأوله مشابها وموارده لمصادره موازنة فافعل واحرص أن تكون لكلامك متهما وان ظرف (٧) ، ووصية أبى تمام للبحترى تدخل فى هذا الباب (٨) ، ويقول عبد الملك بن صالح م ١٩٩ هـ : البلاغة معرفة رتق الكلام وفتقه (٩) ، وقال ابن الرومى : البلاغة حسن الاقتضاب عند البداهة والغزارة عند الأصالة(١٠) ، ويقول البحترى : خير الكلام ما قل وجل ودل ولم يمل(١١)،

---

(١) ١/١١٠ البيان . (٢) ٣/٢٦٣ زهر .
(٣) ٤٢٣ صناعيتين . (٤) ٣٥ و ٣٦ الرسالة العذراء .
(٥) راجع : ٤٤ — ٤٦ الرسالة العذراء ، ١/٧٥ البيان ، ٢ و ٣ و٢٢ ، ٣/٢٣ العقد ، ١٤٠ — ١/١٥٠ زهر ، ٨٧ — ٢/٩١ ديوان المعانى، ١٠٩ ، ٢٠٢ اعجاز القرآن ، ٢١٣ — ١/٢٢١ العمدة .
(٦) ١/١٤٧ زهر ، ١/٥١ البيان .
(٧) ٤٨ الرسالة العذراء (٨) ١/١٥١ زهر
(٩) ٣/١٦٨ البيان (١٠) ٤١ الصناعتين
(١١) ١/٣٦ المستطرف

ويقول الثعالبى بعد : خير الكلام ما قل وجل ولم يمل (١) ، ويقول ابن الأعرابى : البلاغة التقرب من البغية ودلالة قليل على كثير (٢) .

جـ — وأما الطبقة الثـالثة فهى طبقة المفكرين والمثقفين الذين تثقفوا بثقافة أجنبية واسعة ، وتأثروا كل التأثر بآداب الأمم الأخرى، وترجموا آراءهم فى البيان ومناهجه الى اللغة العربية ، أو ألفوا كتبا تبحث فى هذه الاتجاهات ، وهؤلاء قد عاشـوا فى البيئة الاسـلامية وأثروا فى النقد والأدب والبيان ودراساته وتطوره تأثيرا واضحا كبيرا، يمكننا أن نذكر شيئا عن مجهود هذه الطبقة فى خدمة البيان :

أهم عمل علمى قامت به هذه الطبقة : هو ترجمة كتابى الخطابة والشعر لأرسـطو الى العربية ، فأما الخطـابة فهو أصـل البلاغة ودراساتها ، وقد « أصيب بنقل قديم ونقله اسحاق بن حنين م ٢٩٨ هـ وكذلك نقله ابراهيم بن عبد الله وفسره الفارابى م ٣٣٩ هـ » (٣) ، وأما كتاب الشعر فقد اختصره الكندى م ٢٥٣ هـ ، ونقله يحيى بن عدى ومتى فى القرن الرابع من السريانية الى العربية (٤) ... وقد ألفوا فى صناعة الشعر ، وللكندى رسالة فى صناعة الشعر (٥) ، ولأبى زيد البلخى كتاب بعنوان « صناعة الشعر » أيضا (٦) ، وكذلك لأبى هفان(٧).

---

(١) ١/٢١٨ العمدة (٢) ١/٢١٧ العمدة (٣) ٣٤٩ فهرست .

(٤) ٣٤٩ و ٣٥٠ فهرست ، وتجد تحليلا كاملا للكتاب فى (٦٤—١٣٦ قواعد النقد الادبى) ، وهو لم يصل الينا كاملا وليس من شك فى أن للكتاب جزءا ثانيا قد فقد (٦٨ المرجع) ، ونكاد نجزم أن ارسطو اراد بكتابه هذا أن يكون ردا على افلاطون فى رايه الذى ذهب اليه وهو ان الشعر عمل غير جدير بمقام الذكاء البشرى وانه من اشد بواعث الفساد (٧١ المرجع) ، ويقول ارسطو فى اوله : « سأتكلم هنا عن فن الشعر وانواعه المختلفـة ووظائف كل نوع وفى البناء الصحيح للمنظومة وعدد اجزائها وخصائص كل منها » (٧٩ المرجع) ، وترجمه ابن سينا وابن رشد (٢٤ وما بعدها مقدمة نقد النثر).

(٥) ٣٥٦ فهرست . (٦) ١٩٨ فهرست . (٧) ٢٠٧ فهرست .

وهناك آراء كثيرة مأثورة عن هذه الطبقة فى البلاغة وعناصرها وهى متفرقة فى شتى كتب الأدب ومصادره ، وتجد فى البيان والعمدة وسواهما أن صاحب اليونانيين عرف البلاغة بأنها تصحيح الأقسام واختيار الكلام ، وعرفها الرومى بأنها وضوح الدلالة وانتهاز الفرصة وحسن الاشارة ، وعرفها الفارسى بأنها معرفة الوصل من الفصل ، وعرفها الهندى بأنها البصر بالحجة والمعرفة بمواضع الفرصة الخ ، وعرفها أرسطو بأنها حسن الاستعارة ، ويعرفها جالينوس بأنها ايضاح المفصل وفك المشكل ، واقرأ البلاغة كما يراها حكيم الهند (١) ، ويقول حكيم : البلاغة معرفة السليم من المعتل وفرق ما بين المضمن والمطلق وفصل ما بين المشترك والمفرد (٢) ، ويعرفها سقراط بأنها استكشاف الحقائق (٣) ، ويقسمها الكندى ثلاثة أنواع : فنوع لا تعرفه العامة ولاتتكلم به ، ونوع بالعكس ، ونوع تعرفه ولاتتكلم به وهو أحمدها(٤)، ويقول : يجب للبليغ أن يكون قليل اللفظ كثير المعانى(٥) ، وذكر بزرجمهر فضائل الكلام ورذائله فقال : فضائله أن يكون صدقا وأن يقع موقع الانتفاع به وأن يتكلم به فى حينه وأن يحسن تأليفه وأن يستعمل منه مقدار الحاجة ، ورذائله بالضد (٦) الخ ، وقال أبرويز لكاتبه : الكلام أربعة : سؤالك الشىء وسؤالك عن الشىء وأمرك بالشىء وخبرك عنه ، فاذا طلبت فأسجح واذا سألت فأوضح واذا أمرت فأحكم واذا أخبرت فحقق ، وقال أيضا : واجمع الكثير مما تريد فى القليل (٧) ، ولعل ثعلبا حين ذكر فى صدر كتابه « قواعد الشعر » أقسام الشعر وأنها أمر ونهى وخبر واستخبار (٨) قد تأثر بذلك الرأى .

---

(١) ٧٨ و ١/٧٩ البيان ، ٢٠ — ٣٨ صناعتين ، ١/١٤٤ زهر .
(٢) ٢/٨٨ البيان والتبيين .   (٣) أصول النقد الادبى للشايب .
(٤) ١/٢١٩ العمدة .   (٥) ١/٣٥ المستطرف .
(٦) ١٨٣ ، الموازنة .   (٧) ١٠ ادب الكاتب .
(٨) ص ١١ قواعد الشعر .

وبعد فقد تعاونت هذه الطبقات فى خدمة البيـــان ، ولها جميعا أثرها فى نشأته وتطوره .

٢ — ومن الكتب الأولى التى ألفت فى دراسات البيان وموضوعاته: مجاز القرآن لأبى عبيـــدة ، وكتاب البيان لابن السكيت (١) وكتاب الفصاحة للدينورى (٢) ، وكتاب التشبيه والتمثيل للفضل بن نوبخت (٣)، وصـــناعة الكلام للجاحظ (٤) ، وكتاب التمثيل له (٥) ، ونظم القرآن أيضا (٦) وقواعد الشعر وكتاب البلاغة للمبرد (٧) ، وللحرانى كتاب فى البلاغة (٨) ، ولثعلب قواعد الشعر ، ولابن مقسم تلميذه كتاب المدخل الى صـــناعة الشـــعر (٩) ، وللمروزى كتاب البلاغة والخطابة (١٠) ، ولابن الحرون كتاب المطابق والمجانس (١١) ، ولأبى سعيد الأصفهانى كتاب تهذيب الفصـــاحة (١٢) ، وللباحث كتاب صـــنعة البـــلاغة (١٣) ولمحمد بن يزيد الواسطى المعتزلى م ٣٠٦ هـ كتاب اعجاز القرآن فى نظمه وتأليفه ولابن الأخشيد كتاب نظم القرآن (١٤) وكذلك لابن أبى داود م ٣١٦ هـ (١٥) وللحسن بن جعفر كتاب فى الرد على من نفى المجاز فى القرآن (١٦) .

٣ — وبعد فقـــد كان البيان العربى فى القرن الثالث مزيجا من

---

(١) ١/٢٠٨ كشف الظنون . وقدبكون فى هذا الكتاب عرض للأدب والوانه كالبيان والتبيين .
(٢) ١١٦ فهرست
(٣) ٣٨٣ فهرست . وهو فارسى خدم المنصور والمهدى .
(٤) ٢٨ الجاحظ لمردم
(٥) ٤١ المرجع ، ٦/٧٩ معجم الادباء
(٦) ٤٠ الجاحظ لمردم
(٧) ٨٨ فهرست ، ٧/١٤٤ معجم الادباء
(٨) ١٧٨ فهرست
(٩) ٢٦ بغية الوعاة
(١٠) ٢١٥ فهرست
(١١) ٢١٢ فهرست
(١٢) ١٩٧ فهرست
(١٣) ٥٧ و ٥٨ فهرست
(١٤) ٣٢٤ فهرست
(١٥) ٥٢ الفهرست
(١٦) فهرست أيضا .

ثقافات وآراء مختلفة عربية وغير عربية مؤلفة ومترجمة ، من حيث كاد في القرن الثاني أن يكون عربيا خالصا • وهنا سؤالان لابد من الجواب عليهما وهما : متى نشأ البيان العربي ، وهل تأثر بثقافة أجنبية ؟

أما نشأة البلاغة والبيان فالآراء فيها كثيرة • فالدكتور طه حسين يرى أن البلاغة نشأت في عهد متأخر والجاحظ في رأيه أول من اهتم بها وهو مؤسس البيان العربي حقا (١) ، ويرى آخر أن نشأة البلاغة قديمة قد سبقت القرآن وتطورت بعده (٢) وأكثر الفنون الأدبية أخذت شواهدها من القرآن(٣) ، وينتقد باحث هذا الرأي (٤) •• ومن الضروري أن نفرق بين أمرين ، نطق العرب في آثارهم الأدبية بأساليب لغتهم المختلفة من استعارة وتشبيه وكناية ومجاز وقصر وفصل ووصل وطباق وتجنيس الخ ، ومعرفتهم العلمية بأوضاع هذه الأساليب ونواحيها البلاغية ، فالأول كان موجودا عند العرب قبل القرآن وفي عصر القرآن وبعده ، والثاني لم يوجد الا في القرن الثالث الهجري كما ذهب اليه أكثر الباحثين ، فقواعد البلاغة قد سنها الفكر أولا ليجري عليها الأدب بل ان طبيعة الأدب موجودة من قبل سواء بحثت أو لم تبحث (٥) ، فالأدب وخواصه الأدبية موجودان من قديم وأما معرفة هذه الخصائص ودراستها وبحثها على أنها علم وأصول وقواعد فلم يوجد الا بعد القرن الثاني الهجري ، « فعلم البلاغة اسلامي لا عهد للجاهليين به » (٦) ، والبلاغة باعتبارها فنا مدروسا أي التحليل العلمي للأساليب البلاغية ليست من علوم العصر الجاهلي انما هي دراسة متأخرة في نشأتها على انه لا شك كان هناك في العصر

---

(١) ٣ و ٣٠ و ٣١ مقدمة نقد النثر (٢) ١/٤٨ النثر الفني ، ومن قبل رأى الصاحبي أن النحو والعروض نشأ من قديم (٨ وما بعدها الصاحبي).

(٣) ١/٥٦ النثر الفني (٤) ١٦ وما بعدها تاريخ البلاغة العربية مخطوط بمكتبة كلية اللغة .

(٥) ٨ قواعد النقد الأدبي (٦) ٢٩ تاريخ البلاغة العربية

الجاهلى وصدر الاسلام بعض الخصائص والأساليب البلاغية المتعارف عليها (١) ، وهذا كله مما لا سبيل الى الشك فيه ٠

وأما الأمر الثانى وهو هــل تأثرت البلاغة العربية فى نشــأتها الأولى ببلاغة الأمم الاخرى ؟ فيمكننا بسط الحديث فيه :

يذكر ابن الأثير أن الشعر والخطابة فى الأدب العربى لم يتأثرا بثقافة اليونان البيانية « فهذا شىء لم يكن ولا علم أبو نواس شيئا منه ولا مسلم ولا أبو تمام ولا البحترى ولا المتنبى ولا غيرهم وكذلك جرى الحكم فى أهل الكتابة كعبد الحميد وابن العميد » ، ثم ينفى أن يكون هو قد تأثر فى رسائله ومكاتباته بما ذكره علماء اليونان فى حصر المعانى ويذكر أنه اطلع على ما كتبه ابن سينا فى الخطابة والشــعر فلم يوافق ذوقه واستجهله ورأى أن ما ذكره لغو لا يستفيد به صاحب الكلام العربى شيئا (٢) ، ويرى باحث محدث أنه كان للبلاغة اليونانية أثر فى علم البلاغة العربى (٣) ، ويرى آخر أن أرسطو المعلم الأول للمسلمين فى علم البيان (٤) ، وأن الكتاب والمتكلمين الذين عاشوا فى القرن الثانى وأثروا فى البيــان وتطوره جلهم من الأعاجم (٥) وأن متكلمى المعتزلة كانوا بتضلعهم فى الفلسفة اليونانية من مؤسسى البيان العربى (٦) وأنه حتى منتصف القرن الثالث لم يوجد الا بيان عربى واحد كان لا يزال فى دور الطفولة وكان خصبا جامعا للروح العربى والفارسى واليونانى ثم وجد من ذلك الوقت بيانان : عربى بحت ، ويونانى يجهر بالأخذ عن أرسطو ، على أن البيان العربى انصرف قد تأثر باليونان (٧) ٠ وترجم كتاب الخطابة فى النصف الثانى من القرن

---

(١) ص ٤ و٥ مجلة الادب والفن نوفمبر١٩٤٤ من مقال للأستاذ جب.

(٢) ٢٠ المثل السائر ٠ (٣) ١/١٧٧ ضحى الاسلام ٠

(٤) ٣١ مقدمة نقد النثر ٠ (٥) ص ٦ المرجع نفسه ٠

(٦) نفس المرجع ٠ (٧) ١١ وما بعدها نفس المرجع ٠

الثالث ، وجاء قدامة فاستفاد من كتاب الخطابة وفهم منه كل ما يمكن أن ينتفع به وطبقه على الشعر العربى وكان يجهل كتاب الشعر (١) وقد درس قدامة الفلسفة وخاصة المنطق (٢) ، على أن تشريع الفلسفة للأدب فى رأى الدكتور يظهر أول مرة فى « نقد الشعر » (٣) ثم فى « نقد النثر » الذى هو مستمد من آراء أرسطو فى الجدل والقياس والخطابة (٤) .

على أننا قد بسطنا القول فى ذلك فيما سبق ورأينا أن المشتغلين بالفلسفة قد اشتركوا مع الجماعات الأخرى فى خدمة البيان العربى وانشائه والتأليف فيه وكان اتجاههم الأول الى البيان اليونانى فأخذوا يدأبون على الافادة منه فى بحوث البيان العربى ودراساته وتلقيحه بما يمكن أن يلقح به من عناصر ومناهج علمية سلكها ومهد سبيلها اليونان ، فهم قد استعانوا بطرقهم فى دراسة البيان على فهم وتحليل أصول البيان العربى والتأليف فيه .

٤ — ونحن الآن نعرض عليك خلاصة وافية لأهم الكتب التى تناولت بعض مسائل البلاغة بالبحث والتى ألفت فيها خاصة .

١ — جمهرة أشعار العرب لأبى زيد القرشى : وفى مقدمتها نجد آراء متفرقة فى البلاغة والبيان ، فهو يعرف الالتفات ويشير الى أن العرب تخاطب الشاهد مخاطبة الغائب (٥) ، ويعرف مجاز الحذف ويفيض فى شرحه (٦) .

(ب) الجاحظ وكتابه « البيان والتبيين » :

والجاحظ امام الكتاب وشيخ البيان وعلم من أعلام الأدب

---

(١) ١٧ المرجع . (٢) ١٦ المرجع .
(٣) ١٦ وما بعدها مقدمة نقد النثر . (٤) ١٧ وما بعدها المرجع .
(٥) ص ٣ جمهرة اشعار العرب (٦) ص ٢ المرجع .

والنقد ، وهو من أئمة المعتزلة ، تتلمذ على النظام وسواه من فحول عصره فخرج واسع الثقافة عميق التفكير كثير الاحاطة والاطلاع على شتى المؤلفات والتراجم المنقولة من جميع اللغات الى العربية ٠

اتصل الجاحظ باليونان وثقافتهم من كتبهم المترجمة وعن طريق المتكلمين وبمجالسته لكثير من المثقفين باليونانية (١) ، كما أنه حذق الثقافة الفارسية من كتب ابن المقفع وسواه ، وتوسع فى الثقافات كلها بما كان يقرؤه من الكتب (٢) ، وتأثر بخطابة أرسـطو الى حد بعيـد ومن المشابهة بينه وبين أصحاب الخطابة فى الأسلوب استعماله القياس المضمر وهو المذهب الكلامى عند البديعيين (٣) ، ونقد الجاحظ التراجم والمترجمين من اليونانية وخاصة كتاب المنطق بأنه فى أسلوب سقيم ، فالجاحظ ولا شـك قد تأثر « بالخطابة » لأرسطو كثيرا (٤) ٠ وأنكر باحث آخر أن يكون كتاب البيان متأثرا بخطابة أرسطو أو صدى له لأن الجاحظ لم يره (٥) وذلك ما يؤيده الدكتور طه حسين (٦) ٠

ومن البدهى أن الجاحظ ألم بالثقافة الفارسية المترجمة الماما واسعا ، ويبدو لى أنه كان يعرف اللغة الفارسية ، ففى البخلاء يحكى الجاحظ كلام بخيل من أهل مرو تجاهل رجلا زاره من أهل العراق : لو خرجت من جلدك لم أعرفك ، قال الجاحظ : وترجمة هذا الكلام بالفارسية « كراز بوستت بارون بيائى نشناسيم » (٧) :

---

(١) ١/٤٠١ ضحى الاسلام ٠ (٢) ١/٣٨٧ المرجع ٠

(٣) ٦٢٠ و ٦٢١ الرسالة عدد ١٩٦ من محاضرة للأستاذ حمودة فى اسـبوع الجاحظ ، واذا كان الجـاحظ ينكر ان يكون لليونانيين خطـابة (٣/١٥ البيـان) فليس ذلك الا فى مقام الرد على الشـعوبيين وقد يكون الجاحظ لم يطلع على نصوص خطابية لليونان ٠

(٤) راجع ٦٢١ الرسالة العدد ١٩٦ ٠

(٥) راجع ٦٢٢ المرجع السابق ٠ (٦) ص ٣ مقدمة نقد النثر ٠

(٧) ص ١٩ البخلاء ٠

وأثر ثقافته الفارسية واضـــح ف كتبه وف مؤلفه « البيان » ، أما أثر ثقافته اليونانية فواضح أيضا ف الحيوان وف كتابه البيان (١) ، قرأ الجاحظ من كتب أرسطو المترجمة كتاب الحيوان واستدل برأى لأرسطو فيه (٢) وكان مصدرا كبيرا له ف كتابه « الحيوان » ، والجاحظ يذكر تعريف صاحب المنطق للانسان كثيرا (٣) ويذكر صاحب المنطق وأنه كان بكيء اللســـــان مع علمه بتمييــز الكلام وتفضيــله ومعانيــه وبخصائصه ، (٤) ويذكر تعاريف البلاغة عند الأمم المختلفة ومنهـا اليونان (٥) ويذكر كتب اليونان ف المنطق وأن الحكماء جعلتها معيارا للتفكير (٦) ، ويذكر نوادر ريسموس اليوناني (٧) ويرى أن لليونان فلسفة وصناعة منطق وليس لفلاسفتهم ف الخطابة ذكر (٨) ، وأقسام الدلالة عند الجاحظ (٩) هى من تفكير أرســطو ، ويذكر أن للفرس رسائلها وخطبها وألفاظها ومعانيها ولليونان رسائلها وخطبها وعللهـا وحكمها وكتبها ف المنطق وللهند حكمها وسيرها وعللها ويرى أنهـا لا توازن بما للعرب من بيان وبلاغة وصناعة وخطابة (١٠) ، وللجاحظ رسالة ف نقد الكندي (١١) .

ويذكر الجاحظ ف البيان « صناعة الكلام » ويعني بهاحينا علم الكلام (١٢) ، وحينا آخر البيان (١٣) ، ويذكر اصطلاحات أخرى كصناعة المنطق (١٤) وصـــناعة الخطـابة ويذكر أحيـانا « أصـحاب الخطابة والبلاغة » (١٥) .

---

(١) وذلك ف مواضع كثيرة .
(٢) ١/٦١ البيان . (٣) ٦٩ و١٢٨/البيان .
(٤) ٣/١٥ البيان . (٥) ١/٧٥ البيان . (٦) ٣/٧ البيان .
(٧) ١٦٥ جـ ٢ البيان .
(٨) ٣/١٥البيان ، الظاهر ان الجاحظ لم يطلع على شيء منخطابتهم .
(٩) ١/٦٩ البيان ، وهى ف ٤٠ الرسالة العذراء ، ٩ نقد النثر .
(١٠) ٣/٧ البيان . (١١) ٤٢ الجاحظ لمردم .
(١٢) ١/٦٩ البيان . (١٣) ١/١٠٨ البيان . ويشيد الجاحظ بصناعة الكلام . (٣جـ ٤ زهر) . (١٤) ١/٧٩ البيان . (١٥) ١/١٨٣ البيان .

ومهما يكن فالجاحظ فيما ذكره من أصول البلاغة العربية قريب من روح أرسطو ، فدعوته الى ترك الوحشى والسوقى (١) له نظير عند أرسطو الذى دعا الى « هجر الألفاظ الخسيسة التى لا يستعملها الا العامة (٢) وقال « ينبغى ألا تكون الألفاظ سفسافة ولا مجاوزة الحد ف المتانة مبلغ الأمر الذى يدل عليه فلا تبلغ درجة العامية ولا تحوج الى الكلفة المنشوءة » ، ودعوة الجاحظ الى الوضوح (٣) لها نظير عند أرسطو حيث يذكر « حسن الدلالة ووضوح العبارة وأن الاغراب مستكره وأنه يجب ألا تمعن ف الاغرابات بل يجب أن تكون العبارة بحيث يفهمها الأماثل دون أسقاط الجمهور » ، واللحن وخروجه عن حد البلاغة (٤) موجود ف خطابة أرسطو حيث يوجب أن « يكون اللفظ فصيحا لا لحن فيه » ، ويذكر الجاحظ استعمال المبسوط ف مواضعه والمقصور (المحذوف الموجز) ف مواضعه (٥) ،والايجاز والاطناب بوم الاطناب (٦) ، وأرسطو أول من أشار الى ذلك كله فذكر الايجاز والاسهاب وأشار الى أن لكل منهما مقاما • وعلى أى حال فمرجع هذا التشابه ف الأفكار أرجح أن سببه نقل الجاحظ كثيرا عن الذين ألموا بثقافة اليونان وكتب أرسطو ف النقد وعلى الأخص الخطابة والشعر •

ومع ذلك فالجاحظ يجهل كثيرا من النظريات التى شرحها أرسطو ف كتابيه ، فأنواع البيان والأساليب البلاغية الأنيقة التى ألم بهـا

---

(١) ١٠٥ و١١٠ و ١٧٦ ج ١ البيان • (٢) راجع الشفاء لابن سينا وكل النصوص المنقولة هنا عن أرسطو فهى منقولة من الشفاء •

(٣) ٦٨ و ١١٠ و ١/١٧٦ البيان • (٤) ١/١٢١ البيان •

(٥) ١/٥١ البيان ، ويشير الى ذلك ف مواضع اخرى من كتابه (١٤١ و١٤٧ و١٦١ و١/١٨٠ البيان) •• (٦) ١٢٠ رسائل الجاحظ ، وتبعه ابن قتيبة فذكر ان للايجاز مواضعه وللاطالة مواضعها (مقدمة ادب الكاتب) •

أرسطو (١) لا يشير اليها الجاحظ فى بيانه ، وهو على العموم ثم يطلع على كتابى أرسطو ، ولا نشك فى أنه أفاد من أستاذه النظام ومن علوم الفلسفة والمنطق التى شاعت فى عصره كثيرا ، ونقل عمن اطلعوا على خطابة أرسطو ، ويكفينا ذلك التحقيق فى هذا المقام .

وبعد فللجاحظ فى البيان العربى آثار كثيرة : كرسالته فى تفضيل النطق على الصمت (٢) ، وكتابه البيان والتبيين .

والبيـــان « أول كتاب ظهر فى الأدب جامعـــا لفنون كثيرة من ضروبه (٣) » ، ويشيد به أبو هلال (٤) ، ويعده ابن خلدون من أركان الأدب (٥) ، والكتاب يبحث فى فنون الأدب والبلاغة ويتناول النقـــد واللغة ويأتى على ذكر الخطباء والأدباء والشعراء والمنشئين وآثارهم الأدبية وهو من أجل وثائق الأدب فى الجاهلية والاسلام (٦) ، ويذكر ابن رشيق أنه لا يبلغ جودة وفضلا (٧) ، ويذكر أبو أحمد العسكرى مثلا من تصحيف الجاحظ فيه (٨) ، وينقد ابن شهيد الكتاب (٩) ورد عليه بعض المعاصرين (١٠) . والكتاب يجمع بين دفتيه الكثير من بلاغة العرب وسحرهم فى البيان كما يجمع آراء كثيرة فى أصول النقد الأدبى

---

(١) كدراسته للاستعارة ، وللرباطات (حروف العطف) وانها تجعل الكلام الكثير كالواحد ، وللجناس وسواه ، ونظرية ارسطو فى الوصـــل ، وهى التى يفيض عبد القاهر فى شرحها فى الدلائل .. وتصيب فى نقده للكميت فى قوله « تكابل فيها الانس والشنب » لانه باعد فى القول (١/١٣٤ الاغانى، ١/٣٥٥ الكامل) لا يتم ذلك عن معرفته بأسرار هذه الدراسات البيانية .

(٢) تجدها ٨ ١٤٨ — ١٥٤ رسائل الجاحظ .

(٣) ٨٠ العصر العباسى للاسكندرى .

(٤) ٦ و ٧ الصناعتين . (٥) ٥٥٣ مقدمة ابن خلدون .

(٦) ٣٥ الجاحظ لمردم . (٧) ١/٢٢٧ العمدة .

(٨) ٥٣ و ٥٤ التصحيف والتحريف . (٩) ١/١٩٨ ذخيرة .

(١٠) ٢/٥٠ النثر الفنى .

وقوانين البلاغة العربيـــة وأنواعها وعناصرها ومذاهبهـــا واتجاهاتها وأثرها ، سواء كانت هذه الآراء من جمع الجاحظ وروايته أم من رأيه وتفكيره ، وحسبك أن تقرأ فيه البلاغة كما تتحدث عنها صحيفة هندية مكتوبة (١) ، أو كما يصـــورها بشر بن المعتمر (٢) ، أو كما يراها ابن المقفع (٣) ، ولهذه النصوص قيمة كبيرة ، وقد عـــد بعض الباحثين الجاحظ مؤسس البيان العربى لمـــا جمعه من النصوص التى توضح لنا كيف كان العرب الى منتصف القرن الثالث يتصورون البيان العربى وتعطينا صورة مجملة لنشأته (٤) .

وفى الكتاب كثير من بحوث البلاغة ، فهو يعرف الاستعارة (٥) ، ويتكلم على الســـجع (٦) ، ويشـــير الى التفصـــيل والتقسيم (٧) ، والاستطراد ، والكناية (٨) ، والأمثال (٩) ، والاحتراس (١٠) والقلب (١١) والأسلوب الحكيم (١٢) ، والجاحظ فوق ذلك هو أول من لقب المذهب الكلامى بهذا الاصطلاح (١٣) ، ويرى الجاحظ أن البـــلاغة فى النظم لا فى المعانى قال : والمعانى مطروحة فى الطريق يعرفها العجمى والعربى والبدوى والقروى وانما الشأن فى اقامة الوزن وتحيز اللفظ وسهولة المخرج وفى صحة الطبع وجودة الســـبك (١٤) ، وهـــو ما ذهب اليـــه

---

(١) ١/٧٩ البيان .
(٢) ١/١٠٤ وما بعدها البيان . (٣) ١/٩١ البيان .
(٤) ٣ مقدمة نقد النثر . (٥) ١/١١٦ البيان .
(٦) ١/١٩٤ البيان . (٧) ١/١٧٠ و٢/٩١ البيان ، وهو باب من أبواب البديع عند كثير من علماء البلاغة راجع ٧٨ نقد الشعر، ٣٣٢ صناعتين .
(٨) ١/١٨٠ و ١ و ٢٩ و ٣١ و ٣/٨٥ البيان .
(٩) ٨٦ و٨٨ و ١١٤ و ١٨٣ / و ٢/٢٢٤ البيان .
(١٠) ١/١٦١ وما بعدها البيان . (١١) ١/١٨٠ البيان .
(١٢) ٢٠١ و ٢٠٢ ج ٢ البيان ، ويقرب من الأسلوب الحكيم ما يسميه الجاحظ « اللغز فى الجواب » (٢/١١٦ البيان) .
(١٣) ١٠١ البديع ، ٢/٧٦ العمدة . (١٤) ٣/٤٠ الحيوان .

ابن خلدون (١) ، ويقول شيلر : فى الفن الشكل هو كل شىء والمعنى ليس شيئا مذكورا .. وفى البيان نصوص كثيرة استغلها علماء البيان والبديع فى اختيار شواهد أساليب البلاغة منها ، مما لا داعى الى ذكره هنا خوفا من كثرة الاسهاب ، والجاحظ يشيد بالايجاز ويدعو اليه كثيرا فى بيانه (٢) ، وفى الحديث عن رسول الله : اذا قلت فأوجز واذا بلغت حاجتك فلا تتكلف (٣) ، ويحث على ترك الوحشى والسوقى وعلى الافهام والوضوح ، وعلى ترك التعمق والتهذيب فى صناعة الكلام ، وعلى أى حال فالبيان والتبيين أثر أدبى وعلمى نفيس ، والجاحظ يده على البيان العربى لا تجحد ، ويعده ابن خلدون من السابقين فى التأليف فيه (٤) .

وبعد فالجاحظ أظهر من خص البيان بالتأليف وهو أعظم السابقين الى جمع وتدوين آراء رجال البيان والبلاغة ، وله مع ذلك آراء كثيرة وصل اليها بفكره وذوقه وملكته البيانية الدقيقة الاحساس بالأساليب البلاغية ودقائقها ، ولا يضير الجاحظ أن كانت دراساته فى كتاب البيان موجزة مفرقة كما يقول أبو هلال (٥) ، فهى على كل حال ذات أثر كبير فى نشأة البيان .

(ج) وقد كتب بعد الجاحظ كثير من العلماء فى مسائل تتصل بالبلاغة والبيان : كالمبرد فى كامله ، وابراهيم بن المدبر فى الرسالة العذراء ، وثعلب فى قواعد الشعر ، وابن عبد ربه فى العقد ، وسوى هؤلاء مما يطول الحديث لو فصلنا القول فيه .

---

(١) ٥٧٧ مقدمة ابن خلدون .
(٢) ٨٠ و ٨٦ و ١١٤ و ١٥٢ و ١٨٧ و ٢/١٩٨ البيان .
(٣) ١/٥ الكامل للمبرد . (٤) ٥٥٢ مقدمة ابن خلدون .
(٥) ٦ الصناعتين .

الجاحظ والبيـــان العربى

— ١

كان الجاحظ أستاذ الثقافة الاسلامية فى النصف الأول من القرن الثالث ، وكان مجده الأدبى الذائع يعصف بمجد كل أديب ، ويدوى فى كل أفق ، ويرن صداه فى سمع كل كاتب وشاعر وخطيب •

وعاش الناس فى عصره وبعد عصره عيالا عليه فى البلاغة والفصاحة واللسن والعارضة كما يقول ابن العميد ، وعدوا التلمذة عليه شرفا لا يعدله شرف ومجدا يدنيهم من بلاط الملوك ، وتعصب له كثير من رجالات الثقافة الاسلامية فى شتى عصورها ، فألفوا الكتب فى الاشادة به — كما فعل أبو حيان التوحيدى فى كتابه تقريظ الجاحظ — ، وبالغوا فى الاشـــادة به والثناء عليه حتى حســـد ثابت بن قرة الأمة العربية عليه ، وحتى كان الخلفاء يهشون عند ذكره ونهج كبار الكتاب نهجه فى الثقافة والبيان ، وكان فخر الرجل فى أن يلقب بلقبه ، وأقبلوا على كتبه وأدبه يتثقفون بثقافتها ويرونها تعلم العقل أولا والأدب ثانيا ، وبلغ من اهتمام خاصة رجال الفكر الاسلامى بها أن كانوا يسألون الناس عن المفقود منهـــا فى البيت الحرام وعرفات ، وكان معاصروه يحذرون خصومته حتى لا يسمهم بميسم الخزى والهوان الى الأبد ، ومن ساء جده منهم فكان هدفا لسخريته اللاذعة سار على الأجيال صورة مشوهة واساءة لا يغفرها الزمن كما فعل الجاحظ مع أحمـــد ابن عبد الوهاب بطل رسالته الساخرة المتهكمة « التربيع والتدوير » •• وحســـبك أن المـــأمون كان يقـــرأ تآليف الجـــاحظ ويثنى عليهـــا ويستجيدها (١) •

---

(١) ٢١١ جـ ٣ البيان نشر السندوبى ط ١٩٢٧ •

ومجد الجاحظ الأدبى مجد خالص من شوائب العصبية وتمويه السياسة وهو مجد بوأه صرحه الخالد : كفاءته الممتازة وثقافته النادرة وآثاره الفكرية والأدبية الممتعة ، فقد عاش الجاحظ محروما من كل شيء الا من مجد الأدب ، وشهرة العلم ، ولم تبوئه مواهبه مقاعد الوزارة التى كان يصعد اليها فى عهده كثير من الكتاب ، ولم تنله كفايته الأدبية منزلة فى ديوان رسائل الدولة ، ولما صدر فيه أيام المأمون لم يبق فيه غير ثلاثة أيام استقال بعدها منه ، أو قل انه حورب فيها من أجله حذرا من أن يأفل به نجم الكتاب كما كان يرى سهل بن هارون ، الاخفاق فى الحياة العامة الذى منى به الجاحظ فى عصره كان مما نعاه ابن شهيد عليه فى رسالته « الزوابع والتوابع » ، ومما جعله يخطيء من يذهب الى تقديم الجاحظ على سهل بن هرون ، وان كان تحكيم التوفيق فى الحياة فى وزن الشخصيات وتقديرها ضلالا وغبنا .

ولكن ما سر هذا الاخفاق مع هذه الشهرة البعيدة والمجد الذائع ؟ رأى ابن شهيد من قبل أن حرمان الجاحظ من شرف المنزلة بشرف الصنعة مع تقدم ابن الزيات وابراهيم بن العباس اما لأنه كان مقصرا فى الكتابة وجميع أدواتها أو لأنه كان ساقط الهمة أو لأن دمامته وافراط جحوظ عينيه قعد به عن الغايات المنشودة ، ورأى أن نقص أدوات الكتابة عند الجاحظ شيء قد يكون غريبا فذهب الى أن أول أدوات الكتابة العقل وقد تجد عالما غير عاقل .

أما أن الجاحظ ينقصه أداة — أيا كانت هذه الاداة — من أدوات الكتابة فذلك ما ترده الحقيقة المقررة ، فعقل الجاحظ وفنه الأدبى وطبعه الموهوب أعظم من أن يتطرق اليه فيها شك وريب . وأما أن الجاحظ كان قريب الأمل غير بعيد الطموح ، لا يتطلع الى مجد ينشده أو جاه سلطان يناله ، فذلك بعيد عن الجاحظ وحياته وروحه الوثاب الطموح . وأما أن دمامة الجاحظ كان لها أثر فى هذا الاخفاق

فذلك أحد ما نراه من أسبابه الكثيرة حتى انه ذكر للمتوكل لتأديب بعض ولده فلما رآه واستبشع منظره صرفه وأمر له بعشرة آلاف درهم .

الحق أن الجاحظ كان عربيا فى روحه ودمه وحياته ، وكان يتعصب للعرب فى كل شىء حتى فى الثقافة والأدب فى عصر كان النفوذ والسلطان فى الدولة فيه للعناصر الأجنبية لا سيما الفرس ، وكثيرا ما كان ينسى أولو الثقافة والكفايات من العرب الا من اتصل منهم بحبل وزير أو أمير ، والجاحظ مع صداقته الوثيقة لمحمد بن عبد الملك الزيات الوزير م سنة ٢٣٣ هـ ، والذى أهدى له كتابه « الحيوان » وكافأه عليه بخمسة آلاف دينار ، كان يتخلل هذه الصداقة الشك والجفاء ، ولم يستطع أو لم يتسن له ، أن يستفيد شيئا من وراء هذه الصداقة ، وقتل محمد بن عبد الملك وجاء بعده عدوه اللدود أحمد ابن أبى دؤاد الذى سيق اليه الجاحظ مغلولا لأنه كان من أصحاب محمد بن عبد الملك ، ثم فك قيوده وطلب حديثه وبيانه وثوقا منه بظرفه وأدبه لا باخلاصه وولائه .

ثم لا ننس أن مواهب الجاحظ مواهب عالم وأديب لا مواهب رجل من رجال المجتمع والسياسة والحياة العامة ، وقد رفعته مواهبه العقلية والعلمية والأدبية مكانا عليا ما كان ينتظر أن ترفعه اليه السياسة مهما خلق فى أجوائها ، وكان اخلاص الجاحظ للفكر والثقافة أعظم من اخلاصه للحياة نفسها ، وكان خوضه فى معامع الثقافة والعلم يشغله عن الخوض فى ميادين السياسة والاجتماع ، وكانت لذته فى الدراسة والبحث والتأليف أكثر من لذته فى مجد السياسة وسلطانها ، فالجاحظ أولا وقبل كل شىء هو رجل الثقافة والأدب ، وهو المعتزلى الذى تتلمذ على النظام ثم عاف تقليد غيره فى العقيدة فكان صاحب مذهب ورئيس فرقة من فرق المعتزليين ، وهو المتكلم الساحر والكاتب البليغ والخطيب المفوه والعالم الفذ والمؤلف النابه وشيخ العربية

الذى وعى الثقافة العربية وما خالطهـا من الثقافات فى شتى علوم الدين والدنيا ، وهضمها وعاصرها زهاء قرن (١٥٠ — ٢٥٥ هـ) ، وكان له فى صدر شبابه فخر التلمذة على شـيوخها فى اللغة والأدب وفى علوم الدين والكلام وفى التفكير والمنطق كما كان له فخر صداقة رجال الفكر والسياسة فى الدولة ، وقد استفاد من وراء هذا وذاك نضوجا كبيرا فى عقليته وثقافته هيأه لأن يكون محور الثقافة الاسلامية فى عصره لا بطلا من أبطال السياسة والدولة والاجتماع .

ولا يضير الجاحظ أن يكون كما قال بديع الزمان الهمذانى فيه من أحد شقى البلاغة يقطف وفى الآخر يقف (١) ، فقد يجيـد الرجل فى باب من أبواب الأدب دون باب ، ولا يغض ذلك من احسانه فيما أحسن فيه ،ولكن البديع أراد الفخر بنفسه على حساب الجاحظ ، وليته وقف عند هـذا الحد فلم يرم الجاحظ بأن كلامه بعيـد الاشارات قليـل الاستعارات قريب العبارات وأنه منقاد لعريان الكلام يستعمله نفور من معتاصه يهمله ، وأنه ليس له لفظة مصنوعة أو كلمة غير مسموعة (٢). وانما أراد البديع أنه فوق الجاحظ أدبا وبيانا ، وهيهات !

وثقافة الجاحظ ثقافة واسعة منوعة تحيط بسائر ألوان الثقافات التى مازجت الثقافة الاسلامية فى عصره ، فهو عالم من علماء الدين ، ومتكلم من الطراز الأول للمتكلمين وعالم يحيط باللغة وبيانها وآدابها احاطة لا تقف عنـد غاية ، وقد خاض الجاحظ فى جـداول الثقافات الأخرى التى سرت فى تيار الثقافة العربية منذ مشرق القرن الثـانى الهجرى ، وعقلية الجاحظ البعيدة التفكير لا نشك أنها أفادت ذاك من أستاذه النظام ومن علوم الفلسـفة والمنطق التى شـاعت فى البيئة الاسـلامية فى عصر الجاحظ . ولا شـك أن عصر الجاحظ ، وعقليته وشغفه بالدراسة والبحث ، وعكوفه على القراءة ، ونشأته بالبصرة ،

---

(١) ص٨٢ مقامات البديع — المقامة الجاحظية (٢) ص٨٢و٨٣المرجع.

وتلقيه اللغة عن الأعراب فى المربد والعلماء فى حلقات البصرة ومجامعها العلمية ، وتلمذته على كثير من أساتذة الثقافة فى شتى مناحيها كأبى يوسف القاضى والنظام والأصمعى والأخفش وابن الاعرابى وأبى عبيدة • وأبى زيد الأنصارى ، كان له أثره فى ثقافة الجاحظ الواسعة الجوانب المتعددة الألوان •

وشخصية الجاحظ تطالعك فى أدبه وكتبه من كل جانب وناحية ، وهى شخصية رجل الفكر الواثق بشخصيته وعقليته وثقافته ، المؤمن بها ، الحريص على كرامته ، المعتز بنفسه ••• يخاطب الوزراء والعظماء ويراسلهم ، فلا يفنى شخصيته فى شخصياتهم ، بل يراهم اخوانه ، ويرى له عليهم حق الصداقة ودالة الأخوة ، ولا يجبن عن توجيه العتاب واللوم اليهم ، وأنت حين تقرأ فى كتب الجاحظ ومؤلفاته تغيب فى جو بعيد تطل عليك فيه شخصية الرجل ، بسعة ثقافتها وبعد مكانتها ، وبتوجيهها الساحر لعقل القارىء وفكره وشعوره حتى ليكاد ينسى أمامها نفسه ، ويشعر شعورا صادقا أنه قد نقلك من جوه هو الى جو آخر تشيع فيه روح قوية ساحرة تملك عليك عقلك وعاطفتك ، وتروعك بكثرة حفظها وروايتها ، كما تروعك بروعة فكرها وجلال بيانها ، وتتركك صريعا فى معارك فكرية ترى الجاحظ فارسها المعلم ، وترى قلمه البليغ عصا الساحر المتحدى تسترعى السمع والبصر ، وتبهت الفكر والعقل ، وتلهب العاطفة والشعور •

والعجيب أن سعة ثقافة الجاحظ وكثرة روايته فى تآليفه جعلت كثيرا ممن لا يفهمون الجاحظ يرونه كاتبا لا شخصية له ، تطمس شخصيات من يروى لهم وينقل عنهم كل أثر لشخصيته ، فتقرأ الجاحظ وأنت تقرأ لسواه وتبدو أمام عينك صور شتى لرجال لا ترى الجاحظ فيهم ولا تلمس آثاره بينهم •

ومنشأ ذلك أن الجاحظ رجل من الخاصة فى فكره وفى كتابته وأسلوبه وفى بحثه وتآليفه ، فاذا فكر فبعقل الخاصة ، واذا كتب

أو ألف فبأسـلوبهم ولن يفكر في مجال تفكيرهم ، وليس ذلك لأن الجاحظ « يستمسك بفائدته ويضن بما عنده غيرة على العلم وشحا بثمرة الفهم ولذلك كان كتاب « البيان » موقوفا على أهله ومن كرع في حوضه ، أما الجاهل والمبتدىء فلا نفع له من كتابه » كما يقول ابن شهيد ، انما ذلك لأنه كما أرى لا يستطيع الا أن يفكر تفكير الخاصة ، ويكتب بعقلهم وأسـلوبهم ، ولأنه رجل يكتب لنفسه قبل كل شيء ويرضى شهوته في تدوين عناصر الثقافة الأدبية والعلمية على طريقة كتابة الموسوعات . كما يرى بعض الباحثين المعاصرين (١) ، وما دام الجاحظ كذلك فلن يستطيع أن يفهمه الا رجل مثله في فكره واتجاهه وثقافته ، ولن يتسنى لكثير أن يفهموا الجاحظ وأن يؤمنوا بشخصيته في كتبه ومؤلفاته ما داموا لا يستطيعون مجاراته في نواحي ثقافته العقلية والأدبية . وحسب الجاحظ مجدا وخلود ذكر أن يكون له كتابه مثل كتاب البيان والتبيين .

— ٢ —

ألف الجاحظ كتابه « الحيوان » وأهداه الى صديقه محمد بن عبد الملك الزيات ، فكافأه عليه بخمسة آلاف دينار . ثم ألف بعده كتاب « البيان » وأهداه الى أحمد بن أبي دؤاد فأعطاه عليه خمسة آلاف دينار ، والجاحظ يشير في مواضع متعددة من البيان الى كتاب الحيوان ، وكان لظهور « البيـان والتبيين » ضجة كبيرة في الأدب والبيان حتى انه حمل الى الأندلس فيما حمل من نفائس المؤلفات .

وكتاب « البيان » ألفه الجاحظ على نمط طريف في التأليف ، من كثرة الرواية التي قصد الجاحظ من ورائها أن ينال كتابه الشـهرة والاعجاب كما يقول الجاحظ نفسه في كتابه ، وينال كتـابه الذكر

(١) ٢/٤٩ النثر الفني .

والذيوع ، ومن كثرة الاستطراد الذى يستدر به الجاحظ نشاط القارىء واعجابه كما يقول الجاحظ فى تعليله له ، والجاحظ حين يعلل عدم ترتيبه للخطباء الذين ذكرهم فى كتابه ترتيبــا يتمشى مع التاريخ بعجزه عن تنسيق ذلك فان ذلك يقابل بتحفظ كبير ، فالجاحظ لو أراد لمـا أعجزه انما هو مذهبه فى الاستطراد والانتقال •

ويبدو من أسلوب الكتاب أن الجاحظ كان يكتب أصوله — أوكثيرا منها — محاضرات يلقيها على تلاميذه وطلابه وقد يسبغ عليها أحيانا روحا توائم بين هذه المحاضرات وبين ما يجب لمن أهدى اليه كتابه من تقدير واجلال ، وأسلوب الكتاب الاستطرادى جعل الجاحظ يعدنا فى

كتابه بأنه سيذكر الشيء ثم لا يذكره ولا يفى بوعده ، وهذا الأسلوب الاستطرادى أيضا جعل الجاحظ ينقد نفسه فى ترتيب فصــول كتابه وجعله يرسم منهجه فى أجزاء كتابه فى آخر الجزء الأول منه ، وجعله يضع فى أماكن متعــددة من كتابه عناوين مختلفة تقابل من القارىء بمزيد الابتسام ، فهو يعنون فصولا بباب البيان وأخرى يسميها باب الصمت وأخرى باب اللحن أو باب الزهد الى آخر هذه الألقاب التى نعلم أن الجاحظ لم يرد شيئا منها ولم يضعها الا للتغرير بالقــارىء واكتساب نشاطه وامتحان ملكاته •

وكتاب « البيــان » يجمع بين دفتيــه الكثير من بلاغة العــرب وسحرهم فى البيان كما يجمع آراء كثيرة فى أصول النقد الأدبى وقوانين البلاغة العربية ، وقد نهج فيه الجاحظ منهجه الساحر ، وكتبه بأسلوبه العميق المحكم ، ورسم فيه صورا صادقة لروح الأدب والبلاغة الى عهده ، والكتاب سجل للأدباء والشعراء والخطباء حتى عصر الجاحظ وهو ذو قيمة فذة فى تاريخ الأدب والأدباء لا سيما المعاصرين للجاحظ ومن سبقوه بقليل ، وقد عنى فيه الجاحظ بتدوين المثل الســاحرة من الأدب العربى : شعره ونثره ، وقاده الاستطراد الى الالمـام بكثير من مسائل الأدب والنقد والبيان •

يبدأ الجاحظ كتابه بمقدمة يذكر فيها البيان وشرفه ويلم فيها بالكثير من عيوبه الفطرية وسواها فى استطراد جميل ، ثم يشرح البيان ويحلل عناصره ، ويذكر البلاغة ومذاهب رجال البيان فيها ، ويبين الصلة بين البليغ ومظهره ، ذاكرا بلاغة الخطيب وعناصرها وأدواتها ، ملما بالكثير من الخطباء ، داعيا الى قوة الطبع وشرف المعنى وجمال اللفظ والى مراعاة شتى المقامات والأحوال ، مبينا أثر هذه البلاغة فى النفس والوجدان ، ويتكلم على الحديث المردد ومن عابه ومن مدحه ، وعلى الصمت : من أشاد به ومن ذمه داعيا البليغ الى أن لا يتمسك بحكمة الصمت حتى لا يورثه ذلك العى والحصر، ويدعو الأدباء الناشئين الى أن يعرضوا انتاجهم الأدبى على أولى الذوق والبيان حتى يعرفوا قدر أنفسهم ومنزلتها فى البيان ، كما يتحدث عن السجع : مطبوعه ومتكلفه وعن منزلته الأدبية ، محللا عناصر الشعر نافيا أن يكون ما فى القرآن من كلمات موزونة شعرا ، ملما بطبقات الشعراء وألقابهم ، وينعى على المتقعرين ، ويسرد أحاديث النوكى والحمقى سردا بليغا ، وبذلك ينتهى الجزء الأول من الكتاب الذى أودع فيه الجاحظ جل ما أورده من بلاغة البيان وعناصرها وألوانها ومذاهبها وأسبابها •

أما الجزء الثانى فتحدث فيه عن الخطابة وأقسامها وأثرها ، وألم فيه بسحر بلاغة رسول الله فى أحاديثه وخطبه ، وبخطب كثير من جلة الصحابة والسلف الأولين ، وتكلم عن الحوليات وطبقات الشعراء ومذاهب المطبوعين وأصحاب الصنعة ، كما تكلم على اللحن واللحانين والنوكى والحمقى والمجانين •

وفى الجزء الثالث يرد على الشعوبية مطاعنها التى قدحت بها فى العرب لا سيما ما نعوه عليهم من أخذ العصا والقوس عند الخطابة وفى مواقف الكلام ، ورد الجاحظ على الشعوبية فيه كثير من حرارة الايمان التى أذكت فى دفاعه روح الجدل وقوة المناقشة وسعة التفكير، وينقل الجاحظ كثيرا من حكم النساك ومواعظهم ، وخطب الخوارج

وكلماتهم ، وسياسة بنى العباس ودهائهم ، ويتحدث عن رواية الأدب واتجاهات الرواة وطبقاتهم ، وعن كلام رسـول الله وسحر ايجازه وبعده عن مذاهب العرب فى شعرها ، وعن أمية رسول الله مع بلاغته وعن مجد الشعر وأثره ومكانته الى غير ذلك من شتى الآراء ، ويختم الجاحظ كتابه بهذه الكلمة الجامعة : « وهذا أبقاك آخر ما ألفنـاه من كتاب البيـان والتبيين ونرجو أن نكون غير مقصرين فيما اخترناه من صنعته ، وأردناه من تأليفه ، فان وقع على الحال التى أردنا والمنزلة التى أملنا فذلك بتوفيق الله ، وان وقع بخلافها فما قصرنا فى الاجتهاد ولكن حرمنا التوفيق والله أعلم » .

وبعد فكتاب البيان ثمرة من ثمرات الرجولة المكتملة التى أحاطت بالجاحظ بعد أن ودع شبابه واستقبل عهد المشيب ، وهو لذلك آية من آيات الطبع المتمكن والذوق السليم والاحاطة التامة بالبيان وبلاغته ، وليس ذلك بكثير على الجاحظ شيخ العربية الفـذ وبطلها الكبير .

وأثر « البيان » وقيمته مما يعسر على الباحث تفصيله وايفاؤه فيها حقه من التقدير والانصاف ودقة الحكم :

فكتاب البيان أصل من أصول الأدب وهو فى أسلوبه وفى نهجه وفى رواياته وفى آرائه الأدبية خير معين لطلاب العربيـة والمتخصصين فى آدابها .

وقيمته فى البيان العربى خطيرة لمـا أودع فيه من شتى البحوث والآراء فى البلاغة وعناصرها واتجاهاتها ومذاهبها وألوانها وغاياتهـا وأثرها سواء كانت هذه الآراء من جمع الجاحظ وروايته وتدوينه أم من ابتكاره ورأيه الشخصى واتجاهه الأدبى المستقل ، وفيما جمعه الجاحظ من ذلك الكثير مما لا يزال محل اعجاب الباحثين وتقديرهم ، وكفى أن تقرأ فيه : البلاغة كما تتحدث عنها صحيفة هندية مكتوبة ، أو كما رآها ابن المقفع أو كما تحدث عنها بشر بن المعتمر فى صـحيفة من تحبيره

وتنميقه الى غير ذلك من شـتى الآراء التى كتبها الجاحظ مستقلا بالتفكير فيها .

واذا كان للجاحظ فخر التلمذة والرواية — فى كتابه — عن شيوخ العربية وأدبائها كالأصمعى وأبى عبيدة وابن الأعرابى وابن سلام وأبى العاصى ، وكابراهيم بن السندى وعبد الكريم بن روح الغفارى ومحمد بن بشير الشاعر ، وكثمامة والنظام ، وسوى هؤلاء وهؤلاء ، فيجب أن لا ننسى أنه قد كان لعلماء الأدب والبيان الذين جاءوا بعد عصر الجاحظ هذا الفخر نفسه بالتلمذة عليه وعلى كتابه « البيان » .

فابن قتيبة المتوفى سنة ٢٧٦ تبع فى كتابه « الشعر والشعراء » الجاحظ فى مذهبه الأدبى من ايثار الطبع والرونق والماء والبعد عن التكلف والاستكراه والتعقيد .

ومؤلف نقد النثر يبدو فى كتابه أثر الجاحظ ، وهو وان كان نقد « بيان » الجاحظ فى أول كتابه الا أنه قد تأثر به الى حد كبير ، فكلامه على أنواع البيان ونظره اليه نظرة واسعة أعم من البيان بالعبارة هو صنيع الجاحظ فى كتابه ، ويتكلم على اختيار مواقع الكلام وأوقاته ومناسبته للسامعين ومطابقة الكلام للمقام (١) وتلك آراء الجاحظ ، ويرى أن اللحن يستحسن من الجوارى وأن من الصواب معرفة أوقات الكلام والسكوت وأقدار الألفاظ والمعانى بأن يلبس المعنى ما يليق به من اللفظ ، كما يرى أن من أوصاف البلاغة أن يتساوى فيها المعنى واللفظ فلا يكون اللفظ الى القلب أسبق من المعنى ولا المعنى أسبق من اللفظ ، وتلك كلها آراء الجاحظ ، الى غير ذلك من كثير من مظاهر التأثر والاحتذاء .

وكذلك دعا الآمدى الى المذهب الأدبى الذى دعا اليه الجاحظ فى كتابه البيان .

---

(١) ٩٦ نقد النثر .

ودعوة أبى الحسن الجرجانى فى وساطته الى ترك التكلف والاسترسال مع الطبع (١) ، والى تقسيم الألفاظ على رتب المعانى هى دعوة الجاحظ فى بيانه ، وان كانت مظاهر التأثر بالجاحظ تبدو معدومة فى الوساطة .

وأبو هلال العسكرى فى « الصناعتين » متأثر بالجاحظ وكثير الافادة منه ومن كتابه « البيان » . وكتاب « الصناعتين » سير فى السبيل الذى عبده الجاحظ واتمام لما بدأ به ، وكثير من آراء الجاحظ نجدها فى الصناعتين وان كان للصناعتين ميزة شرحها والتعليق عليها ، وقد ينقلها نفسها ، وقد يستدل بها ، وينقل وصية بشر بن المعتمر ويشرحها ، وعلى العموم فالجاحظ هو المرجع الأول لأبى هلال .

وكذلك ابن سنان الخفاجى ينقل فى كتابه « سر الفصاحة » عن الجاحظ كثيرا .

وعبد القاهر الجرجانى شديد التأثر بالجاحظ وكتابيه « الحيوان » « والبيان » ، يأخذ عنه كثيرا من آرائه بدون ذكر له ، وقليلا ما يشير اليه ، فكلام عبد القاهر عن البيان يتجلى فيه روح الجاحظ ورأيه فى أن فضيلة الكلام لنظمه لا للفظه ولا لمعناه هو روح كلام الجاحظ ، وعبد القاهر ورأيه فى السجع متأثر بالجاحظ ، وبلاغة الألفاظ من أن تكون مألوفة ليست وحشية ولا سوقية دعا اليها الجاحظ قبل عبد القاهر ، وتعريف عبد القاهر للبلاغة هو روح الجاحظ فى بيانه ، وايثاره من الكلام ما كان معناه الى قلبك أسرع من لفظه الى سمعك مما سبقه اليه الجاحظ وينقل عبد القاهر عن الجاحظ كثيرا ، الى غير ذلك من مظاهر التأثر الكثير .

ولكتاب البيان كذلك أثره فى النقد الأدبى فهو سجل حافل للآراء

---

(١) ٣٠ من كتاب الوساطة .

المختلفة فى النقد مما لا يزال الى الآن موضع البحث والاعجاب .. والجاحظ الذى نقد مذاهب أصحاب الصنعة من الشعراء وآثر عليها مذهب المطبوعين كان يضع بذلك أساسا كبيرا لعلم النقد وتطوره الأدبى .. وعصرنا الحديث يؤمن كل الايمان برأى الجاحظ ويسير فى تياره الفكرى والأدبى كما يسير على ضوئه فى البيان العربى وبلاغته.

— ٣ —

كان للعرب فى حياتهم الأولى ذوق وفيهم طبع ، وكانوا بهذا الطبع وذلك الذوق وفى مثل بيئتهم البدوية فى غنى عن الشرح والتحليل والتوجيه والتعليل لأحكام النقد الأدبى ولاصول البيان العربى ومذاهبه واتجاهاته . كانوا يسمعون النص الأدبى فيوحى اليهم طبعهم بكل شىء ، ويرون من يسمع منهم ويأخذ عنهم فى غنى بذوقه وطبعه عن كل شىء ، ولذلك بقيت أصول النقد والبيان بعيدة عن البحث والدراسة والتقرير .

وفى ظلال الحياة الاسلامية اختلطت العناصر وتمازجت الثقافات وتجاورت الطباع والأذواق ، فسرت العدوى فى البيئة العربية الخالصة ، وظهرت فى مظهر من اللكنة المستهجنة ومن الخطأ المردود فى اشتقاق بعض الكلمات العربية وتصريفها وفى اعرابها وأشكال الحرف الواجبة لها ، فسرت بين علماء الدين والعربية روح من الجد والاقدام والعزيمة التى صممت على تلاق آثار هذه العدوى حتى لاتمس العربية فى صميمها وفى كتابها المقدس الحكيم ، وظهرت لذلك الدراسات النحوية ثم اللغوية بمظهر جاد لا وناة فيه . بيد أن ذلك لم يثن رجال الأدب عن غاياتهم ، ولم يحل بينهم وبين اتجاهاتهم وطبائعهم ، فكثر النقد الأدبى ودخلته روح جديدة من البحث والتوجيه والتعليل ، وتكونت من ذلك أصول أدبية موجزة لها قيمتها فى الأدب والنقد والبيان .

وبعد أن أشبع الفكر الاسلامى رغباته من البحث والدراسة

فى تقويم اللسان العربى وتصحيح الملكات العربية فى النطق واللهجة ، اتجه رجال العربية — مع مسايرتهم للدراسات العربية واللغوية — الى الدراسات الأدبية والبيانية حرصا على ارضاء ملكاتهم وأذواقهم وتمشيا مع التطور الفكرى والترف العقلى فى دراسة العربية وآدابها ، ومسايرة لروح البحث المتجلية فى الثقافات الأخرى التى امتزجت بالثقافة الاسلامية ، والتى كان لهـا الأثر والخطر فى اثارة مشكلات الأدب والبيـان ، وفى بحث عناصر بلاغة الكلام ، وفى توجيه أذهان الكتاب والأدباء الى المجدى المقبول من الأساليب وطرق الاداء وفى التفكير والمعنى ، وفى مراعاة شتى المقامات وسائر الأحوال التى يجب على الأديب والخطيب والكاتب والشاعر مراعاتها والالمام بها . وكانت عناصر الثقافة البيانية والأدبية اذ ذاك تتجلى فى طبقتين :

(ا) طبقـة رواة الأدب العربى من البصريين والكوفيين والبغداديين ، الذين كانوا يرونه اشباعا لنهم فطرتهم وأذواقهم الأدبية العربية الخالصة ، من أمثال : خلف والأصمعى وأبى عبيدة وأبى زيد ويحيى بن نجيم وعمرو بن كركرة وابن سلام ، وأستاذهم أبو عمرو ابن العلاء أعلم الناس بالعرب والعربيـة (١) ومن عامة رواة الأدب والبيان الذين لا يقفون الا على الألفاظ المتخيرة والمعانى المنتخبة ، وعن الألفاظ العذبة والمخارج السهلة والديباجة الكريمة ، وعلى الطبع المتمكن والسبك الجيد ، وعلى كل كلام له ماء ورونق ، وعلى التى اذا صارت فى الصدور عمرتها وفتحت للسان باب البلاغة — كما يقول الجاحظ — دون النحويين الذين ليس لهم غاية الا كل شعر فيه اعراب ، والأخباريين الذين لا يقفون الا على كل شعر فيه الشاهد والمثل ، واللغويين الذين لا يرون الا كل شعر فيه غريب (٢) . بجوار هذه الطبقة الشعراء الذين طارت شهرتهم فى آفاق الأدب العربى أمثال ابن هرمة وبشار وصالح بن عبد القدوس وأبى نواس وأبى العتاهية والسيد الحميرى

---

(١) ١/٢٠٦ البيان . (٢) ٣/٢٢٤ البيان .

وأبان اللاحقى ومنصور النمرى وسلم الخاسر وابن أبى عيينة ويحيى ابن نوفل وخلف بن خليفة ومحمد بن بشير والعتابى ومسلم وأبى تمام (١) ، وغيرهم من الخطباء ، ورجال الأدب والبيان ، من بيت بنى هاشم وبنى العباس ومن رجال الفرق الأدبية والسياسية والدينية لا سيما المعتزلة وفرق المتكلمين الذين رآهم الجاحظ فوق أكثر الخطباء وأبلغ من كثير من البلغاء (٢) .

(ب) طبقة الكتاب الذين لم ير الجاحظ قوما قط أمثل طريقة فى البلاغة منهم ، والذين التمسوا من الألفاظ ما لم يكن متوعرا وحشيا ولا ساقطا سوقيا (٣) ورأى الجاحظ البصر بهذا الجوهر من الكلام فيهم أعم (٤) وحكم مذهبهم فى نقد (٥) البيان ، وكان جلهم من عناصر أجنبية من الفرس والروم والسريان والقبط من الذين فهموا لغاتهم وبلاغتهم ثم قرءوا البيان والبلاغة العربية وآدابهما وأخذوا يحدثون فى اللغة العربية مذاهب جديدة فى الكتابة والأدب والبيان ويدعون الى آراء خطيرة تمس الذوق الأدبى وترضى اتجاهات الحضارة والترف العقلى والاجتماعى الذى داخل البيئة العربية منذ بدء القرن الثانى ، كما أخذوا يلقنون مذاهبهم الأدبية العامة لتلاميذهم والمشايعين لهم من شداة الأدب كما ترى فى محاضرة بشر بن المعتمر المعتزلى م سنة ٢١٠ هـ فى أصول البلاغة التى يقول الجاحظ عنها : ان بشرا مر بابراهيم بن جبلة بن مخرمة وهو يعلم الفتيان الخطابة فوقف بشر ، فظن ابراهيم أنه انما وقف ليستفيد أو ليكون رجلا من النظارة فقال بشر : أضربوا عما قال صفحا واطووا عنه كشحا ، ثم دفع اليهم صحيفة من تحبيره وتنميقه فى أصول البلاغة وعناصر البيان (٦) ، ومن رجالات هذه الطبقة أبو العلاء سالم مولى هشام بن عبد الملك

---

(١) ١/٥٤ البيان . (٢) ١/١٠٦ . (٣) ١/١٠٥
(٤) ٣/٣٢٥ (٥) ١/٢٤٠ (٦) ١/١٠٤

وعبد الحميد الكاتب أو الأكبر كما يقول الجاحظ (١) ، وعبد الله ابن المقفع وسهل بن هارون والحسن بن سهل والفضل بن سهل ويحيى ابن خالد وجعفر بن يحيى وأيوب بن جعفر وأحمد بن يوسف ومحمد ابن عبد الملك الزيات وعمرو بن مسعدة وسواهم من كتاب الدولة الذين صعدوا بفنهم وبلاغتهم الى أرقى المناصب فى الخلافة الاسلامية ، وكان لهذه الطبقة أثرها فى بحث عناصر البيان وبلاغة الكلام ورسم المذاهب الأدبية التى توائم ذوق بيئتهم وعصرهم مما نراه مبثوثا فى كتاب البيان والتى لا تخرج عن أحكام الذوق الأدبى السليم ولا يتعمد أصحابها فيها مذاهب العلماء فى الشرح والتحليل .

وظهر الجاحظ والبلاغة العربية تفيض سحرا وقوة وروعة ، سواء فى خطب الخطباء وشعر الشعراء ورسائل الكتاب ومحاضرات المحاضرين وجدل المجادلين . كما ظهر وعناصر البيان العربى تكاد تخطو فى طفولتها نحو الغاية وتسير فى هدى العلم والذوق الى منزلتها من الوضوح والتمايز والاستقلال ، فدخل الجاحظ المعمعة وتوسط الميدان وسار انبه أبطاله المعلمين .. أما الجاحظ فى بلاغة بيانه وجلالة أسلوبه وحلاوة منطقه واستقلاله بمذهب خاص فى الكتابة والبيان فهو فى ذلك ليس له نظير ولا ينكره عليه أحد ، وبحق ماوسم بشيخ الكتاب .. وأما الجاحظ فى وضع أسس البيان وعناصر البلاغة العربية فهذا ما نريد أن نعرف أثره فيه .

خدم الجاحظ البيان العربى خدمة لا تقدر ، بالكتابة — فى كتبه — فى شتى بحوثه وجمع مختلف الآراء والمذاهب فى عناصره وألوانه ، ولم نعلم أن باحثا أفرد البيان العربى بتأليف قبل الجاحظ ، انما كان كل ما هناك آراء مبثوثة متفرقة لكثير من رجال البيان والأدب ، وكانت خسارة البيان فى عدم تدوينها تكاد تكون فادحة بالغة

---

(١) ١/١٥١

منتهاها ، وما نجده فى الكتاب لسيبويه ومجازات القرآن لأبى عبيدة والشعر والشعراء لابن سلام فانما هو قليل من كثير اذا قيس بما جمعه الجـاحظ فى كتبه ومؤلفاته ، نعم لا يمكن لأى باحث أن ينكر حقيقتين هامتين :

أولاهما أن الجاحظ أظهر من أفرد البيان بمعناه العام بالتأليف فى كتابه الكبير « البيان والتبيين » ، وثانيتهما أن له فضل جمع مختلف الآراء والمذاهب فيه ، والجمع والاحصاء أول خطوات البحث والابتكار والتجديد ، ومنزلة العالم فى الجمع لا يمكن الغض منها أو الاستهانة بها ، واذا قرأت كتب الجاحظ لا سيما « الحيوان » و « البيـان » عرفت منزلة الجاحظ فى هذا السبيل . ومن الغريب أن ترى شخصية الجاحظ واضحة فيما يجمعه وضوحهـا فيما يبتكره من آراء ومذاهب بعكس كثير من العلماء والباحثين .

والجاحظ فوق أثره الكبير فى جمع آراء رجال البيان والبلاغة فى مذاهبهما وعناصرهما فى كتابه « البيان » على الخصوص ، له وراء ذلك فضل خاص وجهد مستقل فيه ، فقد استقل ببحوث جديدة صبغها بشخصيته واستمدها من عقليته وثقافته وعرفت له وحده دون سواه من الباحثين فى البيـان العربى وقواعده ، وقبل أن نفصـل ذلك كله نتساءل : ما هو البيان الذى نريده ويعنيه الجاحظ فى كتابه « البيان والتبيين » ؟

لا شك أن الجاحظ لم يعن بالبيان ذكر قواعد البـلاغة العربية وأدائها فى ألفاظها وأساليبها ومعانيها كما فهم مؤلف نقد النثر ونقد على ضوئه الجاحظ فى كتابه البيان حيث يقول : « أما بعد فانك ذكرت لى وقوفك على كتاب عمرو بن بحر الجـاحظ الذى « سماه البيـان والتبيين » وأنك انما وجدته قد ذكر فيه أخبارا منتخلة وخطبا منتخبة ولم يأت فيه بوصـف البيان ولا أتى على أقسامه فى هذا اللسـان ،

وكان عندما وقفت عليـــه غير مســـتحق لهذا الاسم الذى نسب (١) اليه » •

ولا شك أن أبا هلال العسكرى كان أدنى الى الانصاف حينما نوه فى كتابه الصناعتين بكتاب « البيان » وذكر خطورته كمؤلف من مؤلفات البيان العربى ، وان كانت أبحاثه فى البيان موجزة مفرقة (٢) ، فهو بدون شك ومهما أردنا بكلمة البيـــان من معان مؤلف من مؤلفات البيان ، ولا يضيرنا بعد ذلك ان كانت بحوثه فى البيان مجملة أو مفصلة مجموعة أو مفرقة ، ونحن على كل حال فى الرأى مع أبى هلال •

ولا شك أيضا أن ابن شهيد حين ذهب الى أن كتاب « البيـــان للجاحظ » لم يكشف فيه مؤلفه عن وجه تعليم البيان ليرى القارىء كيف يكون وضع الكلام وتنزيل البيان وكيف يكون التوصل الى حسن الابتداء وتوصيل اللفظ بعد الانتهاء ، وأن الجاحظ استمسك بفائدته وضن بما عنده غيرة على العلم وشحا بثمرة الفهم (٣) قد ظلم الجاحظ وكتابه وحكم عليه حكمه متأثرا باتجاهه هو فى البيان الذى انتحى فيه ناحية تطبيقية حتى كان كما يقول يعلم الشحاذ الأساليب التى يستدر بها عطف الناس (٤) • فابن شهيد حين أراد أن يكون كتاب « البيان » كتابا يرسم فيه مؤلفه طرق الأداء ويعبد ســبل التعبير عن مختلف الأغراض التى تؤثر فى عقول النـــاس وعواطفهم ، قد ظلم الجـــاحظ مرتين : ظلمه حين تناسى ما كتبه وما جمعه الجاحظ فى رسم المذاهب الأدبية المختارة فى الأداء والتعبير ، وظلمه مرة أخرى حين حكم فيه اتجاهه هو ونقده على ضوئه وقاس كتابه بمقياسه •

وعلى كل فالجاحظ انما أراد بالبيـــان ما كشف لك قناع المعنى وهتك الحجب دون الضمير حتى يفضى السامع الى حقيقته (٥) ، وأراد

---

(١) ص ١ نقد النثر (٢) ٦ و ٧ الصناعتين •
و(٣) الزوابع والتوابع ، والذخيرة (٤) الذخيرة (٥) ٦٨/١ البيان

ما أراده جعفر بن يحيى من البيان ، وهو أن يكون الاسم يحيط بمعناك ويجلى عن مغزاك وتخرجه من الشركة ولا تستعين عليه بالفكرة والذى لابد منه أن يكون سليما عن التكلف بعيدا من الصنعة بريئا من التعقيد غنيا عن التأويل (١) ، أراد به ســاحر الأدب ورائعــه من نثر ونظم وأسجاع ورسائل وخطب ومقالات وأحاديث وحجاج ، وأراد به أمثل الأســاليب وأقوم الألفاظ التى تقرب ما غمض من المعانى وتوضـــح ما خفى من الافكار ، ذاكرا معها أصحابها من أولى اللسن والخطابة والبلاغة فى المنثور والمنظوم ، ولذلك كان كتابه أخبارا منتحلة وخطبا منتخبة كما يقول مؤلف نقد النثر ، والجاحظ لا يكتفى بذكر ذلك وحده بل يذكر المذاهب الأدبية العامة فى عصره وقبل عصره فى النقد والأدب والبيان كلما دعا اليها داع أو ألمت بها مناسبة ، ويذكر فى سياق ذلك آراءه الأدبية التى يؤثرها ويدعو اليها فى شىء من الاجمال والايجاز وفى مواضع متفرقة من كتابه كما يقول أبو هلال .

— ٤ —

ارتاب بعض الباحثين المعاصرين فى شخصـــية الجاحظ فى كتابه البيان ، ورأى أنها تكاد تكون معدومة فيه (٢) . وهذا موضع مناقشة هذه الفكرة الجائرة .

ان من يمعن فى كتاب « البيان » يؤمن معى ايمانا جازما بمدى ما فى هذا الرأى من جور على الجاحظ وغبينة لكتابه ، فشخصية الجاحظ فى كتابه البيان ليسـت معــدومة ولا ضـــعيفة ، بل نراها قوية مهيمنة ونلمسها فى ثناياه فى مظاهر منوعة :

فهى فيما يذكره الجاحظ من أدب ورواية ، وفيما يسرده من آراء رجال البيان العربى فى البلاغة وعناصرها ومذاهبها ، ويكفى لظهورها

---

(١) ٨٥ و ٨٦/البيان (٢) ص ٧ مقدمة نقد النثر .

ف هذا المظهر صبغ شخصية الجاحظ لهذه الروايات بصبغته ، وهضم عقليته لها واخراجها ف أسـلوبه الساحر ، وف اسـتطراده الفاتن العجيب ، وف سعة تامة واحاطة كبيرة باللغة والأدب والبيان •

وهى ف تعليقه على هذه الروايات والآراء ، وف نقده لها وحكمه عليها ، ولن نحصى من ذلك نقده للآراء العامة ف الأدب وما يتصل به ، مما نراه ف تعليقه على رأى الأهتم ف الأحنف بن قيس (١) ، وف موافقته لرأى أياس ف حمد اعجاب الرجل بقوله (٢) ، وف تعليقه على الحكمة القائلة : قيمة كل امرىء ما يحسنه (٣) ، وف ثنائه على كلمة بليغة لمحمد بن على (٤) ، وف نقده لرأى ف تعليل تهيب عمر ف خطبة النكاح (٥) ، وف مناقشته لكلمة عن ابن الزبير (٦) ، وف نقده لمن يستحمق المعلمين ورعاة الغنم (٧) ، وف نقده لرأى من يضـع الحبشة مع الأمم العريقة ف الثقافة (٨) ، وف نقده رواية خطبة رويت لمعاوية (٩) الى آخر ما فيه من التعليق والنقد ف هذا الباب • انما نريد نقده لمـا يتصـل بالبيـان من آراء ومذاهب تمس صميم البلاغة العربية ، ولا بأس أن نعد بعض هذه التعاليق والنقود •

أنشد خلف الأحمر الجاحظ :

وبعض قريض القوم أولاد علة يكد لسـان النـاطق المتحفظ

فعلق الجاحظ على هذا البيت تعليقا جميلا ، فالشعر « اذا كان مستكرها وكانت ألفاظ البيت من الشعر لا يقع بعضها مماثلا لبعض كان بينها من التنافر ما بين أولاد العلات ••• وأجود الشعر ما رأيته متلاحم الأجزاء سهل المخارج ، فيعلم بذلك أنه أفرغ افراغا جيدا

---

(١) ٥٧ و ١/٥٨ • (٢) ١/٨٢ • (٣) ١/٧٣
(٤) ١/٧٤ • (٥) ١/٩٢ • (٦) ١/١٩٢ •
(٧) ١/١٧٤ • (٨) ١/١٤٣ • (٩) ٢/٥٧ •

وسبك سبكا واحدا ، فهو يجرى على اللسان كما يجرى على الأذهان (١) » وذلك تقرير لبلاغة الألفاظ والنظم ولتنافر الحروف والكلمات سبق اليه الجاحظ عبد القاهر وشيعته والسكاكى ومدرسته بقرون •

ويرى بليغ أن بلاغة الكلام فى أن يسابق معناه لفظه ولفظه معناه ، فلا يكون لفظه الى سمعك أسبق من معناه الى قلبك ، والجاحظ يثنى على هذا الرأى ويجتبيه (٢) •

ويرى ابن المقفع أنه يجب أن يكون فى صدر كلامك دليل على حاجتك ، كما أن خير أبيات الشعر البيت الذى اذا سمعت صدره عرفت قافيته (١/٩١ بيان) ، فيشرح ذلك الجاحظ ويدلى برأيه فيه (٣) ، مقررا بلاغة الاستهلال تقريرا ليس بعده من غراية •

والجاحظ جد معجب ببلاغة الكتاب ، يتجلى ذلك فى نقده لمذهبهم الأدبى فى الكتابة والبيان (٤) : ، وهو يرى أن حديث الأعراب الفصحاء بالغ الغاية فى الامتاع ، وليس أفتق للسان ولا أجود تقويما للبيان (٥) منه ، كما يعجب ببلاغة المتكلمين والنظارين ويراهم فوق أكثر الخطباء وأبلغ من كثير من البلغاء (٦) •

وذكر الجاحظ رأى ابراهيم بن محمد فى البلاغة وأنه يكفى من حظها ألا يؤتى السامع من سوء افهام الناطق ولا الناطق من سوء فهم السامع ، ثم أشاد به وأثنى عليه (١/٧٥) •

واختلف علماء البيان فى الخطابة وهل يستجاد فيها الاشارة والحركة ؟ فذهب النظام الى استجادتها ، وجعلها رجل كأبى شمر

---

(١) ١/٦٢ (٢) ١/٩١ (٣) ١/٩٢
(٤) ١/١٠٥ و ٣/٢٢٥ (٥) ١/١١٠ (٦) ١/١٠٦

عيبا فى الخطيب ، والجاحظ يذكر ذلك ويميل الى رأى أستاذه النظام محللا رأى أبى شمر ويرجعه الى صفاته الخلقية والنفسية من الوقار والترمت (٦٩ و ٧٧ و ١/٧٨) .

ويختلفون كذلك فى شىء آخر يمس الخطيب والبليغ : فهل السمت والجمال من تمام آلة البليغ أو لا ؟ يورد الجاحظ ذلك ويذكر بتفصيل رأى سهل بن هرون فى عدم عدهما من أدوات البلاغة (١/٧٦) ، ولا شك أن الجاحظ كان يدافع عن نفسه بما أورده وفصله فى ذلك الموضوع .

وكثرة الكلام يراها بليغ كاياس خيرا وبلاغة ، ولكن الجاحظ يرد عليه ، لأن للكلام غاية ، ولنشاط السامعين نهاية (١/٨٢) ... وكذلك اعادة الحديث من العلماء من ذمه ومنهم من حمده ومنهم من جعل لحمده مواضع وأسبابا ، والجاحظ يتكلم فى ذلك ويدلى برأيه فيه ويجعله على قدر المستمعين له ودرجاتهم العقلية ، ويعلل سر ما فى الذكر الحكيم من اعادة وتكرير (٨٤ و ١/٨٥) .

والجاحظ يروى وصف ثمامة بن أشرس لبلاغة جعفر بن يحيى (١/٨٥) ، ويصف هو بلاغة ثمامة (١/٨٩) ، ويصف بلاغة بليغ يحذر من سحر الكلام وأثره ويدعو الى اجتناب السوقى والوحشى والى أن لا يجعل الأديب همه فى تهذيب الألفاظ وشغله فى التخلص الى غرائب المعانى (١٧٦ و ١/١٧٧) . والجاحظ هو نفس هذا البليغ . وكثيرا ما يتكلم فيخرج آراءه فى معرض الرواية عن سواء لغرض ستعلمه بعد حين ، وذلك كله يستحق الدراسة والامعان ، لأنه يمس عناصر البيان وبلاغته .

والخطبة يستحسن أن يكون فيها آى من القرآن أو بيت من الشعر أم لا ؟ يذكر ذلك الجاحظ ويروى مذاهب البلغاء فيه (١/٩٣) ، ويذكر أن منها الطوال ومنها القصار ، وأن لكل مواضع تليق به (٢/١٩) .

ويرى العتابى أن كل من أفهمك حاجته فهو بليغ ، فيذكر الجاحظ ذلك ويحلله (١/١٢١) .. والصمت يحمده قوم ويذمه قوم (١٤٣ — ١٤٦ ، ١/١٨٣) والجـاحظ يقف من هؤلاء وهؤلاء موقف النـاقد الحصيف ، فيناقش رأى من آثر الصمت (١٤٧ ، ١٤٨ ، ١٨٤ ، ١٨٥ ، ٢٠٥ جـ ١) ويدلى برأيه هو فى قوة وروعة ، داعيا الى ألا يتمسك البليغ بحكمة الصمت مادام يجد القوة والمقـدرة والملكات البيانية المواتية (١/١٤٧) .

والشاعر أو البليغ قد يستطيع فنا من فنون البيان ويجيد فيه دون فن آخر ، ورأى بعض الشعراء حين سئلوا عن عدم احسانهم فى بعض أنواع الشعر وفنونه أن ذلك ليس مرجعه قصورا فى ملكاتهم أو عجزا فى مقدرتهم الأدبية ، والجاحظ يناقشـهم ويفيض معهم فى الجدال ذاهبا الى أن الرجل قد يكون له طبع فى فن من فنون الأدب دون فن وفى باب دون باب (٥١ ، ١٥٠ ، ١٥١ جـ ١ ، ٢٥٩ جـ ٢) .

وبلاغة المتقعرين من اللغويين والنحويين يستسـمجها الجـاحظ وينقدها ويرى أن نهجهم فيهـا ليس من أخـلاق الكتاب ولا آدابهم (١/٢٤٠) .

وللشعوبيين رأى فى العرب وبيانهم ، والجاحظ لا يدعهم دون أن يحاسـبهم ويناقشـهم ويرد عليهم فى قوة وحرارة دفاع ، وفى كل ما أخذوه على العرب ، لا سـيما ما يمس البيان والبلاغة بوجه خاص (١٥ و ٣/١٦) .

ويرى بعض الباحثين أن أداة الكتابة وقريض الشـعر كانت فى رسول الله (ص) معدومة ، فيناقش الجاحظ رأيهم ذاهبا الى أنهـا كانت فى رسول الله تامة ، ولكنه (ص) صرف تلك القوى الى ما هو أزكى بالنبـوة ، وأراد أن لا يكون للشـاعر متعلق عما دعا اليه ، وأنه (ص) لمـا طال هجرانه لقرض الشعر وروايته صـار لسـانه

لا ينطق به ، والعادة توأم الطبيعة (٢٣٠ و ٣/٢٣١) ، ونحن نستجيد رأى الجاحظ كل الاستجادة ، وعلل الجاحظ أمية رسول الله وعدم قرضه الشعر فى افاضة وقوة بيان (٣/٢٢٨) ، وأدلى برأيه فى قوله (ص) : نحن معشر الأنبياء بكاء (٣/٢٧٦) •

وأخيرا فهذه هى شخصية الجاحظ فى بعض ما ناقش فيه آراء رجال البيان وهى لعمرى شخصية قوية مهيمنة لا تدعك حتى تؤمن بالجاحظ وثقافته ومذهبه واتجاهه فى الأدب والبيان •

وللجاحظ فوق ذلك كله شخصية الباحث فى أصول البيان العربى:

١ — فالجاحظ أظهر من تكلم فى البيان وحاجته الى التمييز والسياسة والترتيب والرياضة والى تمام الآلة واحكام الصنعة ، والى سهولة المخرج وجهارة المنطق وتكميل الحروف واقامة الوزن وأن حاجة الكلام الى الحلاوة كحاجته الى الجزالة • وأن ذلك من أكبر ما تستمال به القلوب وتزين به المعانى (١/٣٠) ولذلك فقد تحدث عن عيوب المنطق وآفات اللسان (٣١ و ٣٣ و ٤٤ — ٤٦ و ٥٨ — ٦٣ و ٦٦ و ٦٧ ج ١) ، وتكلم على تنافر الحروف والألفاظ (٦٣ — ٦٤ ج ١) ونادى بضرورة تجنب البليغ ألفاظ المتكلمين (١٠٦ — ١٠٨ ج ١) وبترك الوحشى والسوقى (١١٠ ، ١٧٦ ج ١) وكراهة الهذر والتكلف والتعقيد والتقعير والاسهاب والفضول (٢١ و ١٤١ و ٢٣٩ ج ١) ، ونفى الكلام الملحون عن أن يكون من البلاغة (١٢١ — ١٢٤ ج ١) متحدثا عن اللحن واللحانين (١٥٥ — ١٥٤ ج ٢) •• وذكر البيان وأن مداره على الأفهام (١/٦٨) والوضوح مع شرف المعنى وبلاغة اللفظ وصحة الطبع والبعد عن الاستكراه والتكلف ومع قوة التأثير وسحر البيان (٧٣ و ٧٥ و ٨٩ ج ١) وأن يكون الكلام موزونا أصيب به مقدار الحاجة (١٦١ و ٦٢ ج ١) مع العارضة واللسن (١٣٠ ، ١٦٣ ج ١) ومع ترك الاسراف فى الصنعة والتهذيب (١/١٧٦) ومع استعمال

المبسوط والمقصور في موضع البسط والقصر (٣/٢٨١) ومع المطبع المتمكن والديباجة الكريمة والماء والرونق (٢٢٤ و ٢٢٥ جـ ٣) ومتى شاكل اللفظ معناه وأعرب عن فحواه وكان لتلك الحال وفقا ، ولذلك القدر لفقا ، وخرج من سماجة الاستكراه وسلم من فساد التكلف والفضول والتعقيد ، حبب الى النفوس واتصل بالأذهان وهشت اليه الأسماع وخف على الألسن وشاع في الآفاق • وكثيرا ما يكرر الجاحظ اصطلاحات أدبية خاصة مثل (صناعة الكلام) (٦٩ و ٢٢٠ جـ ١) وصناعة المنطق (٤٨ و ٦٧ و ٢٠٩ و ٢٤٢ جـ ١) وهو يعنى بذلك هذا اللون الخاص من البيان البلاغي الذي يرسم مناهج الأداء •

وعنى الجاحظ أكثر ما عنى بالخطابة فأطال الكلام في أوصافها وعناصرها وأدواتها ومظاهرها وفي هيئة الخطيب وسمعته ، وذكر عيوبها وآفاتها ، ودعا الخطيب الى مراعاة شتى المقامات والأحوال ، والى أن يطيل حيث تجب الاطالة ويوجز حيث يجب الايجاز ، وذكر أكثر أعلامها ورجالها حتى عصره ، كما تكلم على رسالة الخطيب وأثرها في نفسه ، وأورد من الخطب القصار والطوال الكثير الرائع •

وتكلم على النثر والمحادثة والكتابة : بلاغتها وعناصرها ومذاهب الكتاب الأدبية فيها ، وعلى سحر الحديث المعاد ، والسجع مطبوعة ومتكلفه وبلاغة المطبوع منه ، وعلى اللحن وبدء ظهوره واللحانين ، وكثير من المثل في لحنهم ، وذكر الحكم والمواعظ والزهد والدعوات السياسية والدينية وكثيرا من مثلها ، وتكلم على رواية الأدب وطبقات الرواة من نحويين ولغويين واخباريين وأدباء واتجاهاتهم في الرواية •

كما ذكر الشعر وأثره وخطره وألوانه وطبقات الشعراء ، وتحدث عن مذاهب المطبوعين وأصحاب الصنعة منهم ، وعن الحوليات ورجالها ، وذكر بعد كلام الله ورسوله عن الشعر ، ومكانة الشعر والشعراء في الجاهلية وكيف غلبته الخطابة أخيرا بعد التكسب بالشعر وكثرة الشعراء ، وحتم على الأدباء الناشئين عرض ثمراتهم الأولى على أولى

العلم ورأى أن اجتماع الشعر والرجز والخطابة قليل ، وقلما ينبه الانسان فى أكثر من فن واحد منها ، وأن الشعر والغناء والنادرة مما يستجاد أطرافها دون أوساطها ، وتكلم على استواء الشاعرية واختلافها . الى غير ذلك مما يتصل بصميم البيان ، ومما تراه متفرقا فى الأجزاء الثلاثة من كتاب البيان .

٢ — ودعوة الجاحظ فى كتابه « البيان » — وفى مواضع متفرقة منه لا سيما الجزء الأول من كتابه الكبير — الى مذهب أدبى جديد مستمد من عقليته وثقافته وبيئته : هى المظهر القوى من مظاهر شخصية الجاحظ الواضحة فى كتابه البيان والتبيين . ويمكننا ارجاع هذا المذهب الى عناصره الأولى من : سحر اللفظ وتلاؤم الحرف ، ووضوح المعنى وترك التكلف والتعقيد والاغراب والوحشية والسوقية ، ومراعاة المقام واصابة الغاية ، مع الحذق والرفق والتخلص الى حبات القلوب واصابة عيون المعانى فى سحر ايجاز ، ومع البعد عما يكره من مظاهر مذمومة فى البيان مما يتعلق بخلق البليغ وخلقه أو طبعه وزيه ، ومع الحرص على صبغ ذلك كله بصبغة الرجل وأسلوبه وظهور شخصيته وأثره فيه ، ومع مسايرة الأديب للحركة الفكرية العامة فى بيئته ، ومع الحرص على ايثار نشاط السامعين والقراء والاحتيال عليه بالفكاهة الجميلة ، والاستطراد الساحر ، وبراعة الأسلوب وسحره وقوته ، والرواية الكثيرة لأعلام الأدب والبيان التى تلقى فى روع السامع والقارىء روح الهيبة والاعجاب بهم وبالمؤلف ، وبمناقشة الآراء التى تستحق المناقشة والنقد مما تجعل السامع والقارىء متطلعا مسايرا للمؤلف فى اتجاهاته الفكرية والأدبية ، الى غير ذلك من عناصر هذا المذهب الأدبى التى ترجع الى المعنى والأسلوب دون حرص على ترف البيان أو طلب لشتى ألوان البديع الا اذا طلبها الطبع واستدعاها المقام ؛ ومن الجدير بالملاحظة أن كثرة الرواية فى كتاب الجاحظ التى رآها بعض الباحثين المعاصرين من أسباب ضعف شخصيته انما هو غرض قصد اليه الجاحظ وأراده ، ليشعر القارىء بروحه ويؤمن

بما يوجهه المؤلف اليه من آراء وأفكار ، وليكتسب به رضــاه وتقديره واعجابه . ولا أحيلك فى فهم مذهب الجاحظ ذلك على صفحة من كتابه ، فاقرأ أى صفحة وعلى الأخص الجزء الأول من هذا الكتاب ، فستؤمن معى بما ذكرت .

٣ — وقد ظهر الجاحظ فى عصر شاع فيه اتجاهان أدبيان مختلفان: اتجاه يرمى الى الظهور بمظهر البداوة التقليــدى فى الأداء والتعبير فيؤثر الغريب من الألفاظ والعنجهى من الأساليب متناسيا روح العصر وذوقه ، واتجاه آخر تأثر بالحياة السياســية والاجتماعية وبألوان الحضارة فى العيش والتفكير ، فمال الى رقة الأســلوب وسهولته ، مع حرص على ارضاء الطبع والذوق ، وشاهد الجاحظ هذه التيارات الفكرية والأدبية المتنوعة وعاصرها ولكنه مال بطبعه وذوقه الى الاتجاه الأخير ، وكتابه البيان كله دعوة الى هــذا الرأى ، فهو حينا يشــيد بأدب الكتاب ومذهبهم فى البيان (١٠٥/١) ، وحينا يكرر الدعوة الى الوضوح والافهام ومسايرة الذوق والطبع (٧٣ جـ ١ و ٢٠ جـ ٢ و ٢٢٥ جـ ٣) ، وحينا ينقد مذاهب الصنعة فى الشعر (٥٤ ، ١٥٠ جـ ١ و ٢١ ، ٢٥ و ٢٦ جـ ٢) وحينا يدعو الى ترك التكليف والتعقيد والتقعير وايثار الأساليب السمحة الكريمة الساحرة (١١٠ جـ ١ و ٢٠ ، ٢١ جـ ٢ و ٢٢٤ جـ ٣) .

٤ — وتكلم الجاحظ عرضا على ألوان كثيرة من البيان ، وحلل كثيرا من أساليبه البيانية :

ذكر البديع ، حينما ذكر بعض مثله وأساليبه ، ورأى أنه مقصور على العرب ، ومن أجله فاقت لغتهم كل لغة ، وذكر كثيرا من الشــعراء الذين أكثروا منه فى شعرهم ، « ورأى أنه لم يكن فى المولدين أصوب بديعا من بشار وابن هرمة (٢٤٢ جـ ٣ ، ٥٤ و ٥٥ و ١) .. وتكلم على ألوان من البيان من سجع ومزدوج وقصيد وأجازة (١٦ جـ ٣) . فأما السجع فقد تكلم عليه الجاحظ بتفصيل وذكر آراء رجال البيان فيــه

وآثر المطبوع منه (١٩٤ و ١٩٥ جـ ١) وأما المزدوج من الكلام فقد ذكر له مثلا فى باب صغير عقده له (٩٦ جـ ٢) ومن مثله التى ذكرها الحديث : « اللهم علمه الكتاب والحساب وقه العذاب » . وقول مالك ابن الأخطل فى الشاعرين « الفرزدق وجرير » : جرير يغرف من بحر والفرزدق ينحت من صخر .

وتكلم على الاستعارة وعرفها حين ساقه الكلام الى ذكر مثل من مثلها ورآها تسمية الشىء باسم غيره اذا قام مقامه (١١٥و١١٦ جـ١)، وبرجع بعض الأساليب الى الاستعارة (راجع ١٩٣/١) .. وذكر التفصيل والتقسيم حين مر بأسلوبين من أساليبهما (١٧٠/١ ، ٩١ و ٩٢/٢) .. وتكلم على الاستطراد وبلاغته وأثره فى التأليف والكتابة (١٣٨/١ ، ١٠٥/٣) .. وذكر كثيرا من مثل الكناية وحللها (١٨٠/١ ، ٣١ جـ ٣) ، كما ذكر كثيرا من الأمثال التى ضرب بها العرب المثل (٨٦ ، ١٨٣ جـ ١) .. وتكلم على جودة الابتداء ، وجودة القطع والقافية — أى حسن خاتمة الكلام والشعر — (٨٩ و ١٥٥ جـ ١) .. وعقد الجاحظ بابا قال فيه : ويذكرون الكلام الموزون ويمدحون به ويفضلون اصابة المقدار ، وذكر كثيرا من مثله ، وهذا هو باب الاحتراس الذى ذكره البيانيون .. وحلل الجاحظ كثيرا من الأساليب البيانية البليغة (راجع ١٦٣ ، ١٦٦ جـ ١ و ٢٠١ جـ ٢) تحليلا بيانيا احتذى حذوه فيه العلماء ، وذكر مثلا رائعة للتشبيه (٢٢٩/٢) وأشار اليه فى الجزء الثالث ص ٢٤٣ ، وعقد الجاحظ فصلا من فصول كتابه عنونه بباب اللغز فى الجواب (٢١٦/٢) ، والمذهب الكلامى نوع من البديع كان الجاحظ أول من لقبه (١) به ، والجاحظ جد خبير بمذهب الايجاز وكثير الدعوة والاشارة اليه (٨١ جـ ١ و ١٩٨ جـ ٢) ، وأشار الجاحظ الى أسلوب القلب (١٨٠ جـ ١) ، والى سواه من الأساليب التى يعنى بها علماء البلاغة .

---

(١) راجع البديع لابن المعتز نشر محمد خفاجى ، ٧٦/٢ العمدة .

وبعد : فتلك آراء الجاحظ البيانية الخاصة به ، وهى وان كانت دراســات موجزة مفرقة الا أنها على كل حال ذات أثر كبير فى خدمة البيان العربى ..

أول صحيفة فى البلاغة لبشر بن المعتمر

عن البيان والتبيين للجاحظ

مر بشر بابراهيم بن جبلة بن مخرمة السكونى الخطيب وهو يعلم الفتيان الخطابة فوقف بشر ، فظن ابراهيم أنه انما وقف ليســتفيد أو ليكون رجلا من النظارة ، فقال بشر ، اضربوا عما قال صفحا واطووا عنه كشحا .. ثم دفع اليهم صــحيفة من تحبيره وتنميقه ، وكان أول ذلك الكلام :

خذ من نفسك ساعة نشاطك وفراغ بالك واجابتها اياك ، فان قليل تلك الساعة أكرم جواهر ، وأشرف حسبا ، وأحسن فى الاسماع . وأحلى فى الصدور وأسلم من فاحش الخطأ ، وأجلب لكل عين وغرة ، من لفظ شريف ومعنى بديع ..

واعلم أن ذلك أجدى عليــك مما يعطيــك يومك الأطول بالكد والمطاولة والمجاهدة وبالتكلف والمعاودة . ومهما أخطأك لم يخطئك أن يكون مقبولا قصدا وخفيفا على اللسان سهلا ، وكما خرج من ينبوعه ونجم من معدنه .

واياك والتوعر ، فان التوعر يســلمك الى التعقيد ، والتعقيــد يستهلك معانيك ويشين ألفاظك ، ومن أراغ معنى كريما فليتمس له لفظا كريما ، فان حق المعنى الشريف ، اللفــظ الشريف ، ومن حقهمــا أن تصونهما عما يفسدهما ويهجنهما ، وعما تعود من أجله الى أن تكون أسوأ حالا منك قبل أن تلتمس اظهارهما وترتهن نفســك بملابستهما وقضاء حقهما .

وكن فى ثلاث منازل : فان أولى الثلاث : أن يكون لفظك رشيقا عذبا وفخما سهلا ، ويكون معناك ظاهرا مكشوفا وقريبا معروفا ، اما عند الخاصة ان كنت للخاصة قصدت ، واما عند العامة ان كنت للعامة أردت ، والمعنى ليس يشرف أن يكون من معانى الخاصة ، وكذلك ليس يتضع بأن يكون من معانى العامة ، وانما مدار الشرف على الصواب واحراز المنفعة مع موافقة الحال وما يجب لكل مقام من المقال • وكذلك اللفظ العامى والخاصى ، فان أمكنك أن تبلغ من بيان لسانك وبلاغة قلمك ولطف مداخلك واقتدارك على نفسك أن تفهم العامة معانى الخاصة وتكسوها الألفاظ الواسطة التى لا تلطف عن الدهماء ولا تجفو عن الأكفاء ، فانت البليغ التام •

فان كانت المنزلة الأولى لا تواتيك ولا تعتريك ، ولا تسمح لك عند أول نظرك وفى أول تكلفك ، وتجد اللفظة لم تقع موقعها ولم تصر الى قرارها والى حقها من أماكنها المقسومة لها ، والقافية لم تحل فى مركزها وفى نصابها ولم تتصل بشكلها ، وكانت قلقة فى مكانها نافرة من موضعها ، فلا تكرهها على اغتصاب الأماكن والنزول فى غير أوطانها ، فانك اذا لم تتعاط قرض الشعر الموزون ، ولم تتكلف اختيار الكلام المنثور ، لم يعبك بترك ذلك أحد ، وان أنت تكلفتها ولم تكن حاذقا مطبوعا ولا محكما لسانك بصيرا بما عليك أو مالك ، عابك من أنت أقل عيبا منه ، ورأى من هو دونك أنه فوقك •• فان ابتليت بأن تتعاطى الصنعة وتتكلف القول ولم تسمح لك الطباع فى أول وهلة وتعصى عليك بعد اجالة الفكرة فلا تعجل ولا تضجر ودع بياض يومك أو سواد ليلك وعاوده عند نشاطك وفراغ بالك ، فانك لا تعدم الاجابة والمواتاة ان كانت هناك طبيعة أو جريت من الصناعة على عرق •

فان تمنع عليك بعد ذلك من غير حادث شغل عرض ومن غير طول اهمال ، فالمنزلة الثالثة أن تتحول من هذه الصناعة الى أشهى الصناعات اليك وأخفها عليك ، فانك لم تشتهه ولم تنازع اليه الا وبينكما

نسب ، والشيء لا يحن الا الى مايشاكله ، وان كانت المشاكلة قد تكون فى طبقات لأن النفوس لا تجود بمكنونها ولا تسمح بمخزونها مع الرهبة كما تجود مع المحبة والشهوة ، فكذا هذا . قال بشر : فلما قرئت على ابراهيم قال لى ، أنا أحوج الى هذا من هؤلاء الفتيان .

مؤلفات متأخرة فى البلاغة

١ — من شروح تلخيص المفتاح للخطيب : شرح للخلخالى م ٧٤٥ هـ ، وشرح للزوزنى م ٧٩٢ ، وشرح لابن عربشاه م ٩٤٥ ، وقد شرح العباسى أبيات التلخيص فى كتابه « معاهد التنصيص » ونظمه السيوطى فى كتابه « عقود الجمان » .. وقد شرح جمال الدين محمد بن محمد الأقصرائى م ٨٠٠ هـ كتاب الايضاح للخطيب القزوينى فى كتاب أسماه « ايضاح الايضاح » .. (٢ و ٤٥٩) بلاغة — دار الكتب المصرية — مخطوطات) .

٢ — وعلى المطول حواش كثيرة : منها حاشية السيد م ٨١٦ ، وحاشية الفنرى م ٨٨٦ ، وحاشية ملا خسرو م ٨٨٥ ، وحاشية السيرامى المصرى م ٨٣٣ وحاشية الحفيد م ٩٠٦ هـ ، وحاشية الشيرازى م ٩٩٤ هـ ، وعز الدين بن جماعة م ٨١٩ هـ ، والبساطى م ٨٤٢ هـ ، والسمرقندى م ٨٨٠ هـ ، وعبد الحكيم السيالكوتى ١٠٦١ هـ .

٣ — ومن الكتب المتأخرة فىالبلاغة : الجوهر المكنون لعبد الرحمن الأخضرى وقد شرحه ابن يعقوب ، والشيخ أحمد الدمنهورى م١١٩٢هـ.

ومنها : تحفة الاعواز فى علاقات المجاز للسجاعى م ١١٩٧ ، وتحفة الاخوان فى علم البيان للدردير م ١٢٠١ هـ ، والرسالة البيانية للصبان م ١٢٠٦ هـ ، والتجريد للبنان م ١٢١١ هـ ، وحسن الصنيع للشيخ البسيونى م ١٣١٣ هـ ، وزهر الربيع للحملاوى م ١٣٥٢ هـ ،

والبلاغة الواضحة للجارم المتوفى فى ٨ فبراير ١٩٤٩ ، وكتاب « فن القول » للأستاذ أمين الخولى . وهناك مذكرات قيمة مطبوعة فى بحوث البلاغة للأستاذ سليمان نوار ، وللأستاذ حامد عونى .. وللشيخ محمد عرفة عضو جماعة كبار العلماء كتاب قيم فى البلاغة سينشره عما قريب، وله محاضراته البلاغية التى كان يلقيها فى قسم الأستاذية بكلية اللغة العربية ، والتى أفاد منها جمهور كبير من العلماء .

تطبيقـــات

— ١ —

عين الأساليب الخبرية والانشائية فيما يأتى :

١ — « آمن الرسول بما أنزل اليه من ربه ، والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله » .

٢ — « يمحق الله الربا ويربى الصـــدقات ، والله لا يحب كل كفار أثيم » .

٣ — « يأيها الذين آمنوا ، أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم » .

٤ — قال صلى الله عليه وسلم : « استعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان ، فان كل ذى نعمة محسود » .

٥ — ومن وصية عبد الملك بن مروان لأولاده : يا بنى ، كفوا أذاكم ، وابذلوا معروفكم ، واعفوا اذا قدرتم ، ولا تبخلوا اذا سئلتم ، ولا تلحفوا اذا سألتم ، فان من ضيق ضـــيق الله عليه ، ومن أعطى أخلف الله له .

٦ — قال أبو العلاء المعرى :

لا تحلفن على صدق ولا كذب ... فما يفيـــدك الا المـــأثم الحلف

٧ — وقال :

لا تفرحن بما بلغت من العـــلا ... واذا سبقت فمن قليـــل تســـبق

وليحذر الدعوى اللبيب فانهـــا ... للفضـــل مهلكة وخطب موبق

٨ — وقال أبو العتاهية :

بكيت على الشـــباب بدمع عينى فلم يغن البكاء ولا النحيب
ألا ليت الشـــباب يعود يوما فأخبره بما فعــل المشـــيب

٩ — وقال :

يا صـــاحب الدنيا المحب لهـــا أنت الذى لا ينقضى تعبـــه

١٠ — وقال :

ما أحسن الدنيـــا واقبالهـــا اذا أطاع الله من نالهـــا
من لم يؤاس النـــاس من فضلها عرض للادبـــار اقبالهـــا

١١ — وقال الشاعر :

أراك تؤمل حســـن الثنـــاء ولم يرزق الله ذاك البخيـــلا
وكيف يســـود أخـــو فطنـــة يمن كثيرا ويعطى قليـــلا

١٢ — وقال سعيد بن حميد :

وأراك تكلف بالعتـــاب وودنا صـــاف عليه من الوفاء دليـــل
ولعل أيام الحيـــاة قصـــيرة فعـــلام يكثر عتبنـــا ويطـــول

— ٢ —

بين أساليب الخبر وأدوات التوكيد فى الأمثلة الآتية :

١ — « يأيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى ، وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ، ان أكرمكم عند الله أتقاكم ، ان الله عليم خبير » .

٢ — « وفى السماء رزقكم وما توعدون . فورب السماء والأرض انه لحق مثل ما أنكم تنطقون » .

٣ — وقال صلى الله عليه وسلم : « شر الناس الذين يكرمون اتقاء ألسنتهم » .

٤ — وقال على كرم الله وجهه : « مارست كل شىء فغلبته ، ومارسنى الفقر فغلبنى ، ان سترته أهلكنى ، وان أذعته فضحنى » .

٥ — وقال النبى عليه السلام يصف الأنصار : « انكم لتقلون عند الطمع ، وتكثرون عند الفزع » .

٦ — وقال بشار بن برد :

خليلى ان المال ليس بنافع اذا لم ينل منه أخ وصديق

٧ — وقال أبو العتاهية :

ان البخيل وان أفاد غنى لترى عليه مخايل الفقر
ما فاتنى خير امرىء وضعت عنى يداه مئونة الشكر

٨ — وقال آخر :

وللحلم خير فاعلمن مغبة من الجهل الا أن تشمس من ظلم

٩ — وقال حسان بن ثابت :

أصون عرضي بمالي لا أدنســـه   لا بارك الله بعد العرض في المـــال
أحتال للمـــال ان أودى فأكسبه   ولست للعرض ان أودى بمحتال

١٠ — وقال المقنع الكندى يعاتب قومه ، ويصف وفاءه لهم :

وان الذى بينى وبين بنى أبى   وبين بنى عمى لمختلف جــدا
فان أكلوا لحمى وفرت لحومهم   وان هم هووا غيى هويت لهم رشدا
وان زجروا طيرا بنحس تمر بى   زجرت لهم طيرا تمر بهم سعدا
ولا أحمل الحقد القديم عليهم   وليس رئيس القول من يحمل الحقدا
لهم جل مالى ان تتـــابع لى غنى   وان قـــل مالى لم أكلفهم رفـــدا
وانى لعبد الضيف ما دام نازلا   وما شيمة لى غيرها تشـــبه العبدا

١١ — وقال رجل من فزارة يفخر بشرف خصاله وجوده :

الا يكن عظمى طـــويلا فاننى   له بالخصـــال الصالحات وصول
ولا خير فى حسن الجسوم وطولها   اذا لم تزن حسن الجسوم عقول
اذا كنت فى القوم الطوال علوتهم   بعـــارفة حتى يقـــال طويل
وكم قد رأينـــا من فروع كثيرة   تموت اذا لم تحيهن أصـــولُ
ولم أر كالمعروف ، أما مذاقه   فحـــلو ، وأما وجهه فجميـــلُ

١٢ — وقال ســـعيد بن سلم الباهلى : مدحنى أعرابى فأبلغ ، فقـــال :

ألا قل لسارى الليل لاتخش ضلة   ســـعيد بن سلم نور كل بلاد

لنا سيد أربى على كل سـيد جواد حثـا فى وجه كل جواد

قال سعيد : فتأخرت عنه قليلا ، فهجانى ، فأبلغ ، فقال :

لئن أخى مدح ثواب علمتـه وليس لمـدح الباهـلى ثواب
مدحت سعيدا والمديح مهزة فكان كصـفوان عليـه تراب

وفى هذا الشعر اشارة الى قول الله تعالى : « يأيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى ، كالذى ينفق ماله رئاء الناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر . فمثله كمثل صفوان عليه تراب فأصابه وابل فتركه صـلدا » .

١٣ — وقال الشماخ يمدح عرابة بن أوس الأنصارى :

رأيت عرابة الأوسى يسـمو الى العليـاء منقطع القرين
اذا ما راية رفعت لمجـد تلقـاها عـرابة باليمين

١٤ — وقال بشار بن برد فى العتاب :

اذا ما راية رفعت لمجـد تلقـاها عـرابة باليمين
فعش واحدا أو صل أخاك فانه مقارف ذنب مرة ومجانبـه
اذا أنت لم تشرب مرارا على القذى ظمئت وأى الناس تصفو مشاربه

١٥ — وقال ابراهيم الصولى يعاتب محمد بن عبد الملك الزيات وقد تغير عليه بعد ما صار وزيرا :

وكنت أخى باخـاء الزمان فلما نبـا صرت حربا عوانا
وكنت أذم اليـك الزمان فأصـبحت فيك أذم الزمانا

وكنت أعدك للنائبات   فأصبحت أطلب منك الأمانا

١٦ — ومن الهجو قول جرير يهجو تيما :

ويقضى الأمر حين تغيب تيم   ولا يستأذنون وهم شهود
وانك لو رأيت عبيد تيم   وتيما قلت أيهم العبيد

١٧ — وقال الحسين بن مطير يرثى معن بن زائدة :

ألما على معن وقولا لقبره   سقتك الغوادى مربعا ثم مربعا
فيا قبر معن أنت أول حفرة   من الأرض خطت للسماحة مضجعا
ويا قبر معن كيف واريت جوده   وقد كان منه البر والبحر مترعا
بلى قد وسعت الجود والجود ميت   ولو كان حيا ضقت حتى تصدعا
فتى عيش فى معروفه بعد موته   كما كان بعد السيل مجراه مرتعا

١٨ — ولقطرى بن الفجاءة فى الحماسة يخاطب نفسه :

أقول لها وقد طارت شعاعا   من الأبطال ويحك لن تراعى
فانك لو سألت بقاء يوم   على الأجل الذى لك لم تطاعى
فصبرا فى مجال الموت صبرا   فما نيل الخلود بمستطاع
وما للمرء خير فى حياة   اذا ما عد من سقط المتاع

١٩ — وقال الشاعر :

ولم أر كالمعروف أما مذاقه   فحلو ، وأما وجهه فجميل

٢٠ — وقال صردر :

تذل الرجـــال لأطماعهــــا   كذل العبيـــد لأربابهــــا
وأعلم أن ثيـــــاب العفــا   ف أجمـــل زى لجتابهــــا

أى للابسها .

٢١ — وقال آخر :

لعمرك ما يدرى امرؤ كيف يتقى   اذا هو لم يجعل له الله واقيــا

٢٢ — وقال سعيد بن حميد فى العتاب :

أقـــلل عتابك فالبقــاء قليــل   والدهر يعدل تارة ويميــل
ولعل أحداث المنيــة والردى   يوما ستصدع بيننــا وتحــول
فلئن ســبقت لتبكين بحسرة   وليكثرن على منـــك عويل
ولئن سبقت ولاسبقت ليمضين   من لا يشــاكله لدى خليــل
وليذهبن بهـــاء كل مروءة   وليفقدن جمالهـــا الـ أهول

— ٣ —

عين الأغراض المستفادة من الخبر فى الأمثلة الآتية :

١ — قال تعالى : « لله ما فى السموات وما فى الأرض ، وان تبدوا ما فى أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله ، فيغفر لمن يشاء ، ويعذب من يشاء ، والله على كل شىء قدير » .

٢ — وقال تعالى : « عبس وتولى ، أن جاءه الأعمى ، وما يدريك لعله يزكى ، أو يذكر فتنفعه الذكرى ، أما من استغنى فأنت له تصدى ، وما عليك ألا يزكى ، وأما من جاءك يسعى ، وهو يخشى ، فأنت عنه تلهى » .

٣ — قال صلى الله عليه وسلم : « عدل ساعة فى حكومة خير من عبادة ستين سنة » .

٤ — وقال : « ان أشد الناس عذابا يوم القيامة رجل أشركه الله فى حكمه ، فأدخل عليه الجور فى عدله » .

٥ — ومن خطبة له عليه السلام بمكة حين دعا قومه الى الاسلام: ان الرائد لا يكذب أهله ، والله لو كذبت الناس ما كذبتكم ، ولو غررت الناس ما غررتكم ، والله الذى لا اله الا هو ، انى رسول الله اليكم خاصة ، والى الناس كافة .

٦ — قال الشريف الرضى :

جار الزمان فلا جواد يرتجى ... للنائبات ولا صديق يشفق
واذا الحليم رمى بسر صديقه ... عمدا فأولى بالوداد الأحمق

٧ — وقال المعرى :

عرفت سجايا الدهر ، أما شروره   فنقد ، وأما خيره فوعود

٨ — وقال :

رأيت سكوتى متجرا فلزمته   اذا لم يفد ربحا فلست بخاسر

٩ — قال ابن حيوس مادحا :

بنى صالح أقصدتم من رميتم   وأحييتم من أم معروفكم قصدا
وذللتم صعب الزمان لأهله   فذل وقد كان الجماح له وكدا
مناقب لو أن الليالى توشحت   بأذيالها لابيض منهن ما اسودا

١٠ — وقال أبو فراس :

صبرت على اللأواء صبر ابن حرة   كثير العدا فيها قليل المساعد
منعت حمى قومى وسدت عشيرتى   وقلدت أهلى غر هذى القلائد

١١ — وقال يخاطب سيف الدولة :

وكم لك عندى من أياد وأنعم   رفعت بها قدرى وأكثرت حسدى
وانك للمولى الذى بك أقتدى   وانك للنجم الذى بك أهتدى

١٢ — وقال :

ونحن أناس لا توسط بيننا   لنا الصدر دون العالمين أو القبر
تهون علينا فى المعالى نفوسنا   ومن يخطب الحسناء لم يغلها المهر

١٣ — وقال ابن الرومى فى رجل اسمه عيسى :

يقتر عيسى على نفسه وليس بباق ولا خالد
ولو يستطيع لتقتيره تنفس من منخر واحد

١٤ — وقال أبو العلاء :

بلوت أمور الناس من عهد آدم فلم أر الا هالكا اثر هالك
اذا كان هذا الترب يجمع بيننا فأهل الرزايا مثل أهل الممالك

١٥ — وقال أعرابى يرثى ولده :

بنى لئن ضنت جفون بمائها لقد قرحت منى عليك جفون
دفنت بكفى بعض نفسى فأصبحت وللنفس منها دافن ودفين

١٦ — قال زهير فى قوم هرم بن سنان :

قوم أبوهم سنان حين تنسبهم طابوا وطاب من الأولاد ماولدوا
لو كان يقعد فوق الشمس من كرم قوم بأولهم أو مجدهم قعدوا

— ٤ —

عين المسند والمسند اليه ، وبين الأساليب الخبرية والانشائية .
واذكر أغراض الخبر فيما يأتى :

١ — قال تعالى : « يا أيها الذين آمنـوا أنفقوا من طيبـات ما كسبتم ، ومما أخرجنا لكم من الأرض ، ولا تيمموا الخبيث منـه تنفقون ، ولستم بآخذيه الا أن تغمضوا فيه ، واعلموا أن الله غنى حميد * الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء ، والله يعدكم مغفرة منه وفضلا ، والله واسع عليم * يؤتى الحكمة من يشاء ، ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا » .

٢ — قال عليه السلام : « من أعطى حظه من الرفق فقد أعطى حظه من الخير كله ، ومن حرم حظه من الرفق فقد حرم حظه من الخير كله » .

٣ — وقال : « لا يزال الرجل عالمـا ما طلب العلم ، فاذا ظن أنه قد علم فقد جهل » .

٤ — ومن خطبة لخالد بن عبد الله القسرى : « نافسـوا فى المكارم ، وسارعوا الى المغانم ، واشتروا الحمد بالجود .. واعلموا أن حوائج الناس اليكم ، نعمـة من الله عليكم ، فـلا تملوا النعم فتحولوها نقما » .

٥ — ومن رسالة لابن زيدون : « قد يغص بالمـاء شـاربه ، ويقتل الدواء المستشفى به ، ويؤتى الحذر من مأمنه ، وتكون منية المتمنى فى أمنيتـه ... وعلمك محيط بأن المعروف ثمرة النعمـة ، والشفاعة زكاة المروءة ، وفضل الجاه تعود به صدقة :

واذا امرؤ أسـدى اليك صـنيعة　　من جـاهه فكأنهـا من ماله

٦ ـ قال ابو العتاهية :

اذا ما مضى القرن الذى أنت منهم　　وخلفت فى قرن فأنت غريب
وان امرأ قد سار خمسين حجـة　　الى منهـل من ورده لقـريب

٧ ـ وقال أبو العـلاء :

احذر سنيلك فالنـار التى خرجت　　من زندها ان أصابت عوده احترقا

٨ ـ وقال الأخطل :

وان امـرأ لا يبثنى عن غـواية　　اذا ما اشـتهتها نفسه لجهـول

٩ ـ وقال حسان بن ثابت :

وان امرأ يمسى ويصـبح سالمـا　　من الناس الا ما جنى لسـعيد

١٠ ـ وقال المتنبى :

الـذ له المـروءة وهى تؤذى　　ومن يعشـق يلذ له الغـرام

١١ ـ وقال الحسين بن مطير :

أحـب مكارم الأخـلاق جهـدى　　وأكره أن أعيـب وأن أعابا
وأصفح عن سـباب الناس حلما　　وشر الناس من يهوى السـبابا
ومن هـاب الرجـال تهيبـوه　　ومن حقر الرجـال فان يهـابا

١٢ — قال رجل من طيىء :

ومن يفتقر في قومه يحمد الغنى   وان كان فيهم واسط العم مخولا
ويزرى بعقل المرء قلة ماله   وان كان أسرى من رجاله وأحولا

١٣ — الشاعر :

ان الطبيب يموت بالداء الذى   قد كان يشفى مثله فيما مضى

١٤ — قال عروة بن الورد :

ذرينى للغنى أسعى فانى   رأيت الناس شرهم الفقير
يباعده القريب وتزدريه   حليلته وينهره الصغير
وتلقى ذا الغنى وله جلال   يكاد فؤاد صاحبه يطير
قليل ذنبه والذنب جم   ولكن للغنى رب غفور

١٥ — وقال قيس بن عاصم المنقرى في قومه :

خطباء حين يقول قائلهم   بيض الوجوه مصاقع لسن
لا يفطنون لعيب جارهم   وهم لحفظ جواره فطن

١٦ — وقال وعلة بن الحارث :

قومى همو قتلوا — أميم — أخى   فاذا رميت يصيبنى سهمى

١٧ — وقال المتنبى :

ذل من يغبط الذليل بعيش   رب عيش أخف منه الحمام

فهرست الجزء الأول